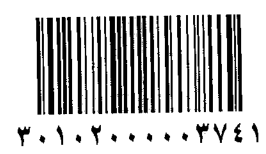
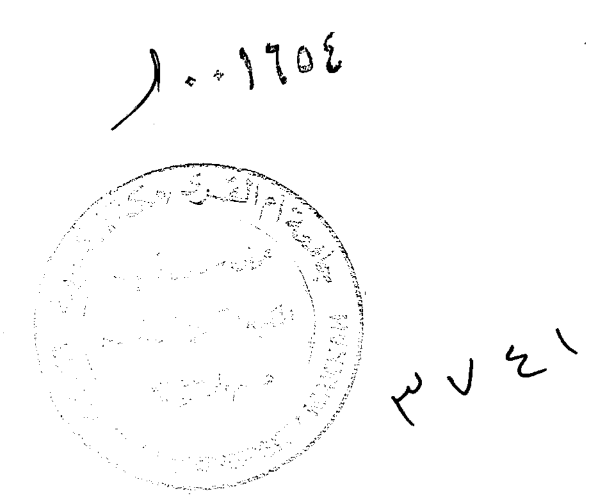


المملكة العربية السعودية
جامعة أم القرى
كلية أصول الدين
قسم العقيدة



المقريزي وآراؤه الاعتقادية وموقفه من الفرق

دراسة و نقد في ضوء مذهب أهل السنة و الجماعة

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير

من الطالب : إبراهيم بن مسعود المالكي
إشراف الدكتور / أحمد بن محمد البناني

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي علمنا الحكمة والقرآن وألبسنا لباس التقوى ذلكم خير لباس وجعلنا من خير أمة أخرجت للناس والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على المبعوث رحمة للناس وعلى آله وصحبه الذين ذهبوا بعز الدنيا وشرف الآخرة أولئك الأكياس . أما بعد:

فقد كان موضوع الرسالة (الإمام المقريزي وأراؤه الاعتقادية وموقفه من الفرق دراسة ونقد في ضوء مذهب أهل السنة والجماعة). وقسمت البحث إلى ثلاثة أبواب وتحت كل باب فصول ومباحث.

فكان الباب الأول : عصر المقريزي وحياته.

والباب الثاني : أراؤه الاعتقادية وبينت من خلال هذا الباب منهجه في كتابة العقيدة وما عني به من جناب التوحيد كتوحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات والقدر وخلق أفعال العباد ثم بيان البدع والمخالفات الشرعية وموقفه منها رحمه الله.

والباب الثالث: موقفه من الفرق التالية : الخوارج ، والشيعه ،والمرجئة ،والمعتزلة ،والأشاعره ،والكرامية ، وكانت الدراسة في البابين السابقين دراسة مقارنة لأقوال السلف الصالح رحمهم الله مع بيان رأي المقريزي فيها وموقفه من الفرق الضالة ونقده لها ثم خاتمة البحث.

ولقد عني المقريزي بجانب العقيدة كغيره من علماء السلف رحمهم الله تعالى فألف كتاب (تجريد التوحيد المفيد) الذي جعله تأصيلاً وتفريعاً في توحيد الألوهية واستفاد في هذا الكتاب من شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهم الله تعالى وكانت أهم النتائج كالتالي :

أولاً: أهمية علم العقيدة وعناية السلف الصالح به.

ثانياً : عناية المقريزي بجانب العقيدة .

ثالثاً : بيانه للفرق الضالة والرد عليها مع إيضاح مذهب أهل السنة والجماعة

رابعاً : سلامة معتقده وبراءته مما نسب إليه من التشيع.

وختاماً أسأل الله أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وأن يوفقني وإياكم لكل خير وبر وأن يجنبنا جميعاً طريق الغواية والضلال إنه ولي ذلك والقادر عليه.

الطالب	المشرف	عميد كلية الدعوة وأصول الدين
إبراهيم بن مسعود المالكي	د. أحمد بن محمد البناني	د. عبدالله بن عمر الدميجي

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده و رسوله.

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون)[1] (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً)[2] (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً)[3] .

---

(1) آل عمران آية ١٠٢ .

(2) النساء آية ١ .

(3) الأحزاب الآيات ٧٠-٧١ .

أما بعد:

فقد يسر الله تعالى بعد الفراغ من السنة المنهجية أن اخترت موضوعاً لرسالة الماجستير بعنوان (المقريزي وآراؤه الاعتقادية وموقفه من الفرق) دراسة ونقد في ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة .

وذلك أنني لمست أن هذا الموضوع لم يبحث من قبل فرأيت أنه جدير بالبحث والعناية، لما للمقريزي من إسهامات شتى في كثير من الفنون وتميزه بفن التأريخ خاصة.

فحاولت جمع شتات الموضوع عله أن يكون لبنة من لبنات العقيدة في المجتمع الإسلامي.

أهمية الموضوع وسبب الاختيار:

ترجع أهمية الموضوع إلى المباحث المتناولة فيه، فإن معظمها في توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات والقدر، ولا يخفى على كل مسلم ما لهذه القضايا من أهمية في حياة الأمة، إذ عليها تحيا وعليها تموت ومن أجلها تبعث .

وقد اخترت عرض هذا الموضوع بصورة هي أشبه بالمقارنة بين آراء المقريزي وآراء العلماء كشيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم وذلك لاستفادة المقريزي منهما كثيرا في كثير من آراءه ونقولاته .

السبب في اختيار الموضوع:

يرجع السبب في ذلك إلى أمرين:

الأول: من خلال التتبع والاستقراء والمطالعة رأيت أن للمقريزي كتابات في العقيدة منها ما كتب في مؤلف مستقل ككتاب تجريد التوحيد المفيد ومنها مـــا نثره بين صفحات كتبه، فرأيت أنه موضوع جدير بالبحث والدراسة، علـــه يقدم إسهاماً في مجال العقيدة ولا سيما أن المقريزي كان قريب عهد بعملاقين عظيمين في هذا الفن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وتلميذه ابن القيم عليه رحمة الله.

الـــثاني: أن بعـــض الكتاب تعرض في ثنايا كلامه بتشيع المقريزي فوجدتها فرصة مواتية لدراسة الموضوع وبيان الحق فيه.

خطة الرسالة:

قسمت البحث إلى ثلاثة أبواب:

الباب الأول : عصر المقريزي وحياته .

وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول: عصره وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: الناحية السياسية .

المبحث الثاني: الناحية الاقتصادية .

المبحث الثالث: الناحية العلمية والفكرية .

المبحث الرابع: الناحية الدينية والاجتماعية .

الفصل الثاني : حياته الشخصية وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: نسبه وولادته ونشأته ووفاته

المبحث الثاني : شيوخه وتلاميذه

المبحث الثالث: مذهبه

الفصل الثالث: حياته العلمية وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: مؤلفاته العلمية
المبحث الثاني: جهوده في العقيدة
المبحث الثالث: جهوده في التأريخ
المبحث الرابع: جهوده في الفقه والحديث والأدب
الباب الثاني
آراؤه الاعتقادية وفيه أربعة فصول:
الفصل الأول: منهج المقريزي في دراسة العقيدة.
الفصل الثاني: التوحيد وفيه ثلاثة مباحث:
المبحث الأول: توحيد الربوبية
المبحث الثاني: توحيد الألوهية
المبحث الثالث: توحيد الأسماء والصفات .
الفصل الثالث: القدر وخلق أفعال العباد .
الفصل الرابع: البدع والمخالفات الشرعية .
الباب الثالث موقفه من الفرق وفيه فصلان:
الفصل الأول: موقفه من الفرق المختلفة في قضية الإمامة وفيه ثلاثة مباحث :
المبحث الأول: الخوارج .
المبحث الثاني: الشيعة .
المبحث الثالث: المرجئة .
الفصل الثاني: موقفه من الفرق الكلامية وفيه ثلاثة مباحث: المبحث الأول: المعتزلة
المبحث الثاني: الأشاعرة .
المبحث الثالث: الكرامية .
وهنالك قضايا كانت في خطة البحث إلا أنني من خلال التتبع و الاستقراء لما كتبه المقريزي لم أقف على كلام له رحمه الله فيها .
ومن هذه القضايا : الرؤية — النبوة — اليوم الآخر وما فيه .

ومبحث الماتريدية في موضوع الفرق ولذلك أقصيتها من خطة البحث لعدم وجود مادة علمية فيها .

الباب الأول حياة المقريزي وعصره وفيه فصلان

الفصل الأول : عصر المقريزي وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول : الناحية السياسية .

المبحث الثاني : الناحية الاقتصادية .

المبحث الثالث : الناحية العلمية و الفكرية .

المبحث الرابع : الناحية الدينية و الاجتماعية .

المبحث الأول : الناحية السياسية

لقـــد عاش الإمام المقريزي رحمه الله في عهد دولة المماليك التي كانت تموج بالاضطرابات السياسية، لذلك كان للمقريزي رحمه الله دور كبير في تصوير أحداثهـــا والمشاركة في نقد أحوالها و لم يكن. بمنأى عنها كما يفعل كثير من الكتاب والمؤرخين .

ونجد أن دولة الممالك في مصر قامت على أنقاض الدولة الأيوبية عام (٦٤٨ هـــــ) (١٢٥٥ م) وذلك عقب القضاء على آخر سلاطين بني أيوب وهو (غياث الدين توران شاه بن الصالح أيوب) وذلك على يد المماليك البحرية [١].

وكـــان أول ســـلاطين المماليك هو (عز الدين آيبك التركماني) [٢] ولقد قامت دولة المماليك إلى سنة ٩٢٣ هـــ- ١٥١٩ م حيث قضى عليها على يد السلطان العثماني سليم الأول وكان آخر سلاطينها هو السلطان طومان باي في هذه السنة [٣].

---

(١) ابن كثير البداية والنهاية ٧/ ١٩٥

(٢) ابن كثير البداية والنهاية ٧/ ١٩٠

(٣) ابن إياس بدائع الزهور في وقائع الدهور ٥/ ١٤٢

ونرى أن الدولة المملوكية بسطت نفوذها أولا على مصر ثم قامت بعد ذلك الشام في عهد الملك الناصر بن قلاوون [1] .

كما ارتبطت ببلاد الحجاز وكان يخطب على منابرها لسلطان المماليك[2] كذلك خضعت أجزاء من آسيا الصغرى حتى طرسوس [3] و فلسطين [4] .

كما خضعت لها جزيرة قبرص وامتدت أطرافها الجنوبية من عيذاب [5] على البحر الأحمر إلى بلدة القصيرة جنوب أسوان كما دانت لها القبائل التركمانية وديار بكر على الأطراف الشمالية الشرقية .

---

(١) محمد بن خليل الأسدي التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار فيما يجب من محاسن التدبير والتصرف والاختيار ص ٧٧

(٢) طرق التجارة الدولية ومحطاها بين الشرق والغرب في أواخر العصور الوسطى ص ١٧ لنعيم زكى فهمى

(٣) بلد بالشام مشرف على البحر الأحمر قرب عكا معجم البلدان لياقوت الحموي ٤/٣٥ .

(٤) اسمها الصحيح ملطية وهى بلد الروم متاخم الشام وهى للمسلمين ، معجم البلدان لياقوت الحموي ٥/١٩٢

(٥) بلدة صغيرة على ضفة بحر القلزم (البحر الأحمر) وهى مرسى المراكب التي تقدم من عدن إلى الصعيد معجم البلدان ٤/١٧١

المشكلات الخارجية :

لقـــد كانـــت المشاكل الخارجية تتمثل في هجمات الفرنجة المستمرة على الدولة المملوكية مما أدى إلى ضعفها وعدم استقرارها.

وكانـــت تلـــك الهجمـــات تؤثر تأثيراً كبيراً في عدد من القضايا السياسية والاقتصادية والفكرية والاجتماعية.

ولم تكن تهدأ هجمات الفرنجة على الشمال الغربي للدولة المملوكية وبالذات على ميناء الإسكندرية، ومما ساعد على ذلك ضعف التحصينات لثغر الإسكندرية، وانصراف السلطان ومماليكه إلى حل المشكلات الداخلية.

ولعـــل أســـوأ ما حصل من هجمات الفرنجة هو قيامهم بغزو الإسكندرية ونجاحهم في اقتحامها سنة ٧٦٧ هـــ وقيامهم بسلبها ونهبها وسلب أهلها وتجارها بالذات، ونهب دورها وأسواقها وسرقة بيت المال وتجريده مما فيه ، وقـــد وصـــف المقريـــزي تلـــك الحادثة الشنيعة مبيناً آثارها الاقتصادية "وقـــد نزل من الفرنج جماعة في الليل بخيولهم وكمنوا في التراب التي بظاهر المدينة ، فلما تكاثر جمع المسلمين من العربان وأهل الثغر عند المنار برز لهم غـــراب البحر السلسلة حتى قارب السور، فقاتله المسلمون قتالاً شديداً قتل فـــيه عدة من الفرج واستشهد جماعة من المسلمين وخرج إليهم أهل المدينة وصاروا فرقتين، فرقة مضت مع العربان نحو المنار وفرقة وقفت تقاتل الفرنج بالغـــراب ، وخرجت الباعة والصبيان وصاروا في لهو، وليس لهم اكتراث بـــالعدو ، فضـــرب الفرنج عند ذلك نفيرهم، فخرج الكمين وحملوا على المسلمين حملة منكرة، ورمى الفرنج من المراكب بالسهام، فانهزم المسلمون وركـــب الفرنج أقفيتهم بالسيف ونزل بقيتهم إلى البر فملكوه، بغير مانع وقدمـــوا مراكـــبهم إلى الأسوار، فاستشهد خلق كثير من المسلمين وهلك مـــنهم في الازدحام عند عبور باب المدينة جماعة وخلت الأسوار من الحماة فنصـــب الفرنج سلالم وطلعوا السور وأخذوا نحو الصناعة، فحرقوا ما بها، وألقـــوا النار فيها، ومضوا إلى باب السدرة، وعلقوا الصليب عليه، فانحشر

الناس إلى باب رشيد وأحرقوه، ومروا منه على وجوههم، وتركوا المدينة مفتوحة بما فيها للفرنج.

وأخذ الأمير جنغرا ما كان في بيت المال، وقاد معه خمسين تاجراً من تجار الإفرنج كانوا مسجونين عنده، ومضى هو وعامة الناس إلى جهة دمنهور، فدخل وقت الضحى من يوم الجمعة ملك قبرص ربير بطرس ابن ريوك وشق المدينة وهو راكب فاستلم الفرنج الناس بالسيف، ونهبوا ما وجدوه من صامت وناطق وأسروا وسبوا خلائق كثيرة وأحرقوا عدة أماكن وهلك في الزحام بباب رشيد مالا يقع عليه حصر فأعلن الفرنج دينهم وانضم إليهم من كان بالثغر من النصارى، ودلوهم على دور الأغنياء، فأخذوا ما فيها واستمروا كذلك، يقتلون ويأسرون ويسبون وينهبون ويحرقون من ضحوة نهار الجمعة إلى بكرة نهار الأحد، فرفعوا السيف وخرجوا بالأسرى والغنائم إلى مراكبهم وأقاموا فيها إلى يوم الخميس ثامن عشرينه ثم أقلعوا، ومعهم خمسة آلاف أسير فكانت إقامتهم ثمانية أيام فكانت هذه الواقعة من أشنع ما مر بالإسكندرية من الحوادث ومنها اختلفت أحوالها، واتضع أهلها، وقلت أموالهم، وزالت نعمهم وكان الناس في القاهرة منذ أعوام كثيرة تجري على ألسنتهم جميعا في يوم الجمعة تؤخذ الإسكندرية فكان كذلك [1].

ومر بمن خرج في وقت الهزيمة من العربان بلاء لا يوصف [2]، هكذا كانت تلك الحادثة المروعة التي دمرت كثيراً من المنازل والدور ونهبت وسلبت كثيراً من الأموال والضياع وقتلت خلقاً كثيراً وأسر فيهم ما لاعدله ولا حصر .

---

(١) لا يعلم الغيب إلا الله عز وجل ولكن ما يقع من الأحداث تبعا لسنة الله الجارية في الكون إن خالف الناس شرعه وعصوا أمره .

(٢) السلوك للمقريزي ٣/١٠٥-١٠٧

تـــدل دلالـــة واضحة على تقصير الأمراء ، وعدم اكتراثهم مما يقع للناس ولذلـــك نجد أن الأمير يلبغا بعد عوده من الإسكندرية أشار بالقبض على الأمـــير قطلوبغـــا المنصوري فقبض عليه ونفى إلى الشام وأنعم على الأمير أرغـــون الأزقي بتقدمته، واتخذ الأمير يعقوب شاه اليحياوي حاجبا عوضا عن قطلوبغا المنصوري [1] .

وهكـــذا يســـتمر الحال من الإغداق على أمير بعد أمير إن راق لهم وطرد ســـابقه إن أغضب السلطان، ومع ذلك فإن الأمير المطرود لا يخلو من أخذ أمـــوال طائلة قبل طرده وخلعه من منصبه مما يؤثر ذلك في السياسة المالية والاقتصادية للدولة المملوكية .

و لم يكـــن العامل المادي هو الدافع الوحيد لهذه الهجمات بل إن البابا كان له دور في تأجيج الحقد الصليبي الديني عند النصارى كدافع لها.

ذلـــك أن المماليك كان لهم دور كبير في القضاء على آخر معاقل الصليبيين في الشـــام عـــندما استولوا على عكا بفلسطين ؛ بل ان الدافع العقدي عند النصـــارى يكاد أن يكون هو السبب المباشر في اجتياح بلاد المسلمين منذ الغزو الصليبي ، أو ما يسمى بالحملات الصليبية على البلاد الإسلامية .

وأمـــا الدوافع المادية فهي تدخل ضمن الدوافع العقدية فلا تخلو حملة تشن عـــلى العـــالم الإسلامي من سلب الأموال وقتل الأولاد والذراري ويتضح ذلك من خلال الاستقراء والتتبع لما يقوم به النصارى قديماً وحديثاً في بلاد المسلمين.

---

(١) السلوك للمقريزي ١٠٨/٣

المشكلات الداخلية :

لم تكـــن المشـــكلات السياسية الخارجية وحدها التي كانت تشغل الدولة المملوكية وتلقي تبعاقما على كاهل شعبها.

بـــل كانت هنالك مشاكل داخلية كثيرة، وانحصرت أغلبها بين رجالات الدولـــة المملوكية وسلاطينها ومماليكها، وقد كان لهؤلاء دور كبير في إثارة هـــذه القلاقل والفتن داخل الدولة المملوكية وكانت هذه الفتن أغلبها إما بســـب عجز الدولة عن الإنفاق عليهم أو عدم رغبتهم في السلطان القائم ورغبتهم في تغييره أو لغير ذلك من الأسباب ولعل وضع الدولة المملوكية، والقـــائم عـــلى اعـــتماد كل سلطان من سلاطينهم على طائفة معينة من الممالـــيك يتســـتر بهم ويتسمون باسمه ويجندهم لحماية مصالحه أو لحمايته ويقـــرهم أكـــثر من غيرهم هو السبب لهذه المشكلات الكثيرة التي يثيرها المماليك حيث كثرت وتعددت طوائفهم، وبالتالي تعددت ولاءاتهم، حيث كان هنالك مماليك يسمون بالظاهرية وآخرين بالناصرية والمؤيدية والحكمية والنورزية (١) .

وكان كلما انتهى حكم سلطان من هؤلاء السلاطين وجاء غيره قدم وقرب أناســـاً من المماليك وأبعد ناساً آخرين ، وقصر في نفقاتهم فأوغر صدورهم وتســـاهل بأمرهم فيشايعهم أناس آخرون فتثور الفتن بذلك وقد تؤدي إلى إسقاط سلطان وإقامة آخر.

ولعـــل من أبرز الأمثلة على ذلك، الحادثة بين الأمير برقوق وأولاد سلطان البحرية.

وفي يـــوم الاثـــنين سابع ذي القعدة سنة ٧٨٤ هـــ غضب السلطان على الوزيـــر عـــلم الدين عبدالوهاب الطنساوي- ويقال له سن أبرة – وضربه واستدعى الأسعد أبي الفرح النصراني كاتب الحوائج خاناه- وأكرهه حتى أظهر الإسلام فخلع عليه وأركبه فرساً بسرج ذهب .

---

(١) المقريزي المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ١/ ٩٥

وفي هـــذا الشـــهر ورد الـــبريد بأن الأمير يلبغا الناصري نائب حلب سار بعسكر حلب إلى ابيرة يريد تعديه الفرات، فجاءه الخبر بعصيان الأمير علاء الديـــن الطنـــبغا الســـلطاني- نائب الأبلستين - وأنه لم يحلف للسلطان، واســـتولى على قلعة درنده- المضافة إليه وطلع إليها وأمسك بعض أمرائها وأطلـــع إلـــيها ذخيرة وميرة. فركب العسكر الذي بالمدينة عليه وأمسكوا رجاله، فطلب الأمان منهم وفر من القلعة إلى الأبلستين.

وفي يوم الثلاثاء سادس ذي الحجة سنة ٧٨٤ هـــ قبض على الأمير قرط نائـــب الوجه البحري- لقبح سيرته وسوء أفعال حاشيته وضرب بين يدي الأمـــير أيتمش ضرباً مبرحاً ثم جلس وصودر هو وجماعته وفر ابنه حسين فنودي عليه، وهدد من أخفاه وخلع على الأمير قرا بلاط الأحمدي واستقر عوض قرط [١] .

ومـــن ذلك أيضاً الحركة الاقتصادية التي قام بها الأمير جكم والأمير نوروز عـــلى الســـلطان الناصر برقوق وكذلك فتنة الأمير شيخ وغيرها من الفتن يضـــاف إلى ما سبق الفتن التي يقوم بها عرب الصعيد بمصر والتركمان في الشام [٢] .

ولقـــد كانـــت لهـــذه الفتن والمشاكل الداخلية آثار كبيرة ومباشرة على الأوضاع الاقتصادية في دولة المماليك حيث كانت تستغل هذه الفتن لنهب البـــيوت وحوانيـــت الناس وأسواقهم تحت ستار أنهم من أنصار المنهزمين الخارجين [٣] .

---

(١) السلوك في معرفة دول الملوك للمقريزي ٤٨٢/٣ .

(٢) المقريزي السلوك ٣/١٢٣ .

(٣) السلوك ١٣٧/٣.

انحسار وضعف التجارة الخارجية لدولة المماليك :

مـــن العوامـــل التي أدت إلى الاضطراب السياسي في دولة المماليك انحسار وضعف التجارة الخارجية مما أدى إلى الأعباء الضخمة التي تتحملها الدولة وثقل كاهلها بتلك الالتزامات الضخمة التي لم تستطع الوفاء بها مما أدى معه إلى التأثير المباشر في الجانب السياسي كما مر سابقاً من الاضطرابات والفتن .

وظهـــرت بوادر الانحسار منذ وقت مبكر من عمر الدولة المملوكية ولعل للدولـــة المملوكـــية الدور الأكبر في ضعف التجارة الخارجية وذلك نتيجة للاحتكارات الكبيرة التي نتج عنها سلبيات عديدة لعل أخطرها القضاء على طائفة التجار الذين كانوا يعملون في تجارة البهار بين الشرق والغرب.

حيـــث سعت الدولة المملوكية للتضييق عليهم لتحل محلهم في مباشرة تلك التجارة وقد نجحت في ذلك .

لكـــنها فشـــلت في إبقاء سيطرتها على التجارة بين الشرق والغرب نتيجة للأســـعار الاحتكارية التي كانت تفرضها على سلعة البهار لمن يشتريها من الفـــرنج، ولذلك عمل الفرنج على توجيه تجارة التوابل من الإسكندرية إلى لشبونة وكان لهم ذلك عندما نجح البرتغاليون من الالتفاف حول أفريقيا عن طريق رأس الرجاء الصالح ، وبالتالي الوصول إلى سواحل الهند الغربية، ومما لا شـــك فـــيه خطورة هذا الاكتشاف على المركز التجاري الكبير لدولة المماليك كأكبر وسيط للتجارة في ذلك الوقت بين الشرق والغرب .

مما دفع بالسلطان المملوكي قنصوه الغورى إلى إرسال رسائل الاحتجاج إلى الـــبابا وملكـــي إسبانيا والبرتغال حيث هدد فيها السلطان المملوكي بهدم كنيسة القيامة .

ومـــنع الحجـــاج مـــن الحـــج إلى الأراضـــي المســـيحية المقدســـة في فلسطين[١] إذا لم يكف البرتغاليون عن تهديد التجارة المماليكية.

لكنه لم يجد استجابة لطلبه، فأرسل السلطان المملوكي حملة بحرية إلى الهند حيث استطاع هزيمة البرتغاليين. بمعونة أسطول مملكة جوجيرات الهندية المسلمة وذلك عام ١٥٥٨م ثم تمكن البرتغاليون في معركة (ديو) عام ١٥٥٩م من تحطيم الأسطول المملوكي وأسطول مملكة جوجيرات وبعد أحداث طويلة سويت المشكلة في معاهدة عام ١٥٦٢م [٢] .

فتنة تيمورلنك واجتياحه للبلاد الإسلامية :

ومن الفتن والبلايا التي أثرت في المجريات السياسية ما حدث من اجتياح تيمورلنك للبلاد الشامية حيث عاث فيها فساداً وأهلك الحرث والنسل ونهب الأموال وخرب المدن وأحدث آثاراً سلبية خطيرة عانت منها تلك البلاد ردحاً من الزمن حيث دخل إلى دمشق ولم يخرج منها حتى أتلف كل شيء فيها وأحرقها بعد أن نهبها وكذا حلب وغيرها من المدن الشامية حتى أن بعض مدن الشام لم تقم لها قائمة ولا لأهلها بعد تلك

---

(١) ليس للنصارى سلطان في بلاد المسلمين إذ بالفتح الإسلامي أصبحت بلاد الشام كلها إسلامية وليس للنصارى فيها مكان ولكن إذا ضعف المد الإسلامي آل الأمر إلى ما آل إليه في عصر المماليك وما هو جار على الساحة الآن .

(٢) طرق التجارة لنعيم زكى فهمي ص ٣٠- ٣١ .

الفتنة ولقد أحدثت تلك الفتنة مصائب أخرى لعل من أبرزها (المصادرات الشـــنيعة لأمـــوال الناس وفرض الضرائب الجائرة والمبالغة في ذلك من قبل سلاطين المماليك وذلك في مواجهة هذا الخطر الداهم من بلاد الشرق [1] .

(١) السلوك للمقريزي ١٠٣/٣ .

النظام الإداري لدولة المماليك :

تميزت الدولة المملوكية بجهاز إداري على مستوى عالي من التنظيم يقف على رأسه السلطان المملوكي والذي بيده أمر السلطنة .

وهناك منصب الخليفة العباسي وهو لا يعدو أن يكون منصباً تشريفياً وليس له من الأمر شئ وقد ابتدأ هذا التقليد مع قيام الدولة الأيوبية على أنقاض الدولة الفاطمية حيث أقيمت الخطبة لبني العباس. بمصر وأعمالها وذلك في سنة ٥٦٧ هـ .

ومن ثم أصبح منصب الخليفة العباسي تقليداً وتشريفاً واستمر ذلك في دولة المماليك البحرية والبرجية [١] .

ثم هنالك منصب نائب السلطنة ويملك صلاحيات كبيرة في التولية والعزل وتصريف الأمور الداخلية والبت فيها [٢] .

ولكل إقليم والي ونائب [٣] ولكل وجهة كاشف [٤] وعدهم أربعة عشر نائب الإسكندرية ونائب البحيرة ونائب دمياط ونائب قوص وكاشف الغربية وكاشف الشرقية وكاشف المنوفية وكاشف الفيوم وكاشف البهنسا وكاشف الأشمونيين وكاشف البحري

---

(١) ابن كثير البداية والنهاية ٢٨٣/٦ .

(٢) السلوك ٢٥٥/٣

(٣) النائب هو لقب القائم مقام السلطان في عامة أمور أو غالبها ، القلقشندي صبح الأعشى ٤٥٤/٥

(٤) لقب يطلق على من وظيفته الإشراف على الجسور الزراعية وله معاونون ،صبح الأعشى ٤٤٥/٣

وكاشف الوجه القبلي ومتولي قطيا ومتولي أسوان [1] .

ويضـــاف إلى ما سبق نواب الحجاز والشام وهم نائب المدينة ونائب مكة ونائب دمشق ونائب حلب وغيرها من البلاد الشامية ولكل ما سبق أعوان وأتباع وموظفون .

مما يشير إلى ضخامة الجهاز الإداري لدولة المماليك مما يترتب عليها نفقات ضخمة لا بد لها من توفيرها.

(١) الأحمدي التيسر والاعتبار ص ٧٠ .

الجيش المملوكي :

أما الجيش المملوكي فقد كان منقسماً إلى قسمين :

١- أجناد الحلقة .

٢- والمماليك السلطانية .

وقد كانت عدهم متفاوتة فترة حكم المماليك وبلغت أعلى حد لها في عهد السلطان الناصر بن قلاوون أربعة وعشرين ألف فارس عليهم أربعة وعشرين مقدماً وهم الأمراء ومنهم اثنا عشر أمير من أمراء الألف [١] .

الوظائف الدينية :

وهي قضاة القضاة الأربعة قاضي قضاة الشافعية وقاضي قضاة الأحناف وقاضي قضاة المالكية وقاضي قضاة الحنابلة.

ولقد كان لكل قاض من هؤلاء نواب يباشرون الحكم بين الناس ويشرف عليهم قضاة القضاة .

ومن الوظائف الشرعية ناظر الحسبة الشريفة وناظر آدر الضرب وناظر البمارستان وناظر المفرد الشريف [٢] .

وناظر الأشراف وناظر بيت المال ومفتي دار العدل وناظر الميقات [٣] .

---

(١) ابن شاهين زاده كشف المماليك ص ١١٥ .

(٢) الديوان الخاص بأموال السلطان والمرصد لعطاياه وهباته ونفقاته .

(٣) كشف المماليك ص ١١٥ .

ولقد كان جهاز الدولة المملوكية يمثل عبئاً كبيراً على ميزانية الدولة وذلك لما يحتاج إليه من إنفاقات كبيرة مما تسبب في إرهاقها بل قد عجزت عن الوفاء بها في أحايين كثيرة [1] مما كان يسب في وقوع النزاعات بين المماليك وسلاطينهم .

ولقد ذكر المقريزي مثالا عجيباً على كثرة النفقات التي كانت تصرف للسلطان وحاشيته بينما يموت الناس جوعاً.

إذ يقول كانت شقائق الحرير تفرش للسلطان ليسير عليها من عند قبة النصر وحتى القلعة [2] في وقت يعيش فيه الناس الضنك وقلة العيش .

وهنالك مسألة مهمة يجب ألا تغفل ونحن نتحدث عن الجهاز الإداري لدولة المماليك وهي أن تولي المناصب الإدارية والقيادية في الدولة المملوكية لم يكن يخضع للضوابط الشرعية المعروفة بل كان خاضعاً لمدى قدرة الراغب في ذلك المنصب على دفع المبلغ المطلوب بحيث لو قام شخص آخر بدفع ما يزيد على ما دفع الأول لأسند الأمر إليه [3]

ومن هنا يتضح مدى فساد النظام الإداري الذي يقوم على المزايدات المالية مما يؤدى بالتالي إلى أن يكون صاحب ذلك المنصب لا هم له إلا ضرب الإتاوات على الناس من أجل استرداد ما أنفق وأخذ أكبر قدر ممكن من المال أثناء توليه ذلك المنصب مما أدى إلى تدهور الوضع السياسي في الدولة المملوكية.

---

(١) كشف المماليك ص ١١٥ .

(٢) السلوك ٢٩٥/٣ .

(٣) السلوك ١٠١٦/٣ .

المبحث الثاني: الناحية الاقتصادية

لقد تحدثنا في المبحث الأول عن الناحية السياسية وأن عصر المقريزي رحمه الله مـــليء بالاضـــطرابات والخلافات السياسية وتطرقت من خلال ذلك المبحـــث إلى بعـــض القضايا الاقتصادية التي كان لها دور كبير في تقويض سياســـة الدولة المملوكية والإخلال بنظامها السياسي ومما لا شك فيه فإن الاقتصــــاد يـــؤدي دوراً كبيراً في حياة الأمم والشعوب فهو عصب حياتها وسير نمائها واستقرار أوضاعها .

ولقـــد تمـــيزت الحـــياة الاقتصــــادية في عصـــر المقريزي بجوانب عديدة فعلى مستوى القطاعات الاقتصادية نجد أن هذا العصر قد اكتملت فيه جميع القطاعات الاقتصادية من صناعة وزراعة وتجارة وخدمات وإن كانت بعض القطاعـــات أهم من بعض كما هو حاصل في الزراعة حيث كانت القطاع الأهم من غيره في تلك الفترة ثم تأتي التجارة في الدرجة الثانية.

أمـــا على مستوى المتغيرات الاقتصادية فقد كانت هناك جهات معينة لتلك الفترة، ولعل من أهمها مستوى المعيشة أو بعبارة أخرى مستويات الدخول المنخفضة لدى القاعدة الكبيرة من أفراد المجتمعات في تلك الفترة، وانتشار الفقر بشكل كبير إضافة إلى موجات الغلاء التي لا تنفك تصيبهم من وقت لآخر.

ولقـــد كـــان لهـــذه السمات أسباب عديدة منها ما هو خارج عن إرادة الإنسان ومنها ما هو ناتج عن سوء تصرفه وظلمه لنفسه ولغيره.

ومن **أهم الجوانب الاقتصادية في عصر المقريزي** رحمه الله:

أولاً الصناعة :

فلقد اشتهرت البلاد المصرية والشامية بالذات بكثير من الصناعات ولعل من أهمها ما يلي :

أ- الطراز أو صناعة المنسوجات :

فلقد اشتهرت هذه الصناعة في عهد المماليك بل أصبحت مصر وبعض مدن الشام مركزا كبيراً لصناعة النسيج باختلاف أنواعه ولقد ساعد على ذلك توفر مقوماها وبالذات القطن والكتان والصوف حيث كانت المواد الخام اللازمة لهذه الصناعة تنتج محلياً وبوفرة .

ولقد كانت أكثر دور صناعة النسيج الحكومية تعرف بدور الطراز وكانت على ضربين : الدور الخاصة وتعمل للسلطان ورجال البلاط والأمراء وتقدم منها الهدايا للأفراد والملوك والأجانب كما كانت تصنع فيها أيضاً كسوة الكعبة المشرفة [١] .

أما الدور العامة فتفتح لأفراد الشعب، وقد كانت دور الطراز هذه منتشرة في العديد من المدن مثل القاهرة والإسكندرية ودمياط وأسيوط والفيوم بالإضافة إلى الموصل في الشام وغيرها .

ولقد كان عائد هذه الصناعة كبير جداً مما حدا بسلاطين المماليك إلى احتكارها ومنع البيع والشراء فيها إلا من قبلهم مما تسبب في ضعف مراكز صناعتها [٢] .

---

(١) السلوك ٨٠١/٤ .

(٢) السلوك ٨٠١/٤ .

٢- صناعة المعادن :

برع المصريون في صناعة المعادن وبالذات صناعة الذهب والفضة وصناعة الثريات والنوافذ لبيوت السلاطين [١] .

كما برعوا في صناعة الحديد وبالذات صناعة بعض الأسلحة كالدروع المصنوعة من الصلب وغير ذلك .

ولقد كانت هذه الصناعات المعدنية تروج كلما كان هناك طلب من قبل الدولة المملوكية ورجالها ولعل رواج صناعة الأسلحة والدروع في ذلك الوقت هو بسبب الطلب المتزايد من قبل رجال الدولة المملوكية عليها [٢] .

٣- صناعات أخرى:

كذلك كانت هنالك صناعات قوية مثل صناعة السكر وقد اشتهرت به بعض بلاد الصعيد بمصر مثل قفط التي كان فيها بعد سنة ٧٠٠ هـ أربعون مسكباً للسكر، وست معاصر للقصب أما سمهود التي تقع في الجانب الغربي للنيل فقد كان بها سبعة عشر حجراً لاعتصار قصب السكر [٣] ، وقد كانت مصر في ذلك الحين من أعظم المصدرين للسكر إلى أوربا وذلك لاتصافه بالجودة عن غيره [٤] .

---

(١) السلوك ٧٥٣/١ .

(٢) الخطط والآثار ٢٠٣/١ .

(٣) طرق التجارة ص ٩٦ .

(٤) المقريزي الخطط والآثار ٩٦/٢ .

وأيضاً كانت هناك صناعات أخرى قوية، مثل الصناعات الخشبية وصناعة السفن وصناعة الزجاج وصناعة الرنوك وهي الشارات التي يتخذها السلاطين والأمراء على عمائمهم وبيوتهم وأدواتهم إضافة إلى صناعة الأدوية والسروج والخزف والشمع وغيرها من الصناعات الأخرى [1] .

ثانياً الزراعة :

تعتبر الزراعة من أهم الأنشطة الاقتصادية التي مارسها المسلمون بعد حركات الفتح الإسلامي، والتي شملت أجزاء كبيرة من الأراضي الزراعية في مصر والشام حيث مثلت عوائدها المالية- الخراج- أعظم مورد مالي عرفته دول الإسلام المتعاقبة على مر التاريخ .

ولعله بقدر ضخامة هذا العائد المالي كانت ضخامة الإنفاق على هذا القطاع والاهتمام به يقول المقريزي (أنه قبل الإسلام كان مخصصاً لحفر الترع وعمارة الجسور مائة وعشرون ألف رجل يحملون المساحي والطوريات وهم في عمل طوال العام، بل قد خصص لها- أي الأراضي الزراعية - ربع خراج البلد يصرف في القيام بشئونها وتهيئتها للزراعة) [2] .

مما كان له أثر كبير على الأوضاع الزراعية وكمية المحاصيل المزروعة وبالتالي على أسعارها .

---

(١) المقريزي الخطط والآثار ٢/٩٦ .

(٢) الخطط والآثار ١/١٠٠ .

ولقـــد كـــان نتيجة لهذا الاهتمام أن بلغ خراج الأرض الزراعية في مصر وحدهـــا قـــبل الفتح الإسلامي (عشرون ألف ألف ديناراً)[1] هذا وقد واجهت الزراعة كنشاط اقتصادي مهم مشكلات عديدة في عصر المقريزي منها ما هو بفعل الإنسان ، ومنها ما هو خارج عن إرادته، فمن المعلوم أن الزراعة في مصر كانت وما تزال تعتمد اعتماداً كلياً في الري على نهر النيل ولقـــد كانـــت للتغيرات التي تطرأ على منسوبه زيادة أو نقصاً أثر كبير أو ولقد بلغت حساسية هذا الأمر إلى الحد الذي لو أشيع فيه أن النيل قد نقص و لم يبلغ الوفاء لارتفعت الأسعار ولوقع الناس في ضنك وضيق معيشة[2] .
هـــذا وقد نقل المقريزي والقلقشندي عن القضاعي أنه عند الفتح الإسلامي لمصـــر كان الارتفاع المناسب للفيضان حتى يخصب الأرض وتكفى أهلها سنتين هو ستة عشر ذراعاً، ولكن مع الأيام أخذت الحالة تسوء حتى أصبح النيل لا يروي الأرض إلا إذا بلغ الماء الذراع العشرين وما فوقها[3] .
ولقـــد كان هذا الأمر سبباً مباشراً لحدوث المجاعات والأزمات الاقتصادية وهـــناك سؤال مفاده، هل للإنسان دور في هذه المتغيرات الخارجية والواقع أن الإنسان له دور كبير في هذا الأمر ويتضح ذلك من نوبتين :

---

(١) الخطط والآثار ١/١٠٠ .

(٢) السلوك ١٩٥/٣ .

(٣) الخطط والآثار ١/٥٩ والقلقشندي ٣/ ٢٢٩ .

النوبة الأولى :

هي علاقة الإنسان بهذا المورد العظيم المهم (النيل) حيث يلاحظ من كلام القضاعي أن مجرى النيل لم يكن يجد العناية الكافية من ولاة الأمر وبالتالي يتراكم الطمي على أطراف النيل مما يجعل المنسوب السابق غير كاف لري الأراضي المحيطة بالنهر.

ومن جانب آخر آخر نجد التفاعل السلبي من قبل الإنسان مع تغيرات النيل سواء بالاحتكارات أو غير ذلك مما يتسبب في خلق الأزمات الاقتصادية المختلفة [١] .

النوبة الثانية :

علاقة الإنسان بربه سبحانه وتعالى المتصرف وحده دون غيره في هذا المورد العظيم ولقد أشار المقريزي إلى هذا الأمر إشارة واضحة إذ يقول وهو يستعرض أوضاع الناس الإيمانية وعلاقتهم بربهم وأثر ذلك على النيل: (وقد كان تتابع أهل مصر والقاهرة في إظهار المنكرات وترك الإنكار لها وإباحة أهل الأمر والنهي لها وتفاحش الأمر فيها... من غير منكر وظهر من عاجل عقوبة الله عز وجل وقوف زيادة النيل عن معتادها وزيادة سعر الغلة في وقت ميسورها [٢] .

(١) الآراء الاقتصادية للمقريزي دراسة مقارنة أحمد صالح الغامدي ص ٢٠

(٢) الآراء الاقتصادية للمقريزي ٢٠ (أنظر الخطط للمقريزي ص ١٠٥) .

الإقطاع في عهد المماليك:

يـــأتي الحديـــث عن الإقطاع من منطلق أنه الصورة الوحيدة تقريباً لملكية الأرض الزراعية في عصر المقريزي فما هو دوره وأثره على الزراعة كنشاط اقتصـــادي لتصدر الأنشطة المختلفة في ذلك الوقت ؟ لقد كانت الأراضي الزراعية التي فتحها المسلمون تقر في أيدي أهلها ويفرض عليهم مقدار معين من الخراج، وتلك كانت سياسة عمر رضى الله عنه، ولكن هذه السياسة لم تدم طويلاً حيث بدأ العرب الفاتحون يتملكون تلك الأراضي ويعملون فيها وأمـــام هذا التطور ظهر نظام جديد للخراج، إذ قسمت البلاد إلى صفقات تطـــرح للتزايد كل أربع سنوات في تاريخ معين فيتزايد عليها من يرغب في ذلـــك من الأمراء والأجناد والوجوه وأهل النواحي من العرب والقبط على أن يحمـــل من يتقبلها ما عليها من الخراج إلا الديون، ويحسب له من مبلغ قبالته وضمان لتلك الأراضي ما ينفقه على عمارة جسورها وحفر خلجانها بضرائب مقدرة في ديوان الخراج (١) ، ثم أغلب تلك الضمانات والقبالات كونها في الغالب من قبل الأمراء والأجناد بالإضافة إلى ما يخص السلطان به نفســـه وقد استمر هذا الأمر من مبدئه حتى عهد السلطان السلجوقي ألب أرســـلان ابـــن داود بن ميكال بن سلجوق(٢) وذلك عام بضع وثمانين وأربعمائة حيث اتسعت

---

(١) الخطط والآثار ٨٢/١ .

(٢) ألـــب أرسلان بن داود بن ميكال بن سلجوق سلطان فارس السلجوقي ابن أخي طغرلبك الذي استنجد به الخلـــيفة العباسي اعتنق الإسلام وحارب النصارى ، بسط حدود مملكته شرقاً وغرباً ، وتميز بقدرته الحربية الفائقة وكفاءته الإدارية ، وترك لابنه ملكشاه حكومة حسنة الإدارة ، اغتيل سنة ١٠٧٢م .

مملكته فرأى وزيره نظام الملك [١] أن يسلم إلى كل مقطع، قرية أو أكثر أو أقل على قدر إقطاعه لأنه رأى أن في تسليم الأراضي إلى المقطعين عمارتها لاعتناء مقطعيها بأمرها، فكان بذلك أول من عرف أنه فرق الإقطاعات على الأجناد [٢] .

وقد أخذ المماليك هذا النظام عمن كان قبلهم مع اختلاف فيما يخص السلطان نفسه زيادة أو نقصاً إذ كان المعمول به تقسيم البلاد إلى أربعة وعشرين قيراطاً منها أربعة للسلطان وعشرة للأفراد وعشرة للأجناد ولكن كان السلاطين يزيدون أحياناً في أنصبتهم فمنذ عهد الناصر محمد بن قلاوون [٣] أصبح ما يخص السلطان به نفسه عشرة قراريط [٤] .

ولقد غلبت الإقطاعات على أرض مصر كلها إلا النزر اليسير مما يجري في وقف من سلف من ملوك الديار المصرية ونحوهم على الجوامع والمدارس والخوانق مما لا يعتد به لقلته كما يقول القلقشندي [٥] .

---

(١) نظام الملك أبو الحسن الطوسي اشهر وزراء السلاجقة ظل وزيراً ثلاثين سنة متتالية للسلطانين ألب أرسلان و ملكشاه ، لقي مصرعه على يد أحد رجال فرقة حسن الصباح سنة ١٠٩٢ الموسوعة العربية الميسرة ص ١٨٣٨ .

(٢) الخطط والآثار ٩٥/١ .

(٣) من سلاطين المماليك بمصر وسورية ، تولى السلطنة في ١٢٩٤م وخلع فيها لحداثة سنه ، وأعيد إليها سنة ١٢٩٨م ، استولى على دمشق ومصر وتغلب على بيبرس ، وخطب له بمصر وسورية وطرابلس الغرب والحجاز والعرق ، حكم حوالي ٣٢ سنة ، الموسوعة العربية ١٨١٧.

(٤) الخطط والآثار ٨٨/١ .

(٥) صبح الأعشى ٤٥١/٣ .

الآثار السلبية لنظام الإقطاع في عصر المماليك :

لقد كان للإقطاع بنظامه القائم في عصر المماليك دور كبير في الحالة السيئة والمتمثلة في الفقر والحاجة والعوز الذي عم الناس في ذلك الوقت، ولعلي أعرض هذه النقطة بشيء من الإيجاز .

تشير بعض الدراسات التاريخية إلى أن الإقطاع في ظل المماليك قد تأثر بالنظم الإقطاعية الغربية، إذ أنه ظهر في العصر المماليكي وجهة النظر التي تقول: إن الإقطاع (إقطاع الاستغلال) يباح أن يكون وراثياً عند موت المقطع الأصلي وذلك بشرط ولاء الورثة للسلطان (١).

حيث نتج عن وجهة النظر هذه إضافة إلى اختصاص السلطان وأمرائه وجنوده بالأراضي الزراعية نتج عن ذلك كله انحصار ملكية الأرض وحق الانتفاع بها في فئة قليلة بينما بقية الناس محرومين من ذلك، ومع ذلك فقد كان المماليك لا يأمنون غائلة السلطان فربما انتزعها منهم لذا فقد كانوا يعملون على استغلالها بأكبر قدر ممكن وبأبشع صورة ممكنة لكي يجمعوا أكبر قدر ممكن من المال وكل ذلك كان على حساب الفلاح المقهور، بل في أكثر الأحيان يحاول أصحاب الإقطاعات الاحتفاظ بما لديهم من ممتلكات، وذلك بوقفها حتى لا تصل إليها يد السلطان في حياتهم أو بعد وفاتهم من أجل أن ينتفع بها نسلهم، والشعب محروم من الملكية واستغلال ما تحت أيديهم من الأرض اللهم سوى الأجرة التي يتقاضونها من العمل أو معونة من الأوقاف [٢] .

---

(١) سعيد عبدالفتاح عاشور المجتمع المصري في عصر المماليك ص ٥-٦ .

(٢) محمود رزق سليم عصر المماليك ٢/٢٧٤ .

ومما سبق يتضح أن نظام الإقطاع والعصر المملوكي له أثران سيئان ظاهران:

أولهما: تركز الثروات وكثرة الأموال في أيدي أمراء المماليك مما حدا بهم إلى الاتجاه نحو الإسراف والمفاخرة.

ثانيهما: فقر الناس ولجوءهم إلى الحاجة والعوز والشقاء [١] ، ولقد زاد من معاناة الفلاحين وفقرهم وقلة ما في أيديهم كثرة المغارم والمظالم التي كانت تنزل عليهم من الولاة والحكام الذين كانوا يأخذوها منهم غير العادة أضعافاً [٢] .

لذلك ليس من الغريب أن نجد الفلاح يعيش حياة الفقر والحاجة إلى الحد الذي لا يملك فيه ما يستر عورته ويشبع جوعه، ولا يقتات إلا بالدون من العيش .

ولقد شهد المقريزي أهل الريف في مصر وهم يشترون أكثر حاجاتهم بما لديهم من الدجاج ونخالة الدقيق من شدة فقرهم وحاجتهم وفقدهم للذهب والفضة، وليس غريباً كما يقول المقريزي- فإن الغلال معظمها لأهل الدولة أولى الجاه وأرباب السيوف الذين تزايدت في اللذات رغباتهم فخرب معظم القرى لموت الفلاحين وتشردهم في البلاد [٣] .

ولقد كان للعربان دور كبير في زيادة معاناة الفلاحين حين كانوا يغيرون على القرى للنهب والسلب وكانوا يكررون هذه الإغارات بين فترة وأخرى، إلى أن صارت سنن العربان الجارية [٤] .

---

(١) عصر المماليك ٢٧٨/٢ .

(٢) ابن إياس بدائع الزهور ٣٠٢/٢ .

(٣) السلوك ٧٠٥/٤

(٤) النابلسي تاريخ الفيوم ص ١٣ ، و انظر المقريزي وآراؤه الاقتصادية ص ٣٤ .

ثالثاً التجارة :

لقد حظيت دولة المماليك باعتبارها في ذلك الوقت الدولة الإسلامية الأقوى والمهيمنة على أغلب البلاد العربية جعلتها سوقاً تجارية هامة ولعل أهم ما ساعد على ذلك توسطها وسيطرتها على طرق التجارة بين الشرق والغرب إضافة إلى توفر مقوماتها على المستوى المحلي والخارجي، فنجد أن هناك عاملاً مهماً وهو سهولة الانتقال والاتصال بين أرجاء السلطنة المملوكية فهناك النيل الذي يربط شمال مصر بجنوبها وهناك طرق التجارة القديمة والمعروفة ببلاد الشام والتي تربط بين مصر والشام من جهة وبين الشام والحجاز من جهة أخرى، لذلك فلا غرابة أن يكون العصر الذهبي للتجارة في مصر والشام متزامناً مع العصر المملوكي [١] .

التجارة الداخلية:

اتصفت الحركة التجارية الداخلية في دولة المماليك وبالذات في مصر بأنها حركة قوية ونشطة ومنظمة، ولقد كان من مظاهر

ذلك أن نظمت الأسواق تنظيماً بحيث أصبح لكل سلعة من السلع سوق خاص بها، مثل سوق السلاح وسوق الحلاويين وغيرها [٢] ولا يخفى ما لهذا التنظيم من أثر على إبقاء الأسعار العادلة التي يقترب فيها السعر من التكاليف الحقيقية للسلعة قدر الإمكان .

وهذا في حد ذاته يؤدي إلى استقرار عمليات البيع والشراء، وبالتالي نمو التجارة الداخلية وازدهارها [٣] .

---

(١) المقريزي وآراؤه الاقتصادية ص ٣٥ .

(٢) الخط والآثار ٢/٩٧ .

(٣) الخطط والآثار ٢/٩٧ .

ولقد تعددت أشكال الأسواق في ذلك الوقت، فهناك الأسواق المحلية سواء المستقرة أو المتنقلة ثم هناك الأسواق الموسمية والتي تعقد في مواسم معينة، مثل موسم ورود التوابل من الهند والصين إلى أسواق مصر والشام وجدة ومكة أيضاً .

وهناك الأسواق السنوية، واشتهرت بها مدن وموانئ العصور الوسطى عامة في الشرق والغرب في مناسبات معينة، ففي مكة وجدة كانت تعقد في مواسم الحج لأنه يصلها عدد كبير من تجار الشرق والمغرب الإسلامي وإلى جانب الأسواق والقياسر [1] المختلفة كان هنالك منشآت تجارية تسمى بالخانات، والخان مبنى ضخم يتكون من مجموعة من الحوانيت الكبيرة والصغيرة ومستودعات للبضائع، وقد كان رجال الأعمال والتجار والأمراء والمماليك يتسابقون في بناء المنازل والقصور الفخمة ويحولونها إلى خانات ويقومون بتأجيرها على التجار وذلك بأسعار خيالية [2].

ولقد ذكر المقريزي أن هذه الأسواق ربما تعرضت من وقت لآخر لهزة أمنية عنيفة وخصوصاً في النصف الثاني من عمر الدولة المملوكية نتيجة لظهور بعض التعقيدات السياسية والاجتماعية داخل كيان الدولة المملوكية [3] .

وكانت تلك الهزة الأمنية تبعد عن الأسواق الأمن والاستقرار مما يدفع بأهلها إلى إغلاقها من وقت لآخر، ولقد كانت تلك التعقيدات المشار

---

(١) بمعنى الخانات وان كانت أصغر منهما حجماً .

(٢) طرق التجارة ص ٢٩٣ .

(٣) المقريزي وآراؤه الاقتصادية ص ٣١ .

إلـــيها تـــتمحور حـــول الفتن والاضطرابات التي تنشأ بين المماليك وبين السـلاطين وكـثيراً ما يترافق مع هذه الفتن عمليات النهب والسرقة لهذه الأسـواق من قبل بعض المماليك أو من قبل بض المتربصين من الغوغائيين والـبطالين، ولـيس هـذا الأمر هو الصعوبة الوحيدة التي تواجه التجارة الداخلـية ولكـن اختلال قيم الصرف بين النقود المتداولة حيث كان هذا الأمـر يؤدي وباستمرار إلى تعطيل التجارة الداخلية وإغلاق الأسواق، بل والـتأثير عـلى جلـب السـلع واستيرادها خوفاً من الخسارة وحصول المغارم [1] .

التجارة الخارجية:

لقد حازت دولة المماليك على ميزات عظيمة على صعيد التجارة الخارجية وذلـك راجع لعدة أمور، ولعل أهمها توسطها الجغرافي بين الشرق والغرب الأوربي ممـا جعـلها تستأثر بالقسم الأكبر من التجارة العالمية بين الشرق والغرب وهذا أدى إلى حصول المماليك على ثروات طائلة.

يضاف إلى ذلك أن بقاء المماليك وخطوط التجارة العالمية في البحر الأحمر والـبحر الأبيض المتوسط في منأى عن الخطر المغولي، أدى إلى زيادة أهميتها الـتجارية وكونهـا ملتقى الطرق التجارية العالمية بعد زوال طرق التجارة الرئيسـية بـين الشرق والغرب اثر الهجمات المغولية على العراق والشام وفارس [2] .

---

(١) السلوك ٢٨١/٣ ، ٤٣٧/٤ ، وانظر المقريزي وآراؤه الاقتصادية ص ٣٠ .

(٢) المقريزي آراؤه الاقتصادية ص ٣١ .

هـــذا و لم يدع المماليك طرق تجارتهم في الريح بل أوجدوا أسطولاً بحرياً قوياً لحمايتها مما هيأ لها الظروف المناسبة لتزدهر وتنمو .

ولقد كان السلاطين المماليك لهم صيت طيب لدى البلاد الشرقية مما دفعهم إلى تحويـــل تجارتهم إلى موانئ الدولة المملوكية ولعل من الأمثلة على ذلك انصـــراف تجار الشرق عن ميناء عدن إلى ميناء جدة نتيجة للمعاملة السيئة التي كان يلقاها هؤلاء التجار من ملك اليمن حيث أصبحت جدة من ذلك الوقت ميناء له أهمية تجارية كبرى وقد كان العائد المالي على المماليك كبير جداً [1] .

ولقد كان معظم التجارة الخارجية بواسطة الكارمية [2] حيث كانت تجارهم تقـــوم عـــلى جلب التوابل والفلفل والبهارات والبخور والعاج وغيرها من تجـــارات ولقـــد كـــان لهذه البضائع سوق كبير ورائج حيث كان إقبال الأوربيين عليها كبير وكان هنالك علاقات طيبة بين تجار الكارم والأوربيين [3] .

وقد كان لتجار الكارم في عدن وجدة فيما بعد مركزاً مرموقاً ، وأيضاً لهم مؤسسات ومصارف مالية وتجارية [4] .

---

(١) ا السلوك ٤/٧٠٧ ، وانظر المقريزي آراؤه الاقتصادية ص ٣٢ .

(٢) لفظة الكارمية نسبة إلى مملكة الكارم وهى بلاد بين أفريقية وبرقة ثم أصبح اسم الكارم يطلق على كل عمل بتجارة البهار والفلفل ، القلقشندي صبح الأعشى ٥/٢٨٠ .

(٣) نعيم زكي طرق التجارة ص ١٣٧ .

(٤) سعيد عاشور العصر المملوكي في مصر والشام ص٣٠٣ .

كمـــا كانت مدينة قوص أيضاً مركزاً تجارياً لكثير من تجار الكارمية حيث أصبحت هذه المدينة مركزا تجارياً لمنتجات إفريقيا الوسطى واليمن والحبشة وكان لهم رئيس يسمى برئيس الكارمية.

وكان سلاطين المماليك يقومون بتوفير الحماية لسفن الكارمية وتجارهم حتى قـــال عـــنهم المقريـــزي إنهـــم كـــانوا في عـــدة وافـــرة ولهـــم أموال عظيمة [1] .

وقد كان لهم إدارة مستقلة ووظيفة في دولة المماليك لاستيفاء ما عليهم من رســـوم تســـمى (مستوفى البهار والكارم) وقد كانت هذه الضريبة مصدراً كبيراً لإيرادات الدولة المملوكية [2] .

هذا وقد استخدم تجار الكارم في معاملاتهم المالية النقد والائتمان المصرفي في نقل الأموال وعقد القروض للسلاطين في مصر، والملوك في اليمن وفي بلاد التكرور [3] .

وقـــد كان لهم مصرف عام وهو ما يسمى بالفندقة حيث كان يقوم هذه العملـــيات المالـــية، وكانـــت فنادق الكارمية- بنوكهم- تعطي القروض للسلاطين والأفراد مقابل خطابات الضمان، وكانت أيضاً تضمن عمليات المقارض بين الكارمية والأجناد [4] ولقد كان أثر طائفة الكارمية كبيراً جداً حيـــث تـــبوأت دولـــة المماليـــك الـــزعامة الـــتجارية بـــين

---

(١) السلوك ص ٧٣ .

(٢) السلوك ٧٠٧/٤ .

(٣) طرق التجارة ص ٣٤٤ ، وانظر المقريزي وآراؤه الاقتصادية ص٤٥ .

(٤)طرق التجارة ص ١٩٤ — ١٩٥ .

الشـــرق الأدنى والأقصى من جهة والغرب الأوربي من جهة أخرى حيث سيطرت على تجارة التوابل والبهارات والعاج إضافة إلى وجود سلع كثيرة ومهمـــة كانـــت تنتج داخل دولة المماليك ومنها السكر والقطن والكتان والمنسوجات القطنية والكتانية.

وإلى جانب ذلك فقد كانت مصر والشام تصدران إلى الغرب إضافة إلى ما ســبق البرتقال والمشمش والتين والحنطة وزيت الزيتون والحلوى إضافة إلى الذهب وغيره من المعادن (١) .

بينما كانت مصر تستورد من أوربا الأقمشة الحريرية والأثواب المطرزة من البندقية إضافة إلى الأخشاب والحديد والنحاس والفراء (٢) .

---

(١) نعيم زكي طرق التجارة ص ٢٩١.

(٢) المصدر نفسه ص ١٩٤ — ١٩٥ ، وانظر المقريزي وآراؤه الاقتصادية ص ٣٦ .

الدولية المملوكية وعلاقتها بالتجارة :

ويمكن أن يتعرف على هذه العلاقة من جوانب عدة:

الجانب الأول:

الضرائب الحكومية (المكوس) والتي كانت تفرضها الدولة المملوكية على أنواع التجارات المختلفة، و لم تكن جميع هذه المكوس من وضع المماليك حيث كان بعض منها من العصور التي سبقتهم، مثل المكوس التي وضعها سيف الدين قطز [1] من أجل توفير المال، وذلك لقتال التتار [2] .

ولقد كانت هذه الضرائب تفرض في صور شتى فمنها ما يفرض على التجارات المجلوبة إلى المدن من الأرياف ومنها ما يفرض مقابل البيع والشراء ومنها ما يفرض مقابل الحراسة [3] .

ولقد شملت هذه المكوس، كل شئ له علاقة بالتجارة من قريب أو بعيد كالبيوت والخانات والحمامات والأفران والطواحين والبساتين والمراعي، ومصائد الأسماك والمعاصر وغيرها[4] .

---

(١) هو سلطان مصر من المماليك البحرية تركي الأصل ولي السلطة بعد خلعه المنصور بن المعز حض العلماء على محاربة المغول وانتصر عليهم في معركة عين جالوت وفي أثناء عودته ١٢٦٠م دبر له الظاهر بيبرس مؤامرة لاغتياله ، دفن بالقصر ثم نقل جثمانه إلى القاهرة . الموسوعة العربية الميسرة ص ١٣٨٨ .

(٢) (٣) (٤) الخطط والآثار ١/١٠٥ – ١٠٦ .

هذا على التجارة الداخلية أما **التجارة الخارجية :**

فقد كان يفرض على السلع الواردة من الشرق أو من أوربا ضرائب جمركية وتحصـــل الدولة في كل عام حوالي ربع مليون دينار مكوساً تجارية وذلك على السفن التي تصل إليها [1] .

وقـــد كانت الضرائب الجمركية على سلع الشرق الأقصى تؤخذ في جدة والطـــور بينما اختص جمرك ميناء الإسكندرية بسلع أوربا والمغرب العربي الوارد منها والصادر إليها، أما دمياط فاختص جمركها بضرائب الصادر من السكر والوارد من الخشب من أوربا وآسيا الصغرى والشام [2] .

ولقـــد كانت هذه الرسوم التي يحصل عليها المماليك من هذه الموانئ تحتل مورداً عظيماً وهاماً من موارد الدولة [3] .

ومع ذلك فإنه لا يجب أن نغفل الأثر السيئ لهذه المكوس وما تؤدي إليه من إعاقة كبيرة لازدهار التجارة ونموها [4] .

ومما يزيد الأمر صعوبة أن المماليك لم يكن لديهم سياسية ضرائبية ثابتة حتى يطمـــئن الـــتاجر عـــلى أمواله وتجارته لأنها خضعت في كثير من الأوقات للتطورات العسكرية والمشكلات المالية [5] .

---

(١) طرق التجارة ص ١٢١ .

(٢) طرق التجارة ص ٣١٨ .

(٣) السلوك ٤/٧٠٧ .

(٤) المقريزي وآراؤه الاقتصادية ص ٣٥ .

(٥) طرق التجارة ص ٣٥٥ .

الجانب الثاني:

هـــو تدخل الدولة كمنافس قوي ومحتكر لكثير من السلع فظهر ما يسمى بالمـــتجر السلطاني ، حيث تدخل سلاطين المماليك تدخلاً مضراً بالحركة التجارية تجلى في احتكار السلع التجارية رغبة منهم في التملك والسيطرة ومواجهة لنفقاتهم المالية المتزايدة حيث قاموا باحتكار أنواع من السلع الهامة ومن أمثلتها السكر وبعض المنسوجات بالإضافة إلى احتكار السلع الشرقية كالبهارات والتوابل وغيرها.

يقـــول المقريـــزي وصفاً لهذا الحال الذي وصل إليه التجار وتدخل الدولة كمنافس ومحتكر لكثير من السلع.

" ومـــنع بالإسكندرية أن ينصب قبان لوزن بضاعة أحد من التجار فامتنع الكافة من بيع البهار على الفرنج، وألزم الفرنج بشراء فلفل السلطان المحضر مـــن جـــدة. بمائة وعشرين ديناراً الحمل ، وكانت قيمته مع التجار ثمانين ديناراً ، فشمل التجار وغيرهم من ذلك ضررا كبيراً " [١] ، ويقول أيضاً: " بلغ السلطان أن التجارة الواردة إلى القاهرة من الموصل وحماة ودمشق تربح فيما تجلبه من الثياب المنسوجة من القطن مالاً كثيراً فألزم السماسرة أن لا تبـــيع لأحد من هذا الصنف شيئاً بل يكون بأجمعه متجراً للسلطان، فأخذ تاجر ومعه ثمانون ثوباً، وأخذ آخر ومعه عشرة ثياب وقومت بأقل من ثمنها في بلادها وكتب إلى بلاد الشام بأن لا تمكن التجار من حمل شيء من ذلك إلى القاهـــرة، فصادف قدوم قفل من الموصل إلى مدينة حماة بثياب موصلية فرســـم علـــيهم حتى رحلوا من حماة بما معهم وعبروا إلى البرية عائدين إلى بلادهم .

---

(١) المقريزي السلوك ٤/٧٩١ .

وفي سنة ٨٣٢ كشف عن أمر الديوان المفرد واعتبر متحصله في السنة ومصروفه فإذا هو يعجز. بمبلغ ستين ألف دينار عن جميع ما يرد إليه من خراج النواحي والحمامات، والمستأجرات، ورماية البضائع، وغرامات البلاد، فعين له مبلغ ثلاثين ألف دينار برسم المتجر السلطاني وأول ما بدأ به من ذلك تحكير صنف السكر، فلا يدولب زراعة القصب واعتصار وعمل القندسكر ثم بيع السكر إلا بأمر السلطان، وأن توزع الثلاثين الألف الأخرى على الكشاف والولاة ثم أهمل هذا و لم يتم ، ولله الحمد [١] .

وقد نتج عن هذه الأمور أضراراً عديدة منها [٢] :

ا- ارتفاع أسعار السلع المذكور آنفآ، فقد ارتفعت أسعار السكر والبهارات ارتفاعاً فاحشاً مما أضر بالعلاقات التجارية مع أوربا أكبر سوق لها حيثما امتنع التجار الأجانب عن الشراء كما ألزم التجار المسلمون بشرائها بأسعار مرتفعة مما أضرهم [٣] وفيه يقول المقريزي " وطرحت بضائع من المتجر السلطاني على الناس و لم يعف أحد من التجار عن أخذها، فارتفعت الغلة من مائتين وعشرين درهماً للإردب إلى ثلاث مائة [٤] .

---

(١) السلوك ٧٩٢/٤ .

(٢) المقريزي وآراؤه الاقتصادية ص ٣٧ .

(٣) السلوك ٧٩٦/٤ .

(٤) السلوك ٧٩٢/٤ .

٢- التأثير على حركة الإنتاج ومراكزه نتيجة لهذه الاحتكارات حيث تسبب احتكار الثياب الموصلية من قبل السلطان إلى اندثار صناعتها وتلاشيها [1] كما بين ذلك المقريزي بقوله: " فحل بالناس بلاء لا يمكن حكايته وخربت الموصل بعد ذلك وبطل عمل الثياب بها " [2].

٣- كما أدى احتكار الدولة لتجارة السلع الشرقية للإضرار بأكبر طائفة تجارية عرفت في ذلك العصر وهم الكارمية حيث اندثرت تلك الطائفة وتحولت من الغنى إلى الفقر نتيجة جشع السلاطين [3].

وربما أدت هذه الأسباب من قريب أو من بعيد سعي الأوربيين إلى تحويل التجارة عن دولة المماليك عن طريق رأس الرجاء الصالح كما عرفنا ذلك سابقاً حيثما فقدت الدولة كثيراً من مكانتها ومواردها المالية.

---

(١) المقريزي وآراؤه الاقتصادية ص ٣٦ .

(٢) السلوك ٤/٧٩٢ .

(٣) الأسدي التيسير والاعتبار ص ٨٤-٨٥ .

الجانب الثالث :

تدخل الدولة كمسعر ومنظم للاستهلاك، حيث تلجأ الدولة المملوكية أحياناً إلى تسعير القمح وغيره من السلع المهمة، وربما نظمت استهلاكها، ذلك أن الناس إذا سمعوا بنقصان النيل أو أشيع أن الغلة سوف يرتفع سعرها أسرع القادرون منهم إلى شراء القمح وتخزينه ثم بيعه بسعر مرتفع فيما بعد وعند ذلك تلجأ الدولة إلى منع هذه المضاربات عن طريق تحديد ما يمكن شراؤه من قبل الفرد الواحد بحيث لا يزيد عن حد معين، ولا يمكن البائع من الزيادة على سعر معين يفرض من قبل الدولة في تلك الظروف [١] .

وربما سعرت الدولة سلعة ما لحاجتها إليها، ولقد كان ذلك يتسبب في اختفاء هذه السلعة وعدم وجودها في الأسواق لتوقف جلب الناس لها خوفاً من الخسارة [٢] .

ولم يكن التأثير على الأسعار من قبل الدولة يقتصر على الطريقة المباشرة والتي ذكرناها آنفاً، بل كان التأثير ربما جاء عن التصرف والتغيير في أسعار النقود التي يتم التعامل بها في الأسواق. إذ كثيراً ما أدى تغيير أسعار النقود أو ضرب نقود جديدة إلى اضطراب الناس في بيعهم وشرائهم وربما اختفت السلع من الأسواق لعدم جلبها خوفاً من الخسارة [٣] .

وذلك نتيجة لتغيير القيمة الحقيقية لهذه النقود،، وهذا يعني الخسارة ولا شك بل أحياناً ما يلزم البائعون بخفض أسعار سلعهم بقدر انخفاض سعر الذهب [٤] .

---

(١) السلوك ٤/٧٥٠ .

(٢) السلوك ٤/٧٣٤ .

(٣) السلوك ٣/٤٥٤ .

(٤) السلوك ٤/٤٣٦ ، وانظر المقريزي وآراؤه الاقتصادية ص٣٨ .

المبحث الثالث: الناحية العلمية و الفكرية

لقد كان عصر المقريزي حافلاً بالحياة العلمية و الفكرية، و كانت مصر على عصر سلاطين المماليك ميداناً لنشاط علمي واسع يدل عليه ذلك التراث الضخم من موسوعات أدبية و كتب تاريخية و مؤلفات في العلوم الدينية تركها علماء ذلك العصر ، و يربط السيوطي بين هذا النشاط العلمي الواسع في ذلك العصر، و بين إحياء الخلافة العباسية في القاهرة بعد أن سقطت بغداد ويقول: إنه منذ إحياء الخلافة العباسية في مصر غدت هذه البلاد " محل سكن العلماء ومحط الفضلاء [(١)] .

و الواقع أنه ما كان لهذا النشاط العلمي أن يزدهر في مصر في عصر المماليك لولا تشجيع بعض سلاطين المماليك للعلم و العلماء و قد وصف أبو المحاسن السلطان الطاهر بيبرس بأنه " كان يميل إلى التأريخ و أهله ميلاً كبيراً ، ويقول سماع التأريخ أعظم من التجارب " [(٢)] .

و لقد عاد الجامع الأزهر في عهد الظاهر بيبرس إلى سابق عهده، قصبة لطلاب العلم في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، و ظهر في عصر بيبرس بعض أعلام الأدب و التأريخ أشهرهم: محي الدين عبدالظاهر، و ابن خلكان، و جمال الدين بن واصل [(٣)] .

كذلك وجد من سلاطين المماليك كالسلطان الغوري من حرص على

---

(١) حسن المحاضرة للسيوطى ٨٦/١ .

(٢) النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ١٨٢/٧ .

(٣) العصر المماليكي في مصر و الشام د. سعيد عبد الفتاح عاشور ص ٣٤٢.

عقد المجالس العلمية و الدينية بالقلعة مرة أو مرتين، أو أكثر كل أسبوع و قـــد بحثت في تلك المجالس مختلف المسائل العلمية والدينية التي تناقش فيها الحاضرون من كبار العلماء و الفقهاء [١] .

و كذلـــك اشـــتغل بعـــض أمـــراء المماليك و أبنائهم في مصر بالتأريخ و الفقـــه، و الحديـــث، و اللغـــة، بـــل تصـــدى بعضـــهم لإقراء الطلبة و التدريس لهم [٢] .

المدارس و المكتبات :

أمـــا المدارس و المكتبات فقد نشطت في عهد المقريزي نشاطاً كبيراً وذلك يـــدل عـــلى رعايـــة سلاطين المماليك النشاط العلمي لإنشائهم كثيراً من المـــدارس مـــثل المساجد، و لقد بدأت العناية بالمدارس منذ عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي، فلقد عني عناية خاصة بالمدارس و أنشأ بعض المدارس الشهيرة مثل المدرسة الناصرية و المدرسة الإصلاحية، و المدرسة القمحية [٣]

و من المدارس العديدة التي أسسها سلاطين المماليك المدرسة الظاهرية نسبة إلى الظاهر بيبرس، و المدرسة الناصرية التي شيدها السلطان الناصر محمد، و مدرسة السلطان برقوق التي أنشأها بين القصرين، و لم تكن جميع المدارس التي شيدها سلاطين المماليك في المدن الكبرى، وإنما شيدوا في القرى و الريف مثل مدرسة سرياقوس أنشأها السلطان برسباي .

---

(١) المصدر السابق: ٣٤٢

(٢) التبر المسبوك للسخاوي : ٢٢١ ، وانظر المقريزي وآراؤه الاقتصادية ص ٤٠ .

(٣) المواعظ والاعتبار ٢/٣٦٣-٣٦٤ .

و كذلـــك كـــان أمراء المماليك أشد حماسة لإنشاء المدارس، و من ذلك المدرســـة الجمالية، أو المحمودية التي بناها الأمير جمال الدين محمود، و هو أحد أمراء السلطان فرج بن برقوق [(١)] .

وصفها المقريزي بقوله إنها من أحسن مدارس مصر [(٢)] و جرت العادة عند الفراغ من إنشاء مدرسة في عصر المماليك أن يحتفل بافتتاحها احتفالا كبيرا يحضـــره الســـلطان و الأمـــراء و الفقهـــاء والقضـــاة و الأعـــيان و يمـــد بســـاط فاخـــر في وســـط المدرســـة به ألوان الأطعمة و الحلوى و الفواكـــه و بعـــد أن يخلع على من أسهم في بناء المدرسة من المعلمين و البـــنائين و المهندســـين، يعين للمدرسة موظفيها من المدرسين و الفقهاء و المؤذنين و القراء، و الفراشين وغيرهم [(٣)] .

و كانت وظيفة التدريس بالمدرسة جليلة القدر يخلع السلطان على صاحبها و يكتـــب له توقيعاً من ديوان الإنشاء يختلف باختلاف المادة التي يدرسها المـــدرس تفســـيراً كانت أو حديثاً، وفي هذا التوقيع يقدم السلطان النصح لـــلمدرس بأن يظهر مكنون علمه للطلاب، و يقبل على الدرس وهو طلق منشرح الصدر ليستميل إليه طلبته، و يربيهم كما يربي الوالد ولده [(٤)] .

---

(١) العصر المماليكي ٣٤٣ .

(٢) المواعظ و الاعتبار ٢/٣٩٥-٣٩٧ .

(٣) السلوك ٣/٤٦٤ .

(٤) صبح الأعشى ١١/٢٤٦-٢٤٧ .

كذلك طلب من المدرس أن ينظر في طلبته، و يحثهم في كل وقت على الاشتغال [١] .

و جرت العادة على تعيين معيد أو أكثر لكل مدرس، ليعيد للطلبة ما ألقاه عليهم المدرس ليفهموه و يحسنوه، كما يشرح لهم ما يحتاج إلى شرح [٢] .

و الواقع أن المدارس في عصر المماليك تمتعت بدخل مالي ثابت مكنها من أداء رسالتها و تدعيم نظامها، و كان مصدر ذلك الدخل الأوقاف من أراض و بيوت و أسواق و معاصر وغيرها و هي أوقاف كان ينفق من ريعها على المدرسة، و من فيها من مدرسين و طلاب علم و موظفين [٣]

المكتبات :

وإن كانت الحياة العلمية قد نشطت في عصر المماليك، فإنه يلاحظ أن الركن الأول للنشاط العلمي في أي زمان و مكان هو الكتب و المكتبات، فبدون الكتب و المكتبات لا تستطيع المدارس أن تؤدي مهمتها، و لا يستطيع المعلمون، والمتعلمون أن يواصلوا رسالتهم لذلك لا عجب إذا شهد عصر المماليك نشاطا منقطع النظير في التأليف من ناحية، و في جمع الكتب و إنشاء المكتبات و العناية بها من ناحية ثانية.

---

(١) العصر المماليكي ٣٤٤ .

(٢) السلوك ١/٧٠ .

(٣) المجتمع المصري في عهد سلاطين المماليك د . سعيد عاشور ١٤٧-١٤٨ ، وانظر المقريزي وآراؤه الاقتصادية ص ٤٠ .

و كان سلاطين المماليك أنفسهم أول من قدر أهمية الكتب، فاحتفظوا في قلعة الجبل بخزانة كتب جليلة القدر، حوت مجموعة ضخمة من الكتب الدينية و غيرها، و قد ظلت هذه الكتب محتفظة بأهميتها[1] رغم الحريق الذي تعرضت له على عهد السلطان الأشرف خليل [2] بن قلاوون [3] .

أما مكتبات المدارس و الجوامع في عصر المماليك فكانت على درجة فائقة من الإعداد و الغنى ، فإذا كان السلطان الظاهر بيبرس قد أنشأ المدرسة الظاهرية ، فإن المراجع تشير إلى أنه ألحق بتلك المدرسة خزانة كتب جليلة تشتمل على مجموعة ضخمة من المراجع في مختلف العلوم وكذلك حرص السلطان قلاوون على أن يزود مكتبة المدرسة المنصورية بالكثير من الكتب في التفسير و الحديث و الفقه و اللغة و الطب و الأدبيات ، و كذلك المدرسة الناصرية التي أقامها السلطان الناصر محمد، إذ أنشأ بها خزانة كتب جليلة [4] .

و هكذا فقد كان عصر المقريزي حافلاً بالكتب و المكتبات و المدارس التي انتشرت في كثير من القطاعات المصرية آنذاك مما كان له أثر في إثراء الحركة العلمية.

ولا أدل على تلك الحركة العلمية النشطة مما ألفه العلماء كالسخاوي وابن تغري بردي وابن حجر العسقلاني والمقريزي رحمهم الله جميعاً من مؤلفات عظيمة ما زالت تثري مكتبات العالم إلى يومنا هذا .

---

(١) العصر المماليكي ص ٣٤٥ .

(٢) أحد سلاطين المماليك في مصر حارب الصليبيين في الشام واسترد عكا وصور وصيدا وقلعة الروم و بيسان ، قتله بعض المماليك غيلة بمصر سنة ١٢٩٤م . الموسوعة العربية ص ٧٦٤ .

(٣) المواعظ والاعتبار ٢١٢/٢ ، وابن تغري بردي النجوم الزاهرة ٣٣/٨ .

(٤) العصر المماليكي د. سعيد عاشور ص ٦٤ .

المبحث الرابع : الناحية الدينية والاجتماعية .

ولقد كان لأهل ذلك الزمان حياتهم الاجتماعية المميزة وكان للناس عاداتهم وأعرافهم وأعيادهم المميزة ، وكان لهم أفراح وأتراح شكلت حياتهم وأثرت فيها التأثير الكبير .

وتلـــك الحـــياة الاجتماعية التي كانت في ذلك العصر منها ما كان موافقاً للشـــرع وقائماً على أصول الإسلام، ومنها ما كان مخالفاً للإسلام ومبتدعاً لا أصل له وإنما هو من قبيل البدع التي أدخلت إلى الإسلام، والإسلام منها براء.

الحياة الاجتماعية في نطاق الأسرة :

لعـــل أهم ما يمكن الإشارة إليه تحت هذا العنوان هو المبالغات الكبيرة التي كانت تتم أثناء حفلات الزواج من إسراف وتبذير ومبالغات في المهور، ولا يخفى ما لهذا الأمر من آثار سلبية.

ولكن هذه العادات غالباً ما كانت تتم بين رجالات الدولة المملوكية وكبار التجار.

ولعل من المؤسف حقاً أن هذه الإنفاقات الضخمة تتزامن مع وقوع الناس في الأزمـــات الخانقة كالمجاعات وموجات الغلاء وقلة المعيشة ومن أسوأ ما يمكـــن الإشـــارة إليه أيضا في صدر الحديث عن الأسرة هو جرأة رجالات الدولة المملوكية على نظام الإرث الشرعي .

ولا يخفى على أحد أن ذلك التشريع الرباني أعطاه الإسلام الحماية العظمى والأهمـــية الكبرى و لم يدعه للبشر يعبثون فيه كيفما يريدون ويشتهون بل حفظـــه الله تـــبارك وتعـــالى. ممـــا حفـــظ بـــه هـــذا الديـــن وذلـــك

حفظـــاً للحقوق من الضياع أو التلاعب بها لدى أصحاب الجشع وأرباب الأموال [١] .

لكن كثيراً ما تجرأ المماليك على أخذ مواريث الناس ومصادرتها والتلاعب بها دون وجه حق [٢] .

وجعلـــوا لها ديواناً يسمى ديوان المواريث الحشرية، حيث أصبحت الأموال التي لا وارث لها من جملة أموال السلطان [٣] .

وأصبح تحصيلها مجالاً لظلم أو أكل حقوقهم دون وجه حق إلا حب المال بكـــل وســـيلة وطريقة مما زاد معاناة الناس وفقرهم ولا يخفى ما لذلك من تـــأثير كبير على قضية مهمة وهى قضية التوزيع وبالذات التوزيع الشخصي باعتـــبار أن نظـــام المواريـــث في الإسلام أحد القنوات المهمة في الاقتصاد الإسلامي .

و لم يقتصـــر أمر الدولة المملوكية على أكل أموال الناس عامة بل تعداه إلى أكل أموال اليتامى وأخذها بدون وجه حق [٤].

ثم لا غـــرابة بعـــد هـــذا كلـــه أن يكـــون أغلب الناس فقراء محرومين لا يـــرجى غناهم وقد تكاثرت عليهم الديون وتراكمت عليهم الهموم من كل صوب .

فـــالغلاء والأســـعار مـــن ناحـــية ومن ناحية أخرى قلة الوارد واحتكار

---

(١) المقريزي وآراؤه الاقتصادية ص ٥٠ .

(٢) المقريزي السلوك ٢٩٠/٣ ، والخطط ١٠٥/١ .

(٣) المقريزي الخطط ١١١/١ .

(٤) المقريزي السلوك ٦٦٨/٣ .

مـــا يعـــود إليهم عن طريق الإرث ونحوه حتى أصبح كثير منهم لا يجد ما يقتات به كما مر ذلك في الإقطاع في عهد المماليك .

أ- الأعياد والاحتفالات :

ولعـــل أكـــثر القضايا حساسية في ذلك العصر هي ما يتعلق بقضية الأعياد والاحـــتفالات فقد كثرت وتعددت ومنها ما كان مشروعاً ومنها ما كان مخـــتلقاً لا أصـــل له في الإسلام، بل هو من الأعياد البدعية التي نقلت إلى الدولة المملوكية [١] .

أمـــا المشروع فعيد الفطر وعيد الأضحى وفي هذين العيدين كانت توزع الهدايـــا العينـــية والنقدية ويوسع فيهما على الناس وعلى أرباب الوظائف ورجالات الدولة المملوكية والفقراء وغيرهم [٢] .

إضـــافة إلى ذلـــك كان هنالك أعياد ليست بمشروعة في الإسلام وهي إما أعياد النصارى مثل عيد الميلاد [٣] والغطاس [٤] والنوروز [٥] القبطي وإما

---

(١) المقريزي وآراؤه الاقتصادية ص ٥٤ .

(٢) المقريزي السلوك ٦٦٨/٣ .

(٣) عـــيد المـــيلاد ذكـــرى مولد السيد المسيح يلي صيام أربعين يوماً وهو يوم ٢٥ ديسمبر بالتقويم الغربي وقد التصقت به عادات وتقاليد قومية . الموسوعة العربية ص ١٢٤٧ .

(٤) عيد تعميد عيسى عليه السلام في نهر الأردن ويوافق ١٩ يناير عند النصارى نفس المرجع ص ١٢٤٧ .

(٥) هو عيد الأقباط في مصر ويقع في رأس السنة الزراعية المصرية القبطية في ١١ سبتمبر .

أنها مما خلفه الفاطميون مما ابتدعوه من المواسم والأعياد مثل عيد الغدير وعيد النصر وموسم رأس السنة ومولد النبي صلى الله عليه وسلم ومولد علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومولد الحسين رضي الله عنهما ومولد فاطمة رضي الله عنها وموسم فتح الخليج وغير ذلك من الأعياد البدعية ولقد تميزت هذه الأعياد بكثير من الإسراف و التبذير والمفاخرة من قبل الحكام والناس حيث تنفق فيها وعليها الأموال الطائلة ولعل أكبر شاهد على ذلك ما يحدث في موسم فتح الخليج وموسم الغطاس [1] .

ومن العجيب أن هذه الإنفاقات السرفية على الأعياد والاحتفالات تحدث في كثير من السنوات والناس يعيشون حياة الضنك والفاقة والحاجة [2] ، ولا شك أن تلك الاحتفالات المبتدعة التي لم تشرع في الإسلام تؤثر تأثيرا عظيما على المقدرات التي يمتلكها الجماعات والأفراد وتجعل كثيرا من أبناء الأمة الإسلامية يعيشون حياة الفقر والفاقة بسبب ما يستوفى من أموال طائلة في تلك الاحتفالات والأعياد والمناسبات التي لا تنتهي إلا وقد جاء غيرها على مدار العام.

ومن ناحية أخرى فهي تؤثر تأثيراً مباشراً في مسائل الاعتقاد وتقدح في التوحيد لما يحصل فيها من شركيات وفسوق ومجون مخالف لما جاء في الإسلام وبالتالي تؤثر على ما يحدث في البلاد من غلاء وكساد وغير ذلك من الآفات والأضرار لما للمعصية من تأثير سلبي على البلاد والعباد وتلك سنة الله تبارك وتعالى فيمن يخالف ويعارض سنته (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) [3] .

---

(١) الخطط والآثار ١/٤٧٠ .

(٢) السلوك ٤/٣٧٧ .

(٣) المقريزي وآراؤه الاقتصادية أحمد صالح ص ٦٠ .

ب- العادات والمفاسد الضارة :

هـــنالك بعـــض العادات والمفاسد التي انتشرت في عصر المقريزي رحمه الله ولعل من أبرز تلك المنكرات والعادات الفاسدة شرب الخمور وتجارة البغاء ولقد كان للحكام من فترة إلى أخرى ثورة على تلك المنكرات التي يباشرها الرعاع من الناس ولعل للسلطان الناصر بن قلاوون قصب السبق في إنكار تلك المفاسد ومحاربتها والأخذ على أيدي السفهاء.

يقول المقريزي رحمه الله (وأبطل الملك الناصر محمد بن قلاوون عدة جهات قـــد ذكـــرت في الـــروك الناصري وآخر ما أدركنا إبطاله ضمان الأغاني وضـــمان القراريط في سنة ثمان وسبعين وسبعمائة على يد الملك الأشرف شـــعبان بـــن حسين بن محمد بن قلاوون، فأما ضمان الأغاني فكان بلاء عظيماً وهو عبارة عن أخذ مال من النساء البغايا فلو خرجت أجل امرأة في مصـــر تريد البغاء حتى أنزلت اسمها عند الضامنة وقامت مما يلزمها لما قدر أكبر أهل مصر على منعها من عمل الفاحشة .

وكان على النساء إذا تنفسن أو عرسن امرأة وخضبت امرأة يدها بحناء أو أراد أحـــد أن يعمـــل فرحا لا بد من مال بتقرير تأخذه الضامنة ومن فعل فرحاً بأغان أو نفس امرأته من غير إذن الضامنة حل به بلاء لا يوصف [١] ، وقـــد أبطـــل كل تلك العادات القبيحة والأفعال المنكرة السلطان الناصر قلاوون ومنع المجاهرة بها.

---

(١) الخطط والآثار ١٠٦/١ ، وانظر المقريزي وآراؤه الاقتصادية ص ٦٢ .

ج- الذنوب والمعاصي وآثارها الاجتماعية :

لا أحـــد يشـــك في أن للذنوب والمعاصي آثار كبيرة وخطيرة على الفرد والجماعات في المجتمع المسلم.

والـــناظر إلى سنة الله تبارك وتعالى في الأمم السابقة يعلم علم اليقين أن ما حـــدث مـــن بـــلاء ومحن ومسخ وعذاب كان بسبب ذنوبهم ومعاصيهم ومجاهـــرتهم بها أمام الملأ من الناس دون مبالاة أو حياء من الخالق سبحانه وتعـــالى، ولكن النتيجة أن أذاقهم الله لباس الجوع بما كانوا يصنعون، فبدل أمـــنهم خوفـــاً ورغد عيشهم نقصاً وجوعاً وعريا وهكذا تكون الذنوب والمعاصـــي ســـبباً مباشراً في أخذ الله القرى وأهلها بما كانوا يفسدون في الأرض وبما كانوا يظلمون (وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم كانوا يظلمون)[1]

ولا شك أن المخالفة لأمر الله تبارك وتعالى والابتعاد عن نهجه وشرعه سبب من الأسباب التي تؤدي إلى قلة الرزق والقحط والأمراض التي تصيب الناس في أنفسهم ودوابهم.

قـــال تعـــالى (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) [2] وقال تعالى مبيناً أن الاستقامة سبب من أسباب الرزق وكـــثرة الخـــيرات(وألـــو اســـتقاموا عـــلى الطـــريقة لأســـقيناهم ماء غدقا) [3] .

---

(١) آل عمران آية ١١٧ .

(٢) الأعراف آية ٩٦

(٣) الجن آية ١٦

قال تعالى (وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف)[1]

ويقـــول عليه الصلاة والسلام مبيناً أثر المعصية (و لم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء٠٠) الحديث[2] .

ولقـــد أشار المقريزي رحمه الله إلى هذا الأمر وهو وقوع الناس في الذنوب والمعاصي وبعدهم عن منهج الله تبارك وتعالى وإغراقهم في المنكرات حيث ربـــط ذلك بما أصابهم من نكبات ومجاعات في المعيشة إذ يقول (وقد حل بالـــناس الفاقة مما أصابهم من نكبات ومجاعات وعمت الشكاية ولا يزداد الناس إلا إعراضاً عن الله، فلا جرم أن حل بهم ما حل ولا حول ولا قوة إلا بالله)[3] .

ويقـــول في موضع آخر (وكان قد تتابع على أهل مصر والقاهرة في إظهار المـــنكرات وترك الإنكار وإباحة الأمر والنهى وتفاحش الأمر وما استطاع أحـــد من العامة الإنكار باليد ولا باللسان وصار هذا السحت مما ينفرد به السلطان به لنفقته وطعامه...- إلى أن قال - وكثر اجتماع الرجال والنساء في شـــهر رمضان لاسيما على الخليج لما فتح ، وعلى مصر الماء وزاد وظهر الناس في النيل بمعاص نسأل الله أن لا يؤاخذنا بها وأن لا يعاقبنا عليها بجرأة أهلها[4] .

---

(١) النحل آية ١١

(٢) رواه البيهقي وانظر صحيح الترغيب والترهيب للمنذري تحقيق الألباني ص ٣٢١ .

(٣) المقريزي الخطط ١٠٥/١ ، وانظر المقريزي وآراؤه الاقتصادية ص ٦٥ .

(٤) الخطط والآثار ١٠٥/١ .

وإن كان قد ساق المقريزي هذا الكلام عن أحداث سنة تسعين وخمسمائة إلا أن آثار المعاصي والذنوب لا تكاد تختلف في أي زمان أو أي مكان، فإن الله إذا أخذ كان أخذه قوياً وبطشه شديداً وعذابه أليماً .

ومن ثم يتضح لنا مدى ما يكون للمخالفة عن أمر الله تعالى من نتائج وخيمة وعواقب سيئة في الأوطان والأبدان.

وأيضاً مدى ما للطاعة من خيرات وبركات على العباد والبلاد فكلما استقام الناس على منهج الله وحققوا توحيده وقاموا بأمر الله فتح الله عليهم بركات من السماء والأرض ومن تتبع سنن التاريخ وجد ذلك ماثلاً أمام عينية فما ينزل بلاء إلا بسبب ذنب ولا ترفع عقوبة عن العباد إلا بتوبة صادقة ورجعة أكيدة .

ويمكن معرفة ذلك من خلال الاستقراء للأمم السابقة وما حل بهم من عقوبات ونزل هم من نكبات، وما حصل للطائعين والقائمين على منهج الله من نصر وتأييد وسعة رزق [١] .

---

(١) المقريزي وآراؤه الاقتصادية ص ٦٦ .

د- التكافل الاجتماعي والأزمات الاقتصادية :

لقد اجتاح المجتمعات في عصر المقريزي رحمه الله كثير من الكوارث والأزمات لعل من أسوأها المجاعات العظيمة التي لحقت بالناس في ذلك الزمان وهى كثيرة وعديدة ولعل من أخطرها وأشدها وأبرزها على الناس تلك المجاعات التي حدثت من سنة ٨٠٦ هـ إلى سنة ٨٠٨ هـ [١] ، ومن سنة ٨١٨ هـ إلى سنة ٨١٩ هـ وبصرف النظر عن أسباب تلك المجاعات أو من كان السبب فيها فقد نتج آثار سلبية كثيرة جداً أودت بحياة كثير من الناس [٢] .

كما عم بسبب تلك المجاعات أمراض كثيرة أود ت بحياة كثير من الناس وكانت سبباً لوفاقم ، ولذلك يقول المقريزي: (ومات من أهل إقليم مصر بالجوع نحو ثلثي الناس) [٣] ، كما فشت الطواعين بدمشق وضواحيها وكذلك ببلاد فلسطين وحوران وعجلون ونابلس وطرابلس ومات خلق كثير من جراء تلك المصائب [٤] .

هـ - الأوقاف وأثرها على الحياة الاجتماعية:

لقد ازدهرت الأوقاف في العصر المملوكي ولعل أهم أسباب ازدهارها لجوء أمراء المماليك إلى تحصين أموالهم ضد المصادرات من قبل حكام المماليك إضافة إلى التهرب من ديوان المواريث الحشرية بالإضافة إلى الشعور الديني لدى أمراء المماليك والتنافس بين السلاطين

---

(١) المقريزي إغاثة الأمة ص ٤٣

(٢) المقريزي إغاثة الأمة ص ٤٣

(٣) المقريزي السلوك ٤/٢٢٥ .

(٤) المقريزي وآراؤه الاقتصادية ص ٦٧ .

والأمـــراء عـــلى إقامة الأوقاف وذلك نتيجة للحالة الاقتصادية الجيدة التي يعيشها السلاطين والأمراء [1] .

ولقد كان للأوقاف دور كبير في أعمال البر والإحسان حيث أصبح للفقراء والمعوزيـــن والأيـــتام وطلبة العلم نصيب محدد من ثروة الأغنياء عن طريق الأوقاف .

ولقـــد تعـــددت أوجه البر التي تصرف فيها الأوقاف، ولعل منها خلاص المســـجونين ووفاء دين المدينين وفكاك أسرى المسلمين وتجهيز الطرحاء من أمـــوات المســـلمين وإطعام الطعام ومداواة المرضى وكسوة العرايا والمقلين والضعفاء في الشتاء والصيف وإرضاع الأطفال عند فقد أمهاتهم وعجزهن عن إرضاعهن [2] .

كمـــا اهتمـــت الأوقـــاف بالمواسم الدينية مثل إطعام الفقراء في رمضان وكسوتهم في الأعياد [3] كما ساهمت في توفير مياه الشرب للناس والمدارس ، وساهمت مساهمة كبيرة في الرعاية الصحية، وذلك بإنشاء البيمارستانات مـــثل بيمارســـتان الســـلطان الملك الناصر الذي وقفه لمداواة المرضى من المسلمين رجالاً ونساء الأغنياء منهم والفقراء المقيمين بمصر والواردين إليها [4] .

---

(١) محمد محمد أمين الأوقاف والحياة الاجتماعية ص ٧٢ وما بعدها .

(٢) نفس المرجع ص ١٣٣- ١٣٥ .

(٣) المصدر السابق ص ١٥٥ .

(٤) المصدر السابق ص ١٥٥

و – الأوقاف الدينية والثقافية :

لقـــد قامت بدور كبير من أجل تدعيم المساجد والجوامع وتمكينها من أداء رسالتها ولقد كان لذلك دور كبير في تقوية الشعور الديني عن طريق تلك المؤسســـات الدينية، فجميع هذه الأماكن ممتلئة بالأئمة والخطباء والفقهاء والمســـاكين، وكل هؤلاء لهم مقرر من سائر ما يحتاج إليه مما أوقف عليهم مـــن البلاد والضياع والأملاك والحوانيت ولهذه الأوقاف مباشرون وعمال وغير ذلك [1] .

وإلى جانـــب المساجد والجوامع كان هناك المدارس الخوانق والربط حيث أوقفـــت عليها الأوقاف المختلفة للإنفاق عليها كما كان لها دور كبير في تسهيل تأدية الحج لغير القادرين [1] .

كمـــا ســـاهم الوقف مساهمة فعالة في الجهاد في سبيل الله حيث وجد من أمـــراء المماليـــيك مـــن أوقـــف بعـــض أملاكـــه عـــلى بعض الأبراج الواقعة في الثغور الشمالية لدولة المماليك ، مثل برج الأمير يشبك الداوادار بالإســـكندرية حيـــث أوقـــف الأمـــير يشـــبك علـــيه أراضـــي بالوجه البحري للإنفاق عليه وعلى ذخيرته وما فيه من المقاتلين[3] .

ولقـــد كان للأوقاف دور كبير في الحركة العلمية حيث ساهمت في إنشاء المـــدارس ووقفت لها الأوقاف للإنفاق عليها وعلى مدرسيها وطلاب العلم فيها وساهمت في تعليم الأيتام وإقرائهم، وممن اعتنى بذلك الأمير صرغتمش«٢»

(١)محمد محمد أمين الأوقاف والحياة الاجتماعية ص ١٨٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٢٦.

(٣) المرجع السابق ص ٢٦٣ .

وعلى الرغم من دور الأوقاف النشط وما قامت به من دور فعال في مجالات عديـــدة كالحـــركة العلمية ودور العبادة والمدارس والبيمارستانات والثغور وغيرها ، فلم تخلو من صعوبات ومواجهات وتحديات لعل من أهمها :

١- تأثرها بالأحوال الاقتصادية السائدة فقد تأثرت كثيراً بتغير رقم النقود حيث تأثر موظفوها والمرتزقون منها [١] .

٢- تدخل الدولة المملوكية بإبطالها وتحويلها إلى إقطاعات لمن تشاء الدولة [٢] ممـــا تســـبب في حرمان جهات ونواحي اجتماعية كثيرة عن ريع هذه ا لأوقاف [٣] .

---

(١) السلوك ٢٧/٤

(٢) السلوك ٣٤٥/٣ ، ٥١٣ .

(٣) المقريزي و آراؤه الاقتصادية ص ٧٠ .

الفصل الثاني : حياة المقريزي

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : نسبه وولادته ونشأته ووفاته .

المبحث الثاني : شيوخه وتلاميذه .

المبحث الثالث : مذهبه .

المبحث الأول: نسبه وولادته ونشأته ووفاته

هو تقي الدين أبو محمد [1] أحمد بن علي بن عبدالقادر بن محمد بن إبراهيم بـــن محمـــد بـــن تميم بن عبدالصمد بن أبي الحسن بن عبدالصمد بن تميم الحســـيني العبيدي [2] البعلي الأصل القاهري سبط ابن الصائغ ويعرف بابن المقريزي [3] الشافعي [4] .

ولـــد في القاهـــرة [5] في حارة برجوان [6] في قسم الجمالية بعد سنة ست وستين وسبعمائة للهجرة ونشأ في كنف أسرة عرفت بالمشاركة في تحصيل العلم وبثه.

---

(١) هكـــذا كـــناه ابن حجر في المجمع المؤسس بينما كناه السخاوي تبر المسبوك في ذيل الملوك ١/٢٠ والضوء اللامع ٢/٢١ بأبي العباس .

(٢) الضوء اللامع للسخاوي ٢/٢١

(٣) أشار ابن حجر (المجمع المؤسس) وتلميذه السخاوي في التبر المسبوك والضوء اللامع إلى أن المقريزي نسبة إلى حارة المقارزة في بعلبك حيث نزلها جده الأعلى (إبراهيم).

(٤) أشـــار ابن حجر (إنباء الغمر ٩/١٧١) إلى أن جد أحمد لأبيه عبدالقادر وأباه علياً كانا حنبليين وأن الإمام أحمد بن على نشأ حنفياً على مذهب جده لأمه ثم تحول شافعياً بعد أن جاوز العشرين .

(٥) الخطط والآثار ١/٢

(٦) حـــارة بـــرجوان نســـبة إلى أبي الفتوح برجوان خادم العزيز الفاطمي ومدير دولته ، قتله الحاكم بأمر الله الفـــاطمي ســـنة تسعين وثلاثمائة للهجرة بعد أن أظل في دولته ابن خلكان . وفيات الأعيان ١/٢٧٠ ، الخطط والآثار ٢/٣ .

فجـــده لأبيه (محي الدين أبو محمد عبدالقادر) [1] (ت ٧٣٢ هـــ) نشأ في بعلبك وسمع فيها على زينب بنت كندي (ت ٦٩٩ هـــ).
وكانـــت له رحلـــة في طلـــب الحديث النبوي وتحصيله إلى حمص وحلب ودمشـــق والقاهرة والإسكندرية جمع فيها على عدد وافر من أعلام الحفاظ والمســـندين في عصره كأبي المكارم النصيبي (ت ٦٩٢ هـــ) وابن القواس (ت ٦٩٨ هـــ)، وأبي الفضل ابن عساكر (ت ٦٩٩ هـــ)، وابن مشرف (ت ٧٥٧ هـــــ) وابن النحاس (ت ٧١٠) وسبط زيادة (ت ٧١٢ هـــ) والـــتقي سليمان (ت ٧١٥) ويحيى بن سعد (ت ٧٢١) وعدد من أعيان الحنابلة وكبار المحدثين في الشام، مما أهله لتولي مشيخة دار الحديث البهائية فانتفع به جمع وافر من الطلبة [2] .
وجـــده لأمه (ابن الصائغ الحنفي [3] (ت ٧٧٦ هـــ) نشأ في القاهرة وأخذ العربية عن أبي حيان الغرناطي (ت ٧٤٥) والمعاني والبيان عن العلاء القوني (ت ٧٢٩ هـــ) والجلال القز ويني (ت ٧٣٩ هـــ) والفقه عن ابن عبدالحق (ت ٧٤٤ هـــ) والقراءات إفراداً وجمعاً للسبعة والعشرة عن محمد المصري (ت ٧١٨ هـــــ) والتقي ابن المكي (ت ٧٢٥ هـــ) والحديث النبوي عن الدبوسي (ت ٧٢٩ هـــ) وابن سيد الناس (ت ٧٦٤) .
وكانت له رحلة إلى دمشق سنة ثمان وعشرين وسبعمائة للهجرة جمع فيها عـــلى (الحجـــار) (ت ٧٣٠ هـــ) والمزي (ت ٧٤٢ هـــ) والبزرالي (ت ٨٣٩ هـــ) وتصدر في الجامع الأموي للعربية والإقراء، وأقرأ الشاطبية هناك غير مرة، ثم عاد إلى القاهرة وأخذ من أعيان علمائها، وولي إفتاء دار العدل يوم الخميس ثاني عشر ربيع الآخر سنة خمس وستين وسبعمائة.

---

(١) له ترجمة في الذهبي ذيل العبر ص ١٧٢ وابن رجب في الذيل على طبقات الحنابلة ٤١٦/٤-٤١٧

(٢) درر العقود الفريدة للمقريزي تحقيق د/ محمد كمال الدين عزالدين علي ١٥/١-١٦.

(٣) هـــو شمس الدين محمد بن عبدالرحمن بن علي بن أبي الحسين الزمردي الحنفي ، له ترجمة في ابن الجزري غاية النهاية ١٦٣/٢-١٦٤ ، والسلوك ٢٤٥/٣ ، وإنباء الغمر ٩٥/١-٩٦ والدرر الكامنة لابن حجر ٤٩٩/٣ .

ثم ولي قضاء العسكر وتدريس الفقه الحنفي في الجامع الطولوني يوم الاثنين ثـاني عشـر رجب سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة، كما كان ناهوا الطلبة يقصـدون داره لـيلاً لتحمل علم القراءات عنه، وظل على وظائفه تلك تاركاً ثروة واسعة، وعدة مؤلفات منها: (شرح ألفية ابن مالك) (والتذكرة الـنحوية) (والاستدراك على المغني لابن هشام) (وشرح البردة) (والمثاني في المعاني) و (الثمر الجني في الأدب السني) و (المنهج القويم في القرآن العظيم) و (الغمز على الكنـز).

وأشار إليه سبطه المقريزي بأنه كان من الأفراد في أمور الدنيا والدين كما نعـته (ابـن حجـر) بأنـه كان فاضلاً بارعاً حسن النظم والنثر، كثير الاستحضـار قوي البادرة، دمث الأخلاق وذهب (ابن الجزري) إلى أنه لم يكـن في زمـنه حـنفي أجمع للعلوم منه، ولا أحسن ذهناً وتدقيقاً وفهماً وتقريراً وأدباً).

أما والده علاء الدين علي بن محي الدين عبدالقادر (ت ٧٧٩ هـ)
فـلا تمدنا المصادر بما يفيد كثيراً في نشأته وتكوينه ومقدار ثقافته فجل ما يعرف عنه أنه ولد في دمشق وسمع فيها الحديث النبوي وأن الغالب عليه

من بين معارف وعلوم عصره (كتابه الإنشاء و الحساب) [١] .
وقد باشر التوقيع السلطاني وعدة وظائف مع دين متين وعقل راجح رصين [٢] وصاهر ابن الصائغ على ابنته أسماء بنت محمد بن عبدالرحمن بن علي بن أبي الحسن.
ولـــدت بالقاهـــرة يوم الاثنين الحادي والعشرين من شهر رجب سنة سبع وأربعـــين وسبعمائة وتوفيت بها ليلة الاثنين ثاني عشر شهر ربيع الأول سنة ثمانمائة ، وزفت بنت اثنتي عشر سنة على رجل يعرف (بنجم الدين المهلبي) ثم خلـــف علـــيها علاء الدين بعد مفارقة نجم الدين المهلبي لها في محرم سنة خمـــس وســـتين ، وأنجبت له أحمد ومحمد وحسن وكانت من أفضل نساء زمانهـــا ديـــناً وعفة وصيانة وعقلاً ومعرفة وصبراً وخبرة ، أقامت بالحمى إحـــدى وعشرين سنة، وبها ماتت ، وهي صابرة غير جازعة ولا متسخطة وابتليت في عينيها بداء، اقتضى الحال قطع جفنيها بالحديد فثبتت و لم تتأوه وصبرت لعظيم ما بليت به .
وكانت تديم قيام الليل، وصيام الاثنين والخميس، وتواظب على الأوراد من الذكر والقراءة والإحسان للأيتام والأرامل و ا لفقراء.
وتنشد الشعر قالت: سمعت أبي ينشد:

أحمامة الوادي بشرقي الفضا   حاكى الشجون وان عجزت فهاكى
لا تدعى وجداً وأنت خليقة   قد يعرف الباكي من المتباكى [٣]

أمـــا تقي الدين أبو محمد أحمد بن عبدالقادر بن محمد بن إبراهيم المقريزي فقد نشأ نشأة حسنة فحفظ القرآن الكريم.

---

(١) المقريزي درر العقود الفريدة تحقيق د . محمد كمال الدين ١/١٨ .

(٢) السلوك ٣/٣٢٦ .

(٣) درر العقود الفريدة ٢/٤٨٠

وظلت زوجا له إلى أن توفاه الله يوم الأحد الخامس والعشرين من رمضان سنة تسع وسبعين وسبعمائة وعاشت بعده إلى سنة ثمانمائة وقد اقترنت بزوج غيره [١] .

وقد كفل أحمد في طفولته وشبابه الأول جده لأمه ابن الصائغ وكان حنفي المذهب فنشأ السبط على هذا المذهب وظل من أتباعه إلى أن توفي أبوه سنة ٧٨٦ هـ فانقلب شافعياً [٢] .

وسمع من جده لأمه الشمس بن الصائغ والبرهان الآمدي والعز بن الكويك والنجم بن رزين والشمس بن الخشاب والتنوخي وغيرهم كثير وأحب الحديث ومال إليه وواظب على ذلك حتى أنه كان يتهم بمذهب ابن حزم ولكنه كان لا يعرفه، هذا مع كون والده وجده حنبليين.

ونظر في عدة فنون وشارك في الفضائل وخط بيده الكثير وانتقى وقال الشعر والنثر وحصل وأفاد وناب في الحكم وكتب التوقيع وولي الحسبة بالقاهرة غير مرة أولها في سنة إحدى وثمانمائة والخطابة بجامع عمرو وبمدرسة حسن، والإمامة بجامع الحاكم وقراءة الحديث ونظره بالمؤيد عوضاً عن المحب بن نصر الله حين استقرأه في تدريس الحنابلة بها.

وحمدت سيرته في مباشراته، وكان قد اتصل بالظاهر برقوق ودخل دمشق مع ولده الناصر سنة عشر وعاد معه وعرض عليه قضاؤها مرارا فأبي وصحب يشبك الدوادار وقتا ونالته منه دنيا ؛ بل يقال أنه أودع عنده نقداً أو حج غير مرة وجاور،، وكذا دخل دمشق مرارا وتولى بها نظر وقف القلانسي والبيمارستان النوري ، مع كون شرط نظره لقاضيها الشافعي

---

(١) درر العقود الفريدة تحقيق د / محمد كمال الدين ١/ ٢٠ .

(٢) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا للمقريزي تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ص ٢٠.

وتدريس الأشرفية والاقبالية وغيرها، ثم أعرض عن ذلك وأقام ببلده عاكفاً على الاشتغال بالتاريخ حتى اشتهر به ذكره وبعد فيه صيته وصارت له فيه جملة تصانيف ، وقد قرأت [١] (بخطه أن تصانيفه ندت على مائتي مجلدة كبار وأن شيوخه بلغت ستمائة نفس وكانت له معرفة بالفقه والحديث والنحو واطلاع على أقوال السلف وإلمام. بمذهب أهل الكتاب حتى كان يتردد إليه أفاضلهم للاستفادة منه، مع حسن الخلق وكرم العهد وكثرة التواضع وعلو الهمة لمن يقصده والمحبة في المذاكرة والمداومة على التهجد والأوراد وحسن الصلاة ومزيد الطمأنينة فيها والملازمة للسنة .

وقد ترجمه [٢] شيخنا في معجمه بقوله وله النظم الفائق والنثر الرائق والتصانيف الباهرة وخصوصاً تاريخ القاهرة فانه أحيا معالمها، وأوضح مجاهلها، وجدد مآثرها وترجم أعيانها .

ومن شعره في دمياط:

سقى عهد دمياط وحياه من عهد فقد زادني ذكراه وجداً على وجدي
ولا زالت الأنواء تسقى سحابها دياراً حكت من حسنها جنة الخلد

وهى أكثر من عشرين بيتاً .

مات في عصر يوم الخميس سادس عشر رمضان سنة خمس وأربعين وثمانمائة للهجرة بالقاهرة بعد مرض طويل وذلك على ما قاله شيخنا تكملة ثمانين سنة من عمره ودفن يوم الجمعة قبل الصلاة بحوش الصوفية البيبرسية رحمه الله وإيانا [٣] .

---

(١) تاء الفاعل هنا تعود على الإمام السخاوي في كتابه الضوء اللامع لأهل القرن التاسع وهو يتحدث عن المقريزي ٢/ ٢٤ .

(٢) هاء الضمير تعود على ابن حجر العسقلاني .

(٣) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ب ٢ ص ٢٤- ٢٥ للسخاوي التبر المسبوك في ذيل السلوك للسخاوي ٢/ ٢٤-٢٥ .

المبحث الثاني : شيوخه وتلاميذه

لقـــد تلقى تقي الدين أبو محمد أحمد بن علي المقريزي علومه وفنونه على كـــثير من علماء عصره حتى فاق أقرانه في زمنه بكثرة من أخذ عنهم من العلماء.

ذكـــر عنه السخاوي في الضوء اللامع بأن أعلام العلماء الذين تلقى عنهم العـــلم وأخذ منهم بلغوا حسب إحصائه لهم ستمائة شيخ [1] ولا شك أن هـــذا العـــدد الضـــخم من العلماء والمفكرين الذين أخذ عنهم تقي الدين المقريـــزي رحمـــه الله كانوا ذوي فنون مختلفة مما أثرى لديه علومه فبرز في مجالات شئ كان من أكثرها شيوعاً وانتشاراً علم التأريخ، ولكن كانت له إسهامات متعددة في جوانب علمية مختلفة لم يقتصر على علم التأريخ الذي اشـــتهر بـــه ، وكان من أبرز علماء عصره الذين أخذ عنهم علومه وفنونه المتعددة طوال حياته كما ذكر ذلك عنه د. محمد كمال في مقدمته لكتاب درر العقود الفريدة للمقريزي :

١- الحـــراوي ناصـــر الديـــن محمد بن على بن سويد.. إدريس الكردي الدمياطي [2] المتوفى سنة (٧٨١ هـــ) .

٢- جويرية الهكارية [3] (ت ٧٨٣ هـــ).

٣- أبا الفضل النويري [4] (ت ٧٨٦ هـــ).

---

(١) الضوء اللامع ٢/ ٢٣ .

(٢) إنباء الغمر لابن حجر ١/ ٢٠٨ ، والدرر الكامنة لابن حجر ٤/ ٩٩ .

(٣) هي جويرية بنت أحمد بن الحسن بن موسى الهكارية السلوك للمقريزي ٣/ ٤٦٤ ، الدرر الكامنة ٤/ ٩٩

(٤) هو كمال الدين أبو الفضل محمد بن أحمد بن أحمد بن عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن القاسم بن عبدالرحمن بن القاسم بن عبدالله الهاشمي الشافعي له ترجمة في أنباء الغمر ١/ ٢٩٦ الدرر الكامنة٣/ ٣٢٦ .

٤- ابن طراد [١] (ت ٧٨٨هـ).
٥- الجمال الأميوطي [٢] (ت ٧٩٠ هـ).
٦- العز ابن الكويك [٣] (٧٩٠هـ) .
٧- العفيف النشاوري [٤] (ت ٧٩٠ هـ).
٨- المنجم ابن رزين [٥] (ت ٧٩١ هـ).
٩- ابن الشهيد [٦] (ت ٧٩٣ هـ).
١٠- ابن الشيخه [٧] (ت ٧٩٧ هـ).

---

(١) هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن عبدالمعطي بن أحمد بن عبدالمعطى بن علي بن طراد الأنصاري له ترجمة في المقريزي درر العقود الفريدة ٢١٠ وابن حجر الغمر ٣٢١/١ .

(٢) هو إبراهيم بن محمد بن عبدالرحيم بن إبراهيم بن يحي بن أبي المجد اللخمي الأميوطى وكان السماع عليه لصحيح البخاري، بقراءة البرهان الحلاوي في مجاورة المقريزي في الحرم المكي سنة (٣٨٧ هـ) ابن حجر إنباء الغمر الدرر الكامنة ٦٠/١-٦١ .

(٣) هو عز الدين أبو اليمن محمد بن عبداللطيف بن أحمد بن محمود بن أبي الفتح بن الكويك المربعي الشافعي ، له ترجمة في المقريزي السلوك ٥٨٨/٣ ، ابن حجر إنباء الغمر ٣٦١/١ الدرر الكامنة ٢٥/٤ .

(٤) هو عبدالله بن محمد بن محمد بن سليمان بن موسى النيسابوري المكي له ترجمة في إنباء الغمر ٣٥٨/١ ، الدرر الكامنة ٣٠٠/٢-٣٠١ .

(٥) هو عبدالرحيم بن عبدالوهاب بن عبدالكريم بن الحسين بن موسى بن عيسى بن موسى العامري القاهري إنباء الغمر ٣٨٦/١ ، الدرر الكامنة ٣٥٧/٢-٣٥٨ .

(٦) هو فتح الدين أبو بكر محمد بن إبراهيم بن أبي بكر المعروف بأبي الشهيد الدمشقي الشافعي له ترجمة في المقريزي السلوك ٢٢٣/٣ ابن حجر إنباء الغمر ٤٢٦/١-٤٢٧ .

(٧) هو زين الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن أحمد بن مبارك بن حماد الغزي. له ترجمة في المقريزي السلوك ٣/ ٨٣٣ ابن حجر إنباء الغمر ٥٣٥/١ الدرر الكامنة ٣٢٤/٢-٣٢٥ .

١١- النجم ابن الكويك [١] (ت ٧٩٩ هـ).

١٢- ابن أبي المجد [٢] (ت ٨٠٠هـ)

١٣- البرهان التنوخي [٣] (ت ٨٠٠ هـ).

١٤- الشمس ابن سكر [٤] (ت ٨٠١ هـ).

١٥- السراج ابن الملقن [٥] (ت ٨٥٤ هـ).

١٦- السويداوي [٦] (ت ٨٠٤ هـ).

---

(١) هو نجم الدين أبو العباس أحمد بن إسماعيل بن محمد بن أبي العز بن صاع بن أبي العز بن وهيب بن عطاء بن جبير بن وهيب. له ترجمة في المقريزي السلوك ٨٨٥/٣وابن حجر إنباء الغمر ٣٨١/١ الدرر الكامنة ١٠٣/١ .

(٢) هو شمس الدين محمد بن يوسف بن أبي المجد انظر ترجمته في ابن حجر إنباء الغمر ٣٢/٢ .

(٣) هو برهان الدين إبراهيم بن أحمد بن عبدالواحد بن عبدالمؤمن بن سعد بن علوان بن كامل التنوخي البعلي له ترجمة في ابن الجزري غاية النهاية٢/٧-٨ والمقريزي السلوك ٩١٠/٣ وابن حجر إنباء الغمر ٢٢/٢-٢٣ ، الدرر الكامنة ١١/١-١٢ وابن تغري بردي النجوم لزاهرة ١٦٦/١٢ .

(٤) هو شمس الدين أبو عبدالله محمد بن علي بن محمد بن على بن ضرغام بن على بن عبد ا لكافي له ترجمة في ابن الجزري غاية النهاية ٢٠٧/٢ وابن حجر إنباء الغمر ٨٥/٢ والسخاوي الضوء اللامع ١٩/٩ .

(٥) هو سراج الدين عمر بن على بن أحمد بن محمد بن عبدالله .

(٦) هو أحمد بن الحسن بن محمد بن محمد بن زكريا يحي المقدسى شهاب الدين له ترجمة في المقريزي السلوك ٣ /١٠٩٠ وابن حجر إنباء الغمر٢٠٩/٢ .

١٧- العماد الحنبلي [(١)] (ت ٨٠٤ هـ) .
١٨- الزين التاجر [(٢)] (ت ٨٥٥ هـ).
١٩- السراج البلقيني [(٣)] (ت ٨٠٥ هـ).
٢٠- الزين العراقي [(٤)] (ت ٨٠٦ هـ).
٢١- الفرسيسي [(٥)] (ت ٨٠٦ هـ).
٢٢- النور الهيثمي [(٦)] (ت ٨٠٧هـ).

---

(١) هو عماد الدين أبو بكر بن أبي المجد بن ماجد بن أبي المجد بن بدر بن سالم المقدسي الصالحي له ترجمة في إنباء الغمر ٢/٢١٢ والسخاوي الضوء اللامع ١١/٦٦-٦٧ .

(٢) هو زين الدين أبو بكر بن محمد بن عبدالله بن مقبل الحنفي المعروف بالتاجر ترجم له المقريزي في درر العقود الفريدة مشيراً إلى أنه لزمه سنين وكان في صغره وبداية طلبه إذا أراد أن يتكلم في درسه يأخذه الحياء، فيسكت وكان درسه بالمدرسة الظاهرية بيبرس بحضرة جمع كبير.

(٣) هو سراج الدين أبو حفص عمر بن رسلان بن نصير بن صاع بن شهاب بن عبدالخالق بن الحق الكتاني العسقلاني الشافعي. له ترجمة في المقريزي السلوك ٣/١١٠٨ وابن حجر إنباء الغمر١/٢٤٥-٢٤٧ وابن تغري بري الدليل الشافي ١/٤٩٧ والسخاوي الضوء اللامع ٦/٨٥-٩٠ .

(٤) هو زين الدين أبو الفضل عبدالرحيم بن الحسين بن عبدالرحمن بن إبراهيم بن أبي بكر بن إبراهيم المهراني، العراقي. له ترجمة في ابن الجزري غاية النهاية ١/٣٨٢ والمقريزي السلوك ٣/ ١١٢٨ وابن حجر إنباء الغمر ٢/ ٢٧٥- ٢٧٩ وابن تغري بردي المنهل الصافي ج٢ والضوء اللامع ٤/١٧١ .

(٥) هو شمس الدين محمد بن حسن بن على بن عبدالرحمن، له ترجمة في ابن حجر إنباء الغمر ٢/٢٨٣ والسخاوي الضوء اللامع ٧/٢٢٧ .

(٦) هو نور الدين أبو الحسن علي بن أبي بكر بن سليمان بن أبي بكر بن عمر بن صالح الهيثمي، له ترجمة في ابن حجر إنباء الغمر ٢/٧٧-٧٨ والضوء اللامع ٥/٢٠٠-٢٠٣ .

٣٢- البرهان الظاهري [١] (ت ٨٠٨ هـ).
٢٤- ابن خلدون [٢] (ت ٨٠٨ هـ).
٢٥- طاهر بن حبيب[٣] ت ٨٠٨ هـ).
٢٦- الشهاب الأوحدي [٤] (ت ٨١١هـ) .
٢٧- الشهاب الأشموني [٥] (ت ٨٠٩ هـ).

---

(١) هو برهان الدين أبو هاشم أحمد بن محمد إسماعيل بن إبراهيم بن عبدالرحيم بن يوسف بن سمير بن حازم أشار المقريزي إلى أنه أحد ثلاثة نفعه الله بهم نفعاً كبيراً له ترجمة في المقريزي السلوك ٢٤/٤ وابن حجر إنباء الغمر ٣٣٩/٢ والسخاوي الضوء اللامع ١٤٥/٤-١٤٩ .

(٢) هو ولي الدين أبو زيد عبدالرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبدالرحيم الحضرمي المغربي المالكي له ترجمة في المقريزي السلوك ٢٤/٤ وابن حجر إنباء الغمر ٣٣٩/٢ -٣٤٠ والسخاوي الضوء اللامع ١٤٥/٤-١٤٩ والسيوطي حسن المحاضرة ٤٦٢/١ .

(٣) هو زين الدين أبو العز طاهر بن الحسن بنعم بن الحسن بن عمر بن حبيب بن شويخ الحلبي له ترجمة في المقريزي السلوك ٢٦٠/٣ ، ٢٤/٤ .

(٤) هو شهاب الدين أحمد بن عبدالله بن الحسن بن عبدالله بن طوغان بن عبدالله بن الحسن بن طوغان بن عبدالله الأوحدي له ترجمة في المقريزي درر العقود الفريدة تر ٩٦ وابن حجر إنباء الغمر ٤٠٦/٢ والسخاوي الضوء اللامع ١/ ٣٥٨- ٣٥٩ والسيوطي حسن المحاضرة ٥٥٦/١ .

(٥) هو شهاب الدين أحمد بن منصور بن عبدالله الأشموني الحنفي النحوي له ترجمة في المقريزي درر العقود الفريدة والسخاوي الضوء اللامع ٢٢٧/٢ .

٢٨- الزين المراغي [١] (ت ٨١٦ هـ).
٢٩- المجد الفيروز أبادي [٢] (ت ٨١٧ هـ).
٣٠- التاج الفرغاني [٣] (ت ٨٣٤ هـ).
٣١- ابن خطيب الناصرية [٤] (ت ٨٣٤ هـ) .

كما أجازه إجازة عامة في غير كتاب عدد من حلة العلماء كالجمال الأسنوي [٥] (ت ٧٧٢ هـ) .

---

(١) هو نجم الدين أبو بكر بن حسين عمر بن محمد يونس بن محمد بن عبدالرحمن بن نجم بن طولو العثماني المراغي الشافعي له ترجمة في المقريزي درر العقود الفريدة تر ٤٧ السلوك ٤/ ٢٧٧- ٢٧٨ وابن حجر إنباء الغمر ٣/ ٢٣ والسخاوي الضوء اللامع ١١/٢٨-٣١ .

(٢) هو مجد الدين أبو طاهر الفيروز أبادي محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيرازي . له ترجمة في السلوك ٤/ ٢٩٦- ٢٩٧ وابن حجر إنباء الغمر ٣/٤٧-٥٠ وابن تغري بردي المنهل الصافي والنجوم الزاهرة ١٤/١٣٢-١٣٤ والسخاوي الضوء اللامع ١٠/ ٧٩- ٨٦

(٣) هو تاج الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن عمر بن محمد بن ثابت بن عثمان بن محمد بن عبدالرحمن بن ميمون النعماني الحنفي له ترجمة في المقريزي درر العقود الفريدة .

(٤) هو علاء الدين علي بن محمد بن سعد بن محمد بن على بن عثمان بن إسماعيل بن إبراهيم بن يوسف بن يعقوب الحلبي له ترجمة في المقريزي السلوك ٤/ ١١٩٧ ابن حجر إنباء الغمر٩/١١٥-١١٦ ابن تغري بردي النجوم الزاهرة١٥/ ٤٧٩- ٤٨٠ السخاوي الضوء اللامع ٥/ ٣٠٣- ٣٠٧ .

(٥) هو جمال الدين، أبو محمد عبدالرحيم بن الحسن بن على بن عمر بن على بن إبراهيم الأموي الأسنوي الشافعي له ترجمة في المقريزي السلوك ٣/ ١٩٣ ابن حجر العسقلاني الدرر ٢/٣٥٤-٣٥٦ تر ٢٣٨٦ وابن تغري بردي النجوم الزاهرة١١/١١٤-١١٥ السيوطي حسن المحاضرة ١/٤٢٩-٤٣٤ تر ١٧٥ .

والعماد ابن كثير [1] (ت ٧٧٤ هـ) ، والبدر ابن الخشاب [2] (ت ٧٧٥) وأبي البقاء السبكى [3] (ت ٧٧٧ هـ) وأبي إسحاق الآمدي [4] (ت ٧٧٨ هـ) .

---

(١) هو أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن زرع القرشي البصري ثم الدمشقي الشافعي، أبو الفداء عماد الدين ابن الخطيب شهاب الدين أبي حفص الحافظ الفقيه العلامة لازم الحافظ جمال الدين المزي كثيرا وانتفع به وتزوج ابنته وتفقه وبرع في فنونه بملازمة شيخ الإسلام (تقي الدين ابن تيمية) سمع عليه المقريزي بعدما كف بصره (الحديث المسلسل بالألويات) وأجاز له مروياته ومسموعاته له ترجمة في المقريزي درر العقود الفريدة تر ٢٧٨ والسلوك ٢٠٨/٣ وابن حجر إنباء الغمر ١/ ٣٩- ٤٠ وابن تغري بردى الدليل الشافي ١/ ١٢٧ والمنهل الصافي ٤١٤/٢-٤١٦ والنجوم الزاهرة ١١/ ١٢٣- ١٢٤ .

(٢) هو إبراهيم بن أحمد بن عيسى بن عمر بن خالد بن عبدالمحسن بن نشوان بن عبدالله القرشي المخزومى له ترجمة في ابن حجر إنباء الغمر ٦٤/١ والدرر الكامنة ١٢/١-١٣ تر ١٦ .

(٣) هو هاء الدين أبو البقاء، محمد بن عبدالبر بن ير بن على بن يوسف بن موسى بن تمام الخزري، السبكى، الشافعي له ترجمة في ابن حجر إنباء الغمر ١/ ١٢١- ١٢٣ تر ٦٠ والدرر الكامنة ٣/ ٤٩٠- ٤٩١ .

(٤) هو إبراهيم بن إسحاق بن يحي بن إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل الآمدي الدمشقي ترجم له المقريزي في درر العقود الفريدة مشيرا إلى ذلك بقول: (وقد أجازنا وتحب بخطه أن نروي عنه ما يجوز له روايته وذلك في سنة ٧٧١ هـ) وله ترجمة في ابن حجر إنباء الغمر ١٣٤/١ تر ٢ والدرر الكامنة ص ١٧- ١٨ تر ٢٩ .

تلاميذه :

على كثرة مشايخ المقريزي الذين ذكر أنهم يزيدون على ستمائة شيخ تتلمذ عليهم المقريزي في شتى مجالات العلوم والفنون ، إلا أنه لم يتتلمذ عليه إلا النزر القليل ومن ذلك :

١- احمد بن إبراهيم الكناني الحنبلي (ت ٨٧٦ هـ)[١] .

٢- قاسم بن قطلوبغا الحنفي (ت ٨٧٩هـ)[٢] .

٣- محمد بن عبدالرحمن السخاوي (ت ٩٠٢هـ)[٣] .

٤- محمد بن عبدالله بن خيضر (ت ٨٩٤هـ)[٤] .

٥- النجم عمر بن فهد (ت ٨٨٥هـ)[٥] .

٦- أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ)[٦] .

ويعتبر البعض أن الحافظ بن حجر (ت ٨٥٢هـ) من تلاميذ المقريزي[٧] اعتماداً على ذكر الحافظ ابن حجر له في معجم

---

(١) شذرات الذهب ٣٢١/٧ .

(٢) شذرات الذهب ٣٢٦/٧ والإعلان بالتوبيخ لمذموم التاريخ ص ١٠٥ .

(٣) شذرات الذهب ١٤/٨ وعصر سلاطين المماليك محمود رزق سليم ٣١٨/٣ .

(٤) الإعلام للزركلي ٥١/٧ .

(٥) الإعلان بالتوبيخ للسخاوي ص ٦٨ .

(٦) المنهل الصافي ٣٩٦/١ وشذرات الذهب ٣١٧/٧ .

(٧) مختصر الكامل للمقريزي مقدمة المحقق أيمن عارف الدمشقي ٣٢ .

شيوخه المعروف باسم (الجامع المؤسس) ، والصحيح أنه من أقرانه لا من تلاميذه [1] .

وسأفرد هنا ترجمة لأهم تلاميذ الإمام المقريزي ، وذلك لتأثره بشيخه المقريزي وإفادته منه أكثر من غيره من تلامذته ، وهو جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردى ابن الأمير المملوكي سيف الدين تغري بردى اليشبغاوي الظاهري المولود سنة ٨١٣ هـ وقيل سنة ٨١٢ وهو أصغر إخوته في الذكور والإناث ، وقد مات إخوته الذكور جميعا ما عدا أخ واحد غير شقيق وهو المدعو قاسم، ووالده هو الأمير تغري بردى الذي مات سنة ٨١٥ هـ وهو على نيابة دمشق للمرة الثالثة.

وكان والده مشكور السيرة أثناء نيابة دمشق فقد حكم أهلها بالعدل والإنصاف كما عرف بحبه للعلم والعلماء ومشاركته في بعض المسائل الفقهية [2] .

أما أبو المحاسن جمال الدين فقد مات والده وهو طفل صغير لم يبلغ الثانية أو الثالثة من عمره فعني بتربيته زوج أخته قاضي القضاة جلال الدين البلقيني وزوج أخته الثانية ناصر الدين ابن العديم وحفظ أبو المحاسن القرآن في صغره ودرس الفقه والكلام والنحو والبيان على جماعة من أعلام العصر، فمنهم الحافظ ابن حجر العسقلاني، وبدر الدين العيني، وشهاب الدين عرب شاه .

---

(١) انظر توزيع ابن حجر كتابه الجامع المؤسس ١/٣٦/٧٨ .

(٢) نشأة أبي المحاسن وأثرها في كتابة التأريخ د/ أحمد دراج ص ٦٥ ضمن محاضرات خصصت للاحتفال بأبي المحاسن يوسف بن تغري بردى بلجنة التأريخ بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم.

وكانت هذه النشأة العلمية التي مهدت لها ظروف عائلته، وتربيته في حجر علمين من أعلام فقهاء مصر، هي التي دفعته إلى حياة غير تلك الحياة الأميرية التي يحياها أقرانه من أبناء الأمراء والأتابكة وشغف أبو المحاسن منذ حداثته بالتاريخ والرواية ودفعه هذا الشغف إلى مجالس المقريزي أعظم مؤرخي العصر، فدرس عليه وصادقه ولازمه، ووعى الكثير من مناهجه وأساليبه في البحث والرواية [١].

يقول أبو المحاسن عن شيخه المقريزي كان إماماً مفنناً كتب الكثير بخطه وانتقى أشياء وحصل الفوائد واشتهر ذكره في حياته وبعد مماته في التأريخ وغيره ، حتى صار يضرب به المثل وكان له محاسن شتى ، ومحاضرة جيدة إلى الغاية لا سيما في ذكر السلف من العلماء والملوك وغير ذلك، وكان منقطعا في داره ملازما للعبادة،والخلوة، قل أن يتردد إلى أحد إلا لضرورة، إلا أنه كان كثير التعصب على السادة الحنفية وغيرهم لميله إلى مذهب الظاهر.

وقرأت عليه كثيرا من مصنفاته، وأجاز لي جميع ما يجوز له، وعنه روايته من إجازة وتصنيف وغير ذلك، وسمعت عليه كتاب فضل الخيل للحافظ شرف الدين الدمياطى بكماله في عدة مجالس بقراءة الحافظ قطب الدين محمد الخصيري [٢] بسماعه من الحراوي بسماعه من المصنف، وأخذت عنه وانتفعت به، واستفدت منه.

---

(١) أبو المحاسن، بن تغري بردى مؤرخ مصر والنيل للأستاذ محمد عبدالله عنان ص ٢٢ .

(٢) هو محمد بن محمد بن عبدالله بن خيضر بن سليمان بن داود بن فلاح الدمشقي الشافعي قطب الدين أبو المير المتوفى سنة ٨٩٤ انظر الضوء اللامع ١١٧/٩ .

وكتب كتاب السلوك في معرفة دول في عدة مجلدات يشتمل على ذكر ما وقع من الحوادث إلى يوم وفاته، وذيلت عليه في حياته من سنة أربعين وثمانمائة وسميته حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، و لم ألتزم فيه ترتيبه [1].

وصنف كتبا نفيسة منها، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة والمنهل الصافي، والمستوفي بعد الوافي، والدليل الشافي على المنهل الصافي أكمل به الوافي للصفدي، ومورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة، ونزهة الرائي في التأريخ، وحوادث الدهور في مدى الأيام والشهور جعله ذيلا لكتاب السلوك للمقريزي والبحر الزاخر في علم الأوائل والأواخر وحلية الصفات في الأسماء و الصناعات توفي رحمه الله سنة ٨٧٤ هـ [2].

---

(١) المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي لابن تغري بردى ١/٤١٥-٤١٦ .

(٢) الأعلام للزركلي ٨/ ٢١٢ .

المبحث الثالث : مذهبه .

من خلال التتبع والاستقراء لمؤلفات المقريزي- رحمه الله- تلحظ فيه سلفي المعتقد، سني المشرب.

ومـــن أهـــم القضايا التي ينبغي الوقوف عندها التحقق من صحة الوجهة وسلامة الاعتقاد وقد أرجأت هذا البحث حتى أتممت كامل الرسالة للتأكد من عقيدة المقريزي لما دار حوله من شبهات .

فـــتجد بعـــض من ترجم له يقول :وهنا سؤال يبرز سؤال له وزنه في تلك القضـــية: هـــل. كان المقريزي بتأليف هذه الرسالة [1] منحازاً إلى مذهب معـــين، أو مـــتحرفا إلى فـــئة لها صبغة خاصة.. وبعبارة أوضح هل كان المقريـــزي شيعيا كما حاول بعض المؤرخين المعاصرين [2] له أن يثبت ذلك أم كـــان يصدر عن عاطفة عامة اشترك معه فيها كل مسلم يحب الرسول صلى الله عليه وسلم، وآل بيته دون أن يتمذهب بمذهب خاص ؟؟ .

لا شـــك أن هذا موضوع جدير بالبحث والمناقشة لا سيما وقد كثرت فيه الأقـــاويل اعـــتمادا على ما كتبه المقريزي مثل الكتاب الذي بين أيدينا[3] وكـــتاب الـــنـــزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم واتعاظ الحنفا بأخـــبار الفاطمـــيين الخلفا، ففي هذا الكتاب الأخير اجهد المقريزي نفسه لإثـــبات نســـب العبيديين إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، وناقش الذين يشككون في هذا النسب، وخلص فيه إلى أن نسب هذه الأسرة إلى فاطمة الزهـــراء صـــحيح، وأن مـــا قالـــه المعارضـــون لهذه الحقيقة ما هو إلا

---

(١) فضل آل البيت للمقريزي تحقيق محمد أحمد عاشور.

(٢) إشارة إلى السخاوي .

(٣) إشارة إلى كتاب فضل آل البيت على من عداهم للمقريزي تحقيق محمد أحمد عاشور

مقالة خصم يتلمس لعدوه مزالق التهم، ومواطن الشبه .

وقد دعم المقريزي رأيه هذا بدليلين :

أحدهما: أن المروجين لعدم صحة النسب كانوا من العباسيين. ثانيهما: أن الفاطميين قد مكن الله لهم في الأرض، واعترف بسلطانهم في مصر والشام والحجاز والمغرب، ولا يمكن أن يؤيد الله الأدعياء هذا التأييد، وكما أن تصديق الرسل والأنبياء مما أوجبه الله على نفسه نشرا للخير وإعلاء للواء الصلاح فإن خذلان الكذبه والأدعياء مما جرت به السنة الإلهية لهذا الهدف نفسه.

كان هذا الدفاع الحاد عن الفاطميين وصحة نسبهم مبررا قويا لمن رماه بمذهب التشيع من أمثال السخاوي وغيره [1] .

ويقول حسني شيخ عثمان في رده على كتاب أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ للدكتور إبراهيم شعوط والسؤال الذي يفرض نفسه هنا: لماذا يصدق مؤلف الأباطيل نفسه - إن كان يصدق نفسه عندما يرمى به ابن الاثير، والطبري وابن حجر والنسفى وأبا السعود والمشتغلين بالحديث جملة، والمفسرين ، والمؤرخين المسلمين، ثم يستبعد أن يكون المقريزي قد نزل إلى هذا الدرك.

والجواب واضح هو اتفاق صاحب الأباطيل بالتعصب للعبيدين (الذين يسمهم جهلة العوام بالفاطميين، على تعبير الإمام السيوطي في كتاب تاريخ الخلفاء) مع المقريزي المتهم بالعبيدية والتعصب لهم [2] .

---

(١) فضل آل البيت تحقيق محمد أحمد عاشور ص ١١،١٢ .

(٢) أباطيل الأباطيل حسني شيخ عثمان ١٢٨ .

ولهذا وقفت عن هذا المبحث حتى أتممت الرسالة فظهر لي ما يلي :

أولا: أن المقريزي كان سلفي المعتقد محبا لأهل السنة والجماعة مدافعا عن مذهبهم بشهادة معاصريه من كبار المحدثين: قال عنه ابن حجر: (وكان إماما بارعا مفننا ضابطا دينا خيرا، محبا لأهل السنة يميل إلى الحديث والعمل به) [(١)] .

قال عنه ابن تغري بردى : (الإمام العالم عمدة المؤرخين) [(٢)] .

وقال أيضا: العالم المحدث، المفنن، عمدة المؤرخين ورأس المحدثين[(٣)] وقال عنه السخاوي الذي يلمزه كثيرا وكانت تلك طريقته في أعيان معاصريه كما ذكره عنه الشوكاني في البدر الطالع .

قال السخاوي: واصفا إياه بحسن الخلق، وكرم العهد وكثرة التواضع وعلو الهمة لمن يقصده، والمحبة في المذاكرة، والمداومة على التهجد، والأوراد، وحسن الصلاة، وفريد الطمأنينة فيها، والملازمة لبيته [(٤)] .

ثانيا: كتابات المقريزي في عقيدة السلف وحبه لهم تنفي عنه تهمة التشيع ومن ذلك كتابه تجريد التوحيد المفيد الذي بين فيه عقيدة أهل السنة والجماعة في توحيد الألوهية وبيان الشرك وأنواعه وأقسامه ينبئك عن عقيدة صافية مستقاة من الكتاب والسنة.

---

(١) إنباء الغمر ٩/١٧٢ .

(٢) الدليل الشافي ١/٦٣ .

(٣) النجوم الزاهرة ١٥/ ٤٩٥ .

(٤) الضوء اللامع للسخاوي ٢/٢٤

وقــد أثـــنى العــلماء عـــلى المؤلــف فقـــال عنه العلامة صديق حسن القـــنوجي [١] " هـــذا آخر كلام المقريزي رحمه الله تعالى في كتابه (تجريد التوحـــيد المفـــيد) لله دره وعلى الله أجره، فما أبلغ هذا البيان، وما أشده هدايـــة إلى صـــراط الرحمن وسبيل الإيمان، وطريق الجنان، وما أجمعه لبيان الشـــرك وأنواعـــه وأقسامه وحقائقه وطرائقه ، ولعلك لا تجد مثله في هذا الـــباب وما أولاه- مع اختصاره في جامعيته بأن يكتب. بمداد ماء العيون الباكـــية على غربة الإسلام وأهله، على صفائح صدور المؤمنين بالله واليوم الآخر " [٢] .

قـــال العلامة عبدالتواب الملتاني (١٣٦٦ هــ): " وهو كتاب لا نظير له في بابـــه حذا فيه حذو طريقة شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم تقي الدين بن تيمية رحمه الله.. وعم به النفع) .

أثـــنى عليه العلامة محمد ناصر الدين الألباني كثيرا وذكر أنه درسه قبل ما يزيد على الأربعين عاما في دمشق [٣].

كذلـــك عقـــيدته في باب الأسماء والصفات كما سيأتي ذكره وعقيدته في القدر تدلك على أنه كان سني المذهب سلفي المعتقد.

ثالـــثا: بيانه للفرق الضالة وعقائدها وآرائها ومن تلك الفرق فرقة الشيعة التي بين فيها ضلالاتها وقبح أقوالها منكرا لها مكفرا للغلاة منها كما سيأتي .

---

(١) ســـيأتي كلامه وكلام من يرد ذكرهم هنا من العلماء في الفصل الثالث المبحث الثاني لكن لا بأس من ذكره هنا لأهمية النقل للرد.

(٢) الدين الخالص لصديق حسن القنوجي ٣٤٢/١ .

(٣) انظر هذه الأقوال مقدمة كتاب تجريد التوحيد المفيد تحقيق على العمراني ص ٢٣-٢٤ .

رابعـــا: قدحـــه في الفاطميين العبيديين ذاهم مبينا بعض مناهجهم موضحا عقيدهم.

ولديـــنا من النصوص والأدلة ما ينفي عن المقريزي صبغة التشيع، وما يثبت أنه صدر في حبه لآل بيت النبي صلى الله عليه وسلم عن عاطفة صادقة شأن كل مسلم متحوط لدينه، لأن حبهم نابع من حب الرسول لهم .

وأول هذه الأدلة أن المقريزي بعد أن قدم دفاعه عن صحة نسب الفاطميين لم يحاول أن يخفى شيئا من عيوبهم أو ستر ما ذاع من فضائحهم.. فقد ذكر في (اتعـــاظ الحـــنفا) على سبيل المثال لا الحصر أن الحاكم بأمر الله وزع منشورا في المساجد يسب فيه الشيخين أبا بكر وعمر، وعلق المقريزي على تلـــك الحادثة بقوله : (فيه فحش كثير، وقدح في حق الشيخين رضى الله عنهما) .

ثانـــيا: أن المقريـــزي خالف الشيعة فيما ذهبوا إليه من تخصيص آل البيت بـــأولاد علي وفاطمة فقال معلقا على الآراء التي قيلت في معنى قوله (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) : " والذي يظهـــر من الأدلة أنها عامة في جميع أهل البيت من الأزواج وغيرهم.. ولا اعتـــبار بقـــول الكلبي: (هم علي وفاطمة والحسن والحسين خاصة) فإنه توجد له أشياء من هذا التفسير ما لو كان في زمن السلف الصالح لمنعوه من ذلك وحجروا عليه".

ثالثها: أن المقريزي لم يوجه كلمة نقد واحدة لنجم الدين الطوفي حين علق على حصر الشيعة (معنى القربة) من قوله تعالى (قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى) في أولاد علي وفاطمة خاصة فقال، وعندها (استطال)

الشيعة وزعموا أن الصحابة رضي الله عنهم خالفوا هذا الأمر ونكثوا العهد بأذاهم أهل البيت بعد النبي صلى الله عليه وسلم [١].

ويقـول المقريـزي عن مذاهب الفاطميين في أول الشهور:" اعلم أن القوم كانوا شيعة ثم غلوا حتى عدوا من غلاة أهل الرفض [٢].

وانظر إليه مبينا طريقة الدعوة الإسماعيلية الباطنية قائلا:

ووظـيفة داعي الدعاة كانت من مفردات الدولة الفاطمية وقد لخصت من أمر الدعوة طرفا أحببت إيراده هنا [٣].

وذكر في تلك الدعوة طريقة دعاة الإسماعيلية وكيف يتدرجون في دعوتهم مـرحلة بعد مرحلة حتى يخرجوا بمن يدعونه من الدين بالكلية وينسلخ من الإنسانية لينحدر إلى الحياة البهيمية ولولا

الإطالة لأوردت كل ذلك لما فيه من بيان عقيدة دعاة الإسماعيلية فليتأمل في موضعه.

أمـا قضـية نسـب الفاطميين وكون المقريزي صححه فلا شك في خطأ المقريـزي في هـذا الجانب وهو بشر كغيره يخطئ ويصيب، لكن تصحيح نسبهم لم يمنعه من بيان عيوبهم ومثالبهم بل القدح في اعتقادهم كما تبين.

---

(١) فضل آل البيت للمقريزي تحقيق أحمد عاشور المقدمة ١٢،١١ .

(٢) المواعظ والاعتبار ١/٤٩٢ .

(٣) نفس المرجع ١/ ٣٩١ .

وقــد سبق المقريزي إلى تصحيح نسبهم ابن خلدون وابن الأثير. لكن يبقى أن المقريــزي كان سلفي العقيدة صافي المشرب والوجهة محبا لأهل السنة ناشرا فضائلهم محباً لسيرتهم ولا أدل على ذلك من ترجمته لهم في كتبه ونقله آثارهم والتألم والتوجع لمصابهم كما سيرد في نقل مرثيات شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عند ترجمته له.

وكذلــك تــرجم للشافعي والإمام أحمد بن حنبل وإن كانت ترجمة الإمام أحمد ساقطة من تراجمه في كتابه المقفى.

إلا أنــه كان يذكر طريقته بخير ويحمد صنيعه كما سيأتي في مبحث الأسماء والصفات.

الفصل الثالث : مؤلفاته وجهوده العلمية

المبحث الأول مؤلفاته العلمية .

المبحث الثاني : جهوده في العقيدة .

المبحث الثالث : جهوده في لتاريخ .

المبحث الرابع : جهوده في الفقه والحديث والأدب .

المبحث الأول: مؤلفاته العلمية

لقد كان المقريزي رحمه الله ذا باع طويل في التأليف وقد ساعده على ذلك اطلاعه الواسع الذي كان سببا مباشرا لكثرة تأليفه وكذلك انقطاعه وتفرغه الـــذي كان سببا كبيراً في جودته مما جعله ينتج إنتاجاً ضخماً في كثير من المجالات وهنالك سبب آخر لعله يكون من الأمور التي أدت إلى كثرة إنتاج المقريزي وهو ما كان من تعاقب الملوك في عصره فلقد شهد في حياته كثيراً من ملوك الدولة المملوكية وبذلك كان له أكبر الأثر في إنتاجه الفكري.

وهـــنالك سبب آخر يعد من الأسباب القوية في هذا الجانب وهو ما كان علـــيه من ملازمة لأساتذته وعلمائه الذين بلغ تعدادهم وإحصاءه لهم قرابة ستمائة شيخ [1] .

وقد تلقى المقريزي رحمه الله وأخذ عن مشائخه كثيراً من الفنون والعلوم في شـــتى المجالات مما كان له أكبر الأثر على عطائه وإنتاجه الزاخر الذي خلفه من بعده رحمه الله .

وكذلك فقد اتصل المقريزي رحمه الله ببعض الأمراء كشيخ الصفوي المتوفى ٨٠١ هـــــ وأحمد بن كند غدى المتوفى سنة ٨٠٧ هـــ ويشبك الشعباني المتوفى سنة ٨٥١ هـــ وقد تمكن المقريزي من منادمة الظاهر برقوق المتوفى سنة ٨١٠ هـــ وابنه الناصر فرج المتوفى سنة ٨١٥ هـــ [1][2] .

وكان لهذا الاتصال بالأمراء أثر طيب في انتشار مؤلفات المقريزي في زمانه رحمه الله تعالى.

ولقـــد تـــرك المقريزي رحمه الله مؤلفات عديدة في مجال التاريخ والأنساب والعقـــائد والفقـــه والأدب والعلوم البحتة ندت على نحو مائتي مجلدة كبار ولكـــن لم يبق من هذه المؤلفات أو من عنواناتها سوى النـــزر القليل المبعثر

---

(١) الضوء اللامع للسخاوي ٢٣/٢ .

(٢) مقدمة درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة للمقريزي ٢٨/١ تحقيق د. محمد كمال الدين .

في مكتبات العالم أو المثبت عنوانها لدى من ترجم له، أو اعتنى بالفهرسة العامة للمؤلفات العربية [1] ومؤلفات المقريزي نوعان:

ا- كتب أو كتيبات صغيره.

٢- كتب موسوعية كبيرة .

وكتبه الصغيرة ذات أهمية خاصة وهى لا تقتصر على التاريخ بل تمثل أنواعا مختلفة من العلوم ويمكننا أن نصنفها إلى أصناف أربعة. أ- صنف عني فيه المقريزي بمناقشة بعض مشكلات أو نواحي التاريخ الإسلامي العام ومنها:

- كتاب (النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم).

- وكتاب (ذكر ما ورد في بنيان الكعبة المعظمة).

- وكتاب (ضوء الساري في معرفة خبر أخبار تميم الداري).

ب- وصنف عني فيه المقريزي بذكر عرض موجز لتاريخ بعض أطراف العالم الإسلامي مما لم يعن به مؤرخون آخرون، ومنها: - - كتاب (الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام).

-وكتاب (الطرفة الغريبة من أخبار حضر موت العجيبة) .

وقد ألف هذين الكتابين أثناء مجاورته في مكة سنة ٨٣٩ هـ وسنة ٨٤١ هـ

ج- وصنف عني فيه المقريزي بالترجمة المختصرة لمجموعة من الملوك ومنه:

- كتاب (تراجم ملوك العرب).

- وكتاب (الذهب المسبوك بذكر من حج من الخلفاء والملوك) .

د- وصنف عني فيه المقريزي بدراسة بعض النواحي العلمية البحتة أو بالتاريخ لبعض النواحي الاجتماعية والاقتصادية في العالم الإسلامي عامة ويمثل هذا الصنف كتب كثيرة منها:

- كتاب المقاصد السنية لمعرفة الأجسام المعدنية).

---

(١) درر العقود الفريدة ١/٣٤ .

- وكتاب (شذور العقود في ذكر النقود).
- وكتاب (الأكيال والأوزان الشرعية).
- وكتاب (نحل عبر النحل).
- وكتاب (البيان والإعراب فيمن نزل أرض مصر من الأعراب)
- وكتاب (إغاثة الأمة بكشف الغمة).
- وكتاب (إزالة التعب والعناء في معرفة حل الغناء) [1] .

وهناك ظاهرتان تلفتان النظر عند دراسة مؤلفات المقريزي الصغيرة:

أولاهما :

أن المقريزي كان عالما بكل ما تحمله كلمة عالم من معنى ، يحب المعرفة لذاها، ويجد المتعة في البحث والدراسة والاستقصاء، فهو ينص في مقدمات معظم هذه المؤلفات الصغرى على أنه لم يقدم على كتابتها استجابة لطلب أمير أو عظيم، وإنما ألفها إشباعا لذاته المتطلعة إلى الاستزادة من العلم والمعرفة، ولمن يريد أن يشاركه هذا النزوع نحو العلم والمعرفة أو على حد قوله في مقدمة رسالته (المقاصد السنية لمعرفة الأجسام المعدنية):

" وبعد، فهذه مقالة وجيزة في ذكر المعادن، قيدها تذكرة لي ولمن شاء الله تعالى من عباده " .

وكرر نفس المعنى في مقدمته لكتاب (البيان والإعراب فيمن نزل أرض مصر من الأعراب) فقال:

"وبعد فهذه مقالة وجيزة في ذكر من بأرض مصر من طوائف الأعراب قيدها لنفسي ولمن شاء الله من أبناء جنسي).

---

(١) المقريزي اتعاظ الحنفا تحقيق د . جمال الدين الشيال ١/١٣-١٤.

وثانيهما:

أن المقريـــزي ألف معظم الكتيبات الصغيرة في أخريات حياته وبعد أن تم نضجه الفكري، واتسعت قراءاته، وعمقت معرفته، وبصفة خاصة في سنة ٨٣٩ هـــــ أثـــناء مجاورته في مكة، أو في سنة ٨٤١ هـــ بعد عودته إلى مصر، والأمثلة على ذلك كثيرة فهو يقول في سرد كتابه (الطرفة الغريبة من أخبار حضرموت العجيبة).

(وبعـــد، فهذه جملة من أخبار حضر موت، علقتها بمكة- شرفها الله تعالى أيـــام مجاورتي بها في عام ٨٣٩ هـــ حدثني بها ثقات من قدم مكة من أهل حضرموت) .

ويقول في مقدمة كتابه (الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام) (وبعـــد، فهذه جملة من أخبار الطائفة القائمة بالملة الإسلامية ببلاد الحبشة، المجاهدين في سبيل الله من كفر وصد عن سبيله، تلقيتها . بمكة- شرفها الله تعالى- أيام مجاورتي بها في سنة ٨٣٩ هـــ من العارفين بأخبارهم) .

ويـــبدو أنـــه جمـــع مادة هذا الكتيب في تلك السنة، ولكن لم ينسق بينها ويخرجها في شكل رسالة إلا في سنة ٨٤١ هـــ فقد قال في نهاية الرسالة " حـــرره جامعـــه ومؤلفـــه أحمـــد بـــن عـــلى المقريزي في ذي القعدة سنة ٨٤١ هـــ " .

ومن الكتب التي ألفها في سنة ٨٤١ هـــ كتاب (تجريد التوحيد المفيد) فقد جاء في حرد مخطوطة باريس من هذا الكتاب:

" قـــال مؤلفـــه- رحمـــه الله إنـــه صـــححه جهـــد الطاقة ومبلغ القدرة في ســـنة ٨٤١ هـــــ ومنها كذلك كتابه (المقاصد السنية لمعرفة الأجسام المعدنية) فقد قال في ختامه: (وحررته في شوال سنة ٨٤١ هـــ).

ومنها كتابه " نبذة على عظم قدر أهل البيت " فقد نص في نهايته على أنه ألفه في ذي القعدة سنة ٨٤١هـــ .

ومنها كتابه (الذهب المسبوك بذكر من حج من الخلفاء والملوك) فقد قال ناسخ مخطوطة الاسكوريال من هذا الكتاب:

(كتـــب من أصل بخط مصنفه، قال مؤلفه- رحمه الله- حررته جهد القدرة فصح مؤلفه أحمد بن على المقريزي، في ذي القعدة
سنة ١ ٨٤ هـــ إ.

وكتب الصنف الرابع التي ذكرنا آنفا تعتبر- فيما نرى- أهم كتب المقريزي الصغرى وأكثرها قيمة، وأظرفها موضوعا، لأنه عالج فيها موضوعات قلما عالجهـــا غـــيره من المؤرخين المسلمين، وبعد فيها قليلا عن تاريخ الخلفاء والملوك والسلاطين والأمراء، وعني فيها حينا بالموضوعات العلمية البحتة. وحيـــنا آخر بالشعب ومشكلاته الاجتماعية والاقتصادية، ويلاحظ كذلك أن المقريزي في هذا الصنف من الكتب لم يكن مؤرخا راوية وحسب، بل هـــو المـــؤرخ والمبدع أيضا، جرؤ فناقش- أحيانا الأحداث والموضوعات وأدلى بآرائـــه الخاصـــة، وعلل الأسباب واقترح العلاج ومعلوماته في هذه الكتيـــبات وثيقة أكيدة تدل على قراءة واسعة ومعرفة متثبتة وفكر واضح منظم، ومنهج علمي سليم.

وساعده على ذلك أمور كثيرة منها:

١- أنـــه كان يملك مكتبة كبيرة ضخمة تضم العديد من الكتب في مختلف أنواع العلم والمعرفة المتداولة في عصره، والدليل واضح في الكثرة الكثيرة من المراجع في مختلف العلوم التي أشار إليها في مؤلفاته.

٢- انه ولي وظائف كثيرة مختلفة مكنته من التصرف على دولاب الحكومة وكـــيف يـــدار ، وعلى مختلف النظم الإدارية والمالية وعلى أحوال الشعب الاجتماعية والاقتصادية، فقد بدأ حياته الوظيفية موقعا- أي كاتبا- بديوان الإنشاء بالقاهرة، ثم كان مدرسا وقاضيا وناظرا للأوقاف ثم ولي الحسبة غير مرة، و لم يكن للمحتسب- فيما نعلم- من عمل غير الإشراف على شؤون الشعب الاجتماعية والاقتصادية.

٣- اشتغاله بعلم الحديث والتاريخ ، وهما علمان يعتمدان أصلا على الجرح والـــتعديل والنقد والتحليل، والتثبت من صحة كل قول أو رواية أو حقيقة علمية.

أما مؤلفات المقريزي الكبيرة فيمكن تصنيفها كذلك إلى أنواع: - فمنها ما عني فيه بتاريخ العالم ككتاب (الخبر عن البشر).

- ومنها ما عني فيه بالتاريخ الإسلامي العام. ككتاب (إمتاع الأسماع بما للرسول من والأحوال والحفدة و المتاع)، وكتاب (الدرر المضيئة في تاريخ الدول الإسلامية).

- وأكثرها ما عني فيه بتاريخ مصر الإسلامية، فقد وضع لنفسه خطة واضحة تهدف للتأريخ لمصر في العصر الإسلامي من جميع نواحيها: العمرانية والسياسية والبشرية.

ففي تاريخها العمراني وضع موسوعته الكبيرة (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) وقد قدم المقريزي لكتابه هذا تقدمة ممتازة رائعة، لم يشبهه أو يدانيه فيها مؤرخ آخر من المؤرخين الإسلاميين المعاصرين أو السابقين فهي تدل على أصالة في الرأي، وتجديد في الفكرة وتحديد للغرض الذي يهدف إليه من تأليف الكتاب، وشعور مبكر بالوطنية المصرية وإحساس منه عميق بحبه لوطنه مصر.

فهو لم يؤلف كتابه هذا كما كان يفعل المؤلفون الآخرون ليخدم به خزانة ملك من الملوك، أو ليجعله قربى يتقرب بها إلى أمير من الأمراء أو ثري من الأثرياء، وإنما هو قد ألفه ليشبع عاطفته الوطنية (١).

---

(١) هذا الشعور نابع من المحقق د ا جمال الدين الشيال ولعل فيه نوع مبالغة. مما أوحى إليه في كلامه عن المقريزي بقضية الوطنية فهي عبارات لم تعرف وتأخذ شعاراتها إلا في العصر الحاضر وان كنا لا نقول بأن المقريزي كان معزولا عن بلاده ومشاركته لأحداثها بل لقد كان محبا لبلاده مشيرا إلى مآثرها مبينا ذلك بأسلوب رائع في كتابه (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار).

فهو يقول في مقدمته:

(... وكانت مصر هي مسقط رأسى، وملعب أترابي ومجمع ناسي ومغنى عشيرتي وحاميتي، وموطن خاصتي وعامتي وجؤجؤي الذي ربى جناحي في وكره، وعش مأربي، فلا تهوى الأنفس غير ذكره ولا زلت مذ شذوت العلم وآتاني ربي الفطنة والفهم أرغب في معرفة أخبارها، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها، فقيدت بخطى في الأعوام الكثيرة، وجمعت في ذلك فوائد قل ما يجمعها كتاب أو يحويها لعزتها وغرابتها إهاب، إلا أنها ليست. مرتبة على مثال ولا مهذبة بطريقة ما نسخ على منوال، فأردت أن ألخص منها أنباء ما بديار مصر من الآثار الباقية، عن الأمم الماضية والقرون الخالية...

وقد بقي أخيرا الصنف الثالث من مؤلفات المقريزي التاريخية الكبرى عن مصر الإسلامية وهو الخاص بالتاريخ البشري وقد ألف المقريزي في هذا النوع كتابين كبيرين أفردهما للترجمة لرجال مصر (١) الأول هو (كتاب المقفى الكبير في تراجم أهل مصر والوافدين عليها).

وهو كما يتضح من عنوانه مخصص للترجمة للبارزين من أبناء مصر أو ممن وفدوا عليها أو أقاموا بها خلال العصر الإسلامي، وكان يقدر له أن يخرج في ثمانين مجلدا، ولكنه لم ينجز منه إلا ستة عشر مجلدا، وتوفي قبل أن يتمه، ومع هذا لم تصلنا كل الأجزاء التي أتمها وإنما وصلنا بعضها وضاع البعض الآخر.

---

(١) أيضا في هذا مبالغة من المؤلف فقد ترجم في كتابه المقفى الذي أشار إليه المحقق د. الشيال بأنه ترجمه لرجال مصر وحصر ذلك عليهم ولقد ترجم فيه المؤلف لكل من دخل إلى مصر سواء كان من أهلها أو كان ماراً بها أو جاء قاصدا لها و لم يحصر! فيه الحديث عن أهل مصر فحسب ولكن حب الشيال لمصر وأهل مصر حدا به إلى قصر المقريزي على التراجم لمن قطن مصر فقط .

٢- والثاني هو (درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة) وقد خصصه لتراجم الأعلام البارزين من معاصريه.

ولهــذه الكتب الكبيرة جميعها أهمية خاصة، لأن المقريزي انفرد فيها بإيراد كــثير مــن الوثــائق والحقائق التاريخية التي لا نجد لها ذكرا عند غيره من المؤرخــين، ولأنه نقل فيها كذلك عن كتب كثيرة أخرى فقدت و لم تصل إليــنا نسخ منها، أو عن كتب أخرى ما زالت مخطوطة وهو إلى هذا كله مؤرخ ثقة ثبت يمتاز بالدقة فيما يروي والعناية بما يكتب [1] .

---

(١) مقدمة كتاب اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا للمقريزي تحقيق د. جمال الشيال ١/١٣-٢٢

ولقــد ترك المقريزي رحمه الله مؤلفات عديدة في جمال التاريخ والأنساب والعقائد، والفقه والأدب، والعلوم البحتة ندت على نحو مائتي مجلدة كبار، لكن لم يبق من هذه المؤلفات أو من عنواناتها سوى النــزر اليسير المبعثر في مكتــبات العــالم، أو المثبــت عــنواناته لــدى مــن ترجم له أو اعتنى بالفهرسة العامة للمؤلفات العربية يمكن إجماله على النحو التالي:

١- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء [(١)] .

٢- الإخبار عن الإعذار.

٣- إزالة التعب والعناء في معرفة الحال في الغناء.

٤- الإشارة والإيماء إلى حل لغز الماء.

٥- الإشارة والإعلام ببناء الكعبة البيت الحرام.

٦- إغاثة الأمة بكشف الغمة.

٧- الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام.

٨- إمــتاع الإسمــاع بمــا للرســول مــن الأبــناء والأخوال والحفدة و المتاع.

٩- الأوزان والأكيال الشرعية.

١٠- البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب.

١١- التاريخ الكبير المقفى.

١٢- ا لتذكر ة.

١٣- تراجم ملوك الغرب.

١٤- تلقيح العقول والآراء في تتبع أخبار الجلة الوزراء.

١٥- حصول الإنعام والمير في سؤال خاتمة الخير.

١٦- الخبر عن البشر.

١٧- خلاصة التبر في كتابة السر.

---

(١) مقدمــة كــتاب درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة للمقريزي تحقيق د ا كمال الدين ١/ ٣٤ وقد أشار السخاوي في كتابه الضوء اللامع ٢/ ٣٤ بأن اسم الكتاب إيقاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا .

١٨- درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة.

١٩- الدرر المضيئة في تاريخ الدولة الإسلامية.

٢٠- ذكر ما ورد في بنيان الكعبة المعظمة.

٢١- الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك.

٢٢- السلوك لمعرفة دول الملوك.

٢٣- شارع النجاة.

٢٤- شذور العقود في ذكر النقود.

٢٥- ضوء الساري في معرفة خبر تميم الداري.

٢٦- الطرفة الغريبة من أخبار وادي حضر موت العجيبة.

٢٧- عقد جواهر الأسفاط في أخبار مدينة الفسطاط.

٢٨- قرض سيرة المؤيد لابن ناهض.

٢٩- ما شاهده وما سمعه مما لم ينقل في كتاب .

٣٠- مجمع الفوائد ومنبع الفوائد.

٣١- مختصر الكامل في الضعفاء لابن عدي .

٣٢- تجريد التوحيد المفيد.

٣٣- معرفة ما يجب لآل البيت النبوي من الحق على من عداهم .

٣٤- المقاصد السنية لمعرفة الأجسام المعدنية.

٣٥- منتخب التذكرة.

٣٦- المنتقى من أخبار مصر لابن ميسر.

٣٧- مقالة لطيفة وتحفة سنية منيفة في حرص النفوس على الذكر

٣٨- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار.

٣٩- نبذ تاريخية.

٤٠- نحل عبر النحل.

٤١- النـــزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم [1].

كما أشار المقريزي من خلال ترجمته لابن عرب شاه إلى أنه اختصر كتابه (عجائب المقدور في نوائب تيمور).

وهكـــذا نـــرى أن المقريـــزي رحمه الله كان بحرا زاخرا وعلما من أعلام الإســـلام العمالقة الذين كان لهم باع طويل في التأليف، فلم يقتصر تأليفه عـــلى علم معين بل شرع في كثير من الفنون وأجاد فيها وقدم خيرا كثيرا وعـــلما جما وخلف وراءه ثروة عظيمة تصلح للبحث والاستقراء في فنون متعددة.

وهـــو مع ذلك لا يسلم من زلة قدم أو عثرة لسان أو هفوة قلم فهو بشر يخطئ ويصيب.

وفضـــلا عـــن ذلـــك فقـــد أوجـــد المقريـــزي مجـــالا للكتابة التأريخية في موضـــوعات ما كان يظن بها أنها مما يصلح للتأريخ ، كالماء والنحل ، والأوزان، و المكايـــيل، والنقود، والحج، والبناء (ا لزواج) والختان، والختم بخير، وثناء وذكر...

ممـــا أنشأ مؤرخنا فيه العديد من المؤلفات التاريخية، مبرزا من خلالها الكثير مـــن المناحي الاجتماعية والاقتصادية والثقافية. مما يشير إلى أنه كان مؤرخا مبتكرا، واسع الأفق، غير تقليدي، متعدد الاطلاعات متنوع المعارف [٢].

---

(١) درر العقـــود الفـــريدة تحقيق دكتور كمال الدين ١/٣٥-٣٦ وانظر أيضا الضوء اللامع لأهل القرن التاسع لشمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوي ٢/ ٢٢- ٢٣ .

(٢) درر العقود الفريدة ١/٣٧ .

المبحث الثاني : جهوده في العقيدة

لقد اسهم المقريزي إسهاما مباركا في مجال العقيدة وإن كان مجال المقريزي الـــذي ألف فيه وبرز فيه هو التأريخ إلا أنه بحث في فنون عديدة ومسائل كـــثيرة ومن هذه الفنون وتلك العلوم، مجال العقيدة وابرز جهد له في هذا الجانب هو كتابه الجليل المسمى (تجريد التوحيد المفيد) وهو كتاب ألفه في توحيد الألوهية استقلالا (وهذا الكتاب يعد أول مؤلف مفيد فيه) [1].

وهـــو كـــتاب في جملـــته خاص بتوحيد الألوهية تأصيلا وتفريعا ودحضا لشبهات الغالين ونحوهم.

وإن كان تطرق إلى موضوعات أخرى من أهمها:

- قشر التوحيد، ولبابه .
- توحيد الربوبية .
- الشرك في الأمم نوعان .
- بعض أنواع الشرك .
- بعض خصائص الألوهية
- أقسام الناس في عبادة الله واستعانته
- أقسام الناس في الحكمة من العبادة
- قواعد العبادة.

وقـــد أثنى العلماء على هذا الكتاب ثناء عاطرا مما يدل على أهميته ومكانته العلمية، واستفادة الناس منه.

قـــال العلامة صديق القنوجي في كتابه الدين الخالص ٣٤٢/١ : "هذا آخر كلام المقريزي رحمه الله تعالى في كتابه تجريد التوحيد المفيد ولله دره وعلى الله أجـــره، فما أبلغ هذا البيان، وما أشده إلى هداية صراط الرحمن وسبيل الإيمان ، وطريق الجنان .

---

(١) انظر مقدمة تجريد التوحيد تحقيق علي العمراني ص ٦ .

ومـــا أجمعه لبيان الشرك، وأنواعه، وأقسامه، وحقائقه وطرائقه. ولعلك لا تجد مثله في هذا الباب وما أولاه- مع اختصاره
في جامعيـــته بأن يكتب بمداد ماء العيون الباكية على غربة الإسلام وأهله، على صفائح صدور المؤمنين بالله واليوم الآخر" .

٢- ونســـخ الشيخ العلامة سعد بن حمد بن عتيق للكتاب يدل على قيمته العلمية وكان قد نسخه سنة ١٣٠١ هـــ أي وعمره اثنان وعشرون عاما، لأن مولـــده كان سنة ١٢٧٩ هـــ فلا يبعد أن يكون نسخه له بإشارة من أبيه العلامة حمد بن عتيق عليه رحمة الله

٣- قـــال العلامة عبدالتواب الملتاني وهو كتاب لا نظير له في بابه حذا فيه حذو طريقة شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم تقي الدين
بن تيمية رحمه الله... وعم به النفع.

٤- أثنى عليه الشيخ محمد منير الدمشقي انظر: (نموذج من الأعمال الخيرية ص ٢٨٨) .

٥- أثـــنى علـــيه العلامـــة الألباني كثيرا وذكر أنه درسه قبل ما يزيد على الأربعين عاما في دمشق والشام .

٦- قـــال العلامـــة حمـــد الجاسر عنه (رسالة تدل على تحقيق ومعرفة لهذا العلم).

٧- ذكـــر العلامة بكر أبو زيد أنه أول كتاب مفرد في توحيد العبادة فيما نعلم [(١)].

وبعد ثناء هؤلاء العلماء الأفذاذ على هذا الكتاب يتضح ما له من فائدة عظمى في هذا الباب.

---

(١) انظر تجريد التوحيد المفيد تحقيق على العمراني ص ٢٣ .

وكذلك ما ألفه في موضوعات مختلفة ككتابه (نحل عبر النحل) الـــذي بين فيه أنواع النحل وأسمائها وبيوتها وكيف تطير زرافات ووحدانا يتضـــح من خلاله أيضا مسلك من مسالك توحيد الربوبية الذي يدل على عظمـــة الله في خلقه لهذا المخلوق الذي أودع فيه آيات باهرات ومعجزات عظيمات .

وما نثره من موضوعات لها صلة بمسائل الاعتقاد لا سيما في كتابه " الخطط والآثـــار " فقـــد أشار إلى مسائل في باب الأسماء و الصفات وذكر بعض المخالفـــات الشرعية وذكر الكثير من لفرق وطرائقها وما آل إليه أمرها ، وغيرها من القضايا التي لها صلة بالقضايا العقدية وأسهم بكتاب جم الفائدة عظيم القدر أسماه " شارع النجاة " [1] .

وبالجملـــة فإن المقريزي أسهم إسهاماً مباركاً في مجال العقيدة بما قدمه من بـــيان للتوحـــيد من دراسة واضحة المعالم تدل على صفاء الاعتقاد ونقاء المشرب .

---

(١) وهـــذا الكتاب أحال فيه على كثير من مسائل الاعتقاد والفقه والخلاف إلا أنه و للأسف الشديد من ضمن مـــا فقد من الكتب التي فقدت من مكتبة المقريزي ، انظر كتاب التبر المسبوك في من حج من الملوك ، تحقيق حمد الجاسر . المقدمة ص ٢ .

المبحث الثالث : جهوده في التاريخ

إذا ذكـر الـتأريخ ذكـر المقريـزي فهو أستاذه القدير ومؤلفه النحرير ذو القلم السيال والقريحة المتفتقة الخيال.

ألم بجوانب التأريخ قديمه وحديثه [1].

ويُعـد من أول الرواد الذين أرخوا لمصر تأريخاً متكاملاً في جميع الجوانب الاجتماعـية والاقتصـادية والسياسـية، وكانت العلوم في عصره في قمة الازدهار.

وقد يعجب الباحث كيف كان ذلك الازدهار في العلوم العربية من عقيدة وشريعة وتأريخ وأدب وغيرها.

ولسان الدولة أعجمياً برؤسائها وأمرائها وقادة جيوشها.؟

إلا أن لسـان عـلمائها ومثقفـيها كـان عـربي المشـرب بالإضـافة إلى بعـض الدواوين كديوان الإنشاء الذي كان يقوم بمهام كثيرة ربما كان أشبه بالمهام التي تقوم بها وزارة الخارجية اليوم، فكانت تكتب فيه وتسجل الوثـائق الرعـية، أو المراسـلات الـتي ترسـل إلى الحكـام أو إلى الملـوك أو إلى الأمراء في البلاد المجاورة وكذلك كان القضاء يجري آنذاك باللغة العربية [2].

والعلماء من خلال كتاباتهم ومناظراتهم، كان لها أكبر دور في إثراء الساحة الفكرية والأدبية.

أما في ما يتعلق بجهود المقريزي في التأريخ فقد ألف رحمه الله معظم كتبه في الـتأريخ سـواء مـا كـان مـنها يتعلق بتأريخ مصر خاصة مثل كتابه

---

(١) المقصود به ما كان في عصره.

(٢) المؤرخ المصري جمال الدين أبو المحاسن د. أحمد عزت عبدالكريم ص ١٤ .

المواعـــظ والاعتـــبار في ذكر الخطط والآثار الذي أرخ فيه المقريزي لمصر خلال الفترة الممتدة من سنة عشرين للهجرة النبوية إلى سنة ست وسبعمائة مبينا فيه ما للنيل من أثر عظيم في حياة مصر متعرضاً لمناخ مصر وطقسها، مؤرخـــاً للكيفية التي تم فيها بناء مصر. منتقلاً إلى الخلجان والقناطر والبرك والجســـور ثم الملـــوك الذيـــن تعاقبوا عليها مترجماً لبعضهم وغير ذلك من المسائل الشيقة، وهو مع ذلك يجول بك في جنبات كتابه أشبه ما تكون في جولـــة ترى من خلالها معا لم مصر ودورها ومساجدها ومدارسها وحياة أهلها في عصره.

وكذلـــك كتاب عقد جواهر الأسفاط من أخبار مدينة الفسطاط، وكتاب اتعاظ الحنفا بأخبار أئمة الخلفاء [1].

أو فيما يتعلق بالبلاد الأخرى مثل كتاب الإلمام في أخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام [2].

وهـــو كـــتاب جم الفائدة في بيان من قام بالملة الإسلامية في أرض الحبشة وبيان جهادهم وانتصاراتهم وانتشار الإسلام هناك.

وهنالك كتب أرخ فيها المقريزي لملوك مصر وما حدث فيها من أمور أثناء حكمهـــم لها ناقداً بعض القضايا والسلوكيات التي تمر به مبينا حسنها من قـــبحها أحـــياناً في ثـــنايا الكـــتاب وهـــو كـــتاب السلوك لمعرفة دول الملوك [3].

---

(١) المؤرخ المصري جمال الدين أبو المحاسن د/ أحمد عزت عبدالكريم ص ١٤

(٢) اطلعت على طبعة منه مصورة قديمة.

(٣) وهو كتاب ضخم مطبوع بتحقيق د/ محمد مصطفى زيادة في اثني عشر مجلداً .

وألف أيضا كتبا في تراجم الرجال الذين دخلوا مصر أو قطنوها مثل كتابه المقفى الكبير [١] ويسمى أحياناً تاريخ المقريزي وسماه السخاوي تاريخ مصر [٢] وهو كتاب في التراجم والوفيات أي تراجم أعيان ولدوا بمصر ونشأوا بها أو طرأوا عليها فتعلموا بها أو اتخذوها مقراً دائماً وقد تفوق نسبة الطارئين والزائرين المارين نسبة الأصليين المقيمين، والكتاب مات مؤلفه وهو لم يكتمل وذكر السخاوي أن الكتاب بلغ ستة عشر مجلداً ، وأن المقريزي كان يقول " لو اكتمل المقفى على ما أروم لجاوز الثمانين مجلداً " قال عنه ابن تغري بردى وله تاريخه الكبير المقفى في تراجم أهل مصر والواردين إليها ذكر لي رحمه الله تعالى: " لو كمل هذا التأريخ على ما اختاره لجاوز ثمانين مجلداً " .

ومن كتبه التي ترجم فيها أيضاً للرجال الذين دخلوا مصر كتابه الإعراب عما بأرض مصر من الأعراب [٣].

وكذلك كتابه درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة [٤] الذي ترجم فيه المقريزي لكل من عاصره من العلماء والأمراء الذين أنس بهم فقال: " ثم إني رأيت بعد ذلك أن جمع أخبار من أدركته سواء غاب عني أو رأيته من أهل مصر كان أو غيرها من البلدان، فأقيد أخبار الملوك والأمراء وأعيان الكتاب والوزراء، وأذكر رواة الحديث والفقهاء، وحملة سائر العلوم والشعراء، ومن له ذكر شهير أو قدر نبيه خطير، إما من رجال الدنيا أو طلاب الأخرى من ابتداء سنة ستين وسبعمائة [٥].

---

(١) طبع منه ثمانية مجلدات ضخمة تحقيق محمد اليعلاوي.

(٢) مقدمة كتاب المقفى تحقيق محمد اليعلاوي ص ٦

(٣) وهو كتاب مطبوع تحقيق د/ عبدالمجيد عابدين.

(٤) مطبوع في مجلدين تحقيق د/ محمد كمال الدين علي .

(٥) درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة ١/٩٢

ومن كتبه التي ألفها في مجال التأريخ كتاب إمتاع الأسماع في ما للنبي صلى الله عليه وسلم من الحفدة والمتاع في ست مجلدات رأيته وطالعته وهو كتاب نفـيس وحـدث به في مكة قال لي مؤلفه رحمه الله: " سألت الله تعالى أن أكتـب منه هذا الكتاب نسخة وأن أحدث به فوقع ذلك في مجاورتي ولله الحمد " (١) .

وهـنالك كتـب صغيرة عني فيها المقريزي ببعض القضايا الاجتماعية أو الاقتصادية مثل كتب التنازع والتخاصم في ما بين بني أمية وبني هاشم وهو مطـبوع تحقـيق د/ حسـين مؤنـس وقـد عـرض فـيه مؤلفـه إلى أسـباب الـنزاع بـين بـني أمـية وبني هاشم منذ عصر الجاهلية إلى عصـر الإسـلام وفـيه نوع من التجني على بني أمية وقدح في حقهم ومنـزلـتهم، وهو كتاب معقود في من هو الأحق بالخلافة بنو أمية أم بنو هاشم فيقول فيه:

بعد حمد الله والثناء عليه أما بعد: فإني كثيراً أتعجب من تطاول بني أمية إلى الخلافـة من بعدهم من خدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقرب بني هاشـم وأقول كيف حدثتهم نفسهم بذلك، وأين بنو أمية وبنو مروان بن الحكـم طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولعينه من هذا الحديث ، مع تحكم العداوة بين بني أمية وبني هاشم في أيام جاهليتها (٢).

ويسوق في هذا الكتاب كثيراً من مثالب بني أمية حتى أنه يشكك في إسلام أبي سفيان رضى الله عنه فقال:

واختلف في حسن إسلامه فقيل إنه شهد حنيناً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت الأزلام معه يستقسم بها وكان كهفاً للمنافقين وأنه كان في الجاهلية زنديقاً وفي خبر عبدالله بن الزبير أنه رآه يوم اليرموك قال فكانت

---

(١) المنهل الصافي لابن تغري بردى ٤١٨/١ وقد طبع منه المجلد الأول فقط تحقيق محمود شاكر.

(٢) النـزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبنئ هاشم المقريزي ص ٢٥ .

الروم إذا ظهرت قال أبو سفيان إيه بني الأصفر فإن كشفهم المسلمون قال أبو سفيان:

وبنو الأصفر الملوك ملوك الروم لم يبق منهم مذكور [1] .

قلـــت وفي هذا إجحاف بحق أبي سفيان رضى الله عنه وتجن عليه من غير دليل يستند عليه وإنما هو التعصب لآل البيت أحياناً يعمى ويصم.

هذه نماذج من تأليفه ني التأريخ ويكفي فيه قول تلميذه ابن تغري بردى: " وكان كثير الكتابة والتصنيف " [2].

ولقـــد كـــان إماماً مفننا كتب الكثير بخطه وانتقى أشياء، وحصل الفوائد واشـــتهر ذكره في حياته وبعد مماته في التأريخ وغيره حتى صار به يضرب المثل [3].

---

(١) نفس المرجع ص ٥٤ .

(٢) المنهل الصافي ١/٤١٨ .

(٣) نفس المرجع ١/٤١٧ .

المبحث الرابع : جهوده في الفقه والحديث والأدب

- جهوده في الفقه :

أمـا جهـوده في الفقـه فقـد كـان مقلاً في ذلك و لم يذكر له تأليف في هذا الفن غير أنه في كتابه (ضوء الساري في معرفة خبر تميم الداري)[1] الـذي وهـبه الرسول صلى الله عليه وسلم قريتي حبرون وعينون تكلم في جـواز هـبة الرسول صلى الله عليه وسلم شيئاً يملكه في المستقبل ونقل في ذلـك آراء العلماء وناقش تلك الآراء مما يدل على قدرته العملية ومعرفته بالفقه وكذلك ذكر مسائل في هذا الكتاب تتعلق بالوقف والهبة فقال:

الأولى: هل صحت دعوى الداريين العطية المذكورة ؟ .

والجواب: أن يدهم ثابتة ومستندها والآثار المتقدمة فإن مجموعها يدل على أن لذلك أصلاً، مع ما انضم إلى ذلك من شهادة الليث بن سعد أحد فقهاء الأنصـار كمـا تقدم النقل عنه وعن غيره بأهل العطية وإن وقع التغاير في صفتها [2].

وهكذا تراه يورد الأقوال في مثل هذه المسائل المتعلقة بالوقف والعطية والهبة ويذكر أقوال العلماء في ذلك ويرجح ما يراه مترجحاً بدليله.

---

(١) مطبوع تحقيق محمد أحمد عاشور .

(٢) ضوء الساري للمقريزي ص ١١٦ .

وأورد في كتابه (نحل عبر النحل) [1] أيضاً بعض الآراء الفقهية في جواز بيع النحل وعدد وذكر الخلاف في ذلك بين العلماء رحمهم الله ، وأورد الخلاف في مسألة زكاة العسل فقال:

واختلف أيضاً في زكاة العسل، فروى أبو عيسى الترمذي من حديث صدقة بن عبدالله بن موسى بن يسار عن نافع عن أبن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "في العسل في كل عشرة آلاف زق [2] زقٌ " ، وقال أبو عيسى في إسناده فقال " ولا يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الباب كبير شيء، والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم، وبه يقول أحمد وإسحاق وقال بعض أهل العلم ليس في العسل شيء ، وصدقة بن عبدالله ليس بالحافظ.

وقد خولف في روايته هذا الحديث، وقال الإمام أحمد بن حنبل " صدقة ليس يساوي حديثه شيئاً وقال ابن حنبل يروي الموضوعات عن الثقات " ، وقال النسائي " صدقة ليس بشيء وهذا حديث منكر " ولذلك لم ير مالك والشافعي في العسل زكاة وبه قال أبو داود ومن قبله سفيان الثوري والحسن بن حي [3].

ويسوق الخلاف في هذه المسألة ويبين فيها الآراء معلا لما فيه علة وقدح مبيناً الرأي الصحيح في ذلك مما يدل على درايته بالفقه وعلومه.

---

(١) مطبوع بتحقيق د/ جمال الدين الشيال .

(٢) الزق : سقاء يصنع من جلد وجمعه أزقاق وزقاق مختار الصحاح محمد بن ابي الرازي ص ٢٧٣ .

- جهوده في الحديث :

أما فيما يتعلق بجانب الحديث فها أنت قد قرأت بعض جوانب درايته بفن الرواية والدراية.

وقد اختصر رحمه الله بعض كتب الإمام المروزي [١] في الحديث مثل كتاب قيام الليل [٢] فقال المقريزي في مقدمته للكتاب:

الحمد لله رب العالمين وصلاته وسلامه على محمد خاتم النبيين وآله أجمعين أمـــا بعد فإني أختصر في هذا الجزء كتاب قيام الليل تأليف أبي عبدالله محمد بـــن نصر المروزي رحمه الله على أني احذف المكرر من الأحاديث المسندة والآثـــار وأورد جميع ما فيه من الأحاديث المسندة بأسانيدها، وجميع الآثار مـــع حذف أسانيدها، والله أساله الإعانة على إتمامه والتوفيق للعمل به إنه قريب مجيب [٣].

وكـــتاب قيام رمضان [٤] وقد سلك فيه مثل ما سلكه في كتاب قيام الليل من العمل.

وكتاب (صلاة الوتر) [٥] للمروزي وقد أفاد المحقق بأن كتاب الوتر هو أحد كتـــب المـــروزي المفقـــودة والـــتي لا نعلم لها وجوداً في مكتبات العالم ولم يحفظـــه لنا إلا قيام المؤرخ الكبير أحمد بن على المقريزي باختصاره، مع كـــتابين آخرين هما قيام الليل وقيام رمضان [٦] ،ولا شك أن قيام المقريزي باختصار هذه الكتب عملاً جليلاً حفظ به هذه الكتب من الضياع .

---

(١) الإمام شيخ الإسلام أبو عبدالله محمد بن نصر بن حجاج المروزي ولد ببغداد سنة ٢٥٢ هـــ توفي سنة ٢٩٤ هـــ وله اثنتان وتسعون سنة انظر ترجمته في بداية كتاب مختصر قيام الليل ص ٧، ١٦

(٢) مطبوع بتحقيق إبراهيم محمد العلي ومحمد عبدالله أبو صعليك

(٣) مقدمة الكتاب ص ٢٧

(٤) مطبوع بتحقيق إبراهيم محمد العلي ومحمد عبدالله

(٥) ، (٦) صلاة الوتر للمروزي تحقيق محمد أحمد عاشور وجمال عبدالمنعم الكومى ص ١٥

أما في ما يتعلق بعلم الرجال وعلل الحديث فقد أسهم فيه المقريزي باختصار كتاب الكامل في الضعفاء وعلل الحديث لابن عدي [1] وهو كتاب ضخم اختصره المقريزي في ٨٥٠ صفحة قال في مقدمته بعد حمد الله والثناء عليه :" وبعد فان الحافظ أبا أحمد عبدالله بن عدي سقى الله جدثه صيب الغفران وبوأه بحبوحة دار الأمان، قد أملى كتابه (الكامل في علل الحديث وأسماء المجروحين من الرواة) وأشحنه بكثرة الأسانيد فأحببت أن ألخص منه ما قيل في الرواة على سبيل الإيجاز وحذفت علل الحديث إلا إذا احتيج إليها وأضربت عن ذكر الأسانيد إلا أن تدعو الضرورة إليها والله تعالى أسأل أن يجعله عوناً على امتثال أمره، وسبباً لاتباع السنة وبالله اعتصم [2].

قلت وهذا الكتاب الضخم لا شك أن المقريزي استفاد منه كثيراً وأفاد به غيره مما يدل على إسهامه في هذا الجانب من جوانب علم الحديث .

(١) هو أبو أحمد بن عبدالله بن عدي بن عبدالله بن محمد بن مبارك بن القطان الجرجاني ولد يوم السبت غرة ذي القعدة سنة ٢٧٧ هـ وهي السنة التي مات فيها أبو حاتم الرازى توفي بجرجان غرة جمادى الآخرة سنة ٣٦٥ هـ انظر مقدمة كتاب مختصر الكامل تحقيق أيمن عارف الدمشقي ص ٥، ٩ .

(٢) مقدمة الكتاب للمقريزي ص ٣٩ .

- جهوده في الأدب :

أما في مجال الأدب فقد أسهم المقريزي إسهاماً جيداً في هذا الجانب. مما نقله من شعر رائق وكلام فائق في باب الأدب من خلال تراجمه

وتآليفه المتعددة ففي كتاب المقفى الكبير أورد أكثر من أربعة آلاف وخمسمائة بيت من الشعر خلال تراجمه في هذا الكتاب.

ولو جمعت هذه الأبيات في كتاب مفرد لزادت عدد ضخامته على مائتين وخمسين صفحة .

ناهيك عن ما جمعه من شعر في كتبه الأخرى التي لا يخلو كتاب من كتبه إلا وفيه أبيات إما من نظمه وتأليفه أو من شعر غيره.

فمن شعره يذكر من كان قد آنسه من أحبابه وخلانه وفارقوا الدنيا فيقول فإني ما ناهزت من سني العمر الخمسين حتى فقدت معظم الأصحاب والأقربين فاشتد حزني لفقدهم ، وتنغص عيشي من بعدهم، فعزيت النفس عن لقائهم بتذكارهم، وعوضتها عن مشاهدتهم باستماع أخبارهم وفي ذلك أقول:

فقدت لعمري كل ما كان لي حلوا	فلا غائب في الناس أرجو قدومه
وأوحشني قوم هم كان لي شغل	ولا زائر همي مزورته يجلو
و لا صاحب أرجو لدفع كريهة	إذا امتحن الأيام ما خطبها سهل
و لا مسعف بالرأي لي هو مرشد	و لا منجد بالجاه قدري به يعلو
ولا فارج عن الهموم بأنسه	يطارحني هما يخف به الثكل
ولم تبق لي من صبوه وصبابة	تلذ بها نفسي ويجتمع الشمل
وقد أعرضت نفسي عن اللهو جملة	وملت لقاء الناس حتى وإن جلوا
وصارت بحمد الله شغلي وشاغلي	فوائد علم لست من شغلها أخلو
فطوراً يراعى كاتب لفوائد	بصمتها قد جاءنا العقل والنقل
وآونة للعلم صدري جامع	فتزكو به نفسي وعن همسها تسلو [1]

---

(١) درر العقود الفريدة للمقريزي تحقيق د/ محمد كمال الدين ١/٩٤

وأما ما نقله عن غيره من شعر فكما ذكرت آنفاً يطول ذكره وقد اخترت منه ما ذكره ونقله في رثاء شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فهو شعر جميل وتلك قصيدة لابن فضل الله العمري في شيخ الإسلام رحمهم الله جميعاً : وهي قصيدة طويلة بلغت أبياتها سبعة وثمانين بيتاً منها:

أهكذا بالدياجي يحجب القمر ... ويحبس النوء حتى يذهب المطر
أهكذا تمنع الشمس المنيرة عن ... منافع الأرض أحيانا فتستتر
أهكذا الدهر ليلاً كله أبداً ... فليس يعرف في أوقاته السحر
أهكذا السيف لا تمضى مضاربه ... والسيف في الفتك ما في عزمه خور
أهكذا القوس ترمى بالعراء وما ... تصمى الرمايا وما في باعها قصر
أهكذا يترك البحر الخضم ولا ... يلوى عليه وفي أصدافه الدرر
أهكذا بتقي الدين قد عبثت ... أيدي العدى وتعدى نحوه الضرر
ألابن تيمية ترمى سهام أذى ... من الأنام ويدمى الناب والظفر
بذ السوابق ممتد العبادة لا ... يناله مقل فيها ولا ضجر
ولم يكن مثله بعد الصحابة في ... علم عظيم وزهد ماله خطر
طريقه كان يمشي قبل مشيته ... بها أبو بكر الصديق أو عمر
فرد المذاهب في أقوال أربعة ... جاؤو على أثر السباق وابتدروا
لما بنوا قبله عليا مذاهبهم ... بني وعمَّر منها مثل ما عمروا
مثل الأئمة قد أحيا زمانهم ... كأنه كان فيهم وهو منتظر
إن يرفعوهم جميعاً رفع مبتدأ ... فحقه الرفع أيضاً إنه خبر
أمثلة بينكم يلقى بمضيعة ... حتى يطيح له عمداً آدم هدر
يكون وهو أماني لغيركم ... تنوبه منكم الأحداث والغير
والله لو أنه في غير أرضكم ... لكان منكم على أبوابه زمر [1]

---

(١) ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله للمقريزي تحقيق محمد بن إبراهيم الشيباني ٥٠-٥١ .

ولــولا الإطالـــة لأوردت القصيدة كاملة لما فيها من روعة البيان والسحر الحلال والكلمات المؤثرة الجميلة في شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله .
وأســـوق هنا أيضاً مرثية أخرجها لابن الوردي في شيخ الإسلام رحمه الله يرثيه بها :

عـــثا في عرضـــه قـــوم ســـلاط ... لهـــم مـــن نـــثر جوهـــره الـــتقاط
تقـــي الديـــن أحمـــد خـــير حبر ... فـــروق المعضـــلات بـــه تحـــاط
تـــوفي وهـــو محـــبوس فـــريد ... ولـــيس لـــه إلى الدنـــيا انبســـاط
ولـــو حضـــروه حين قضى لألفوا ... ملائكـــة النعـــيم بـــه أحـــاطوا
فـــيا لله مـــاذا ضـــم لحـــد ... ويـــا لله مـــا غطـــى الـــبلاط
فكـــم حســـدوه لمـــا لم يـــنالوا ... مناقـــبه فقـــد مكـــروا وشـــاطوا
وكـــانوا عـــن طـــرائقه كسالى ... ولكـــن في أذاه لهـــم نشـــاط
وحـــبس الـــدر في الأصداف فخر ... وعـــند الشـــيخ بالســـجن اغتـــباط
بـــآل الهـــاشمي لـــه اقـــتداء ... فقـــد ذاقـــوا المـــنون ومـــا تواطـــوا
إمـــام لا ولايـــة كـــان يـــرجوا ... ولا وقـــف علـــيه ولا ربـــاط
ولا جـــاراكم في كســـب مـــال ... ولم يعهـــد لـــه بكـــم اخـــتلاط
ســـيظهر قصـــدكم يـــا حابسيه ... ونيـــتكم إذا نصـــب الصـــراط
فهـــا هـــو مات عنكم واسترحتم ... فعـــاطوا مـــا أردتم أن تعـــاطوا
واحلـــوا واقعـــدوا مـــن غير ود ... علـــيكم وانطـــوى ذاك البســـاط[1]

فمـــا أجمل نقولات المقريزي وما أعظم ما ذكر ويكفيه فخراً أنه كان إماماً مفنناً، بديع الكلمة مؤثر العبارة له النظم الفائق والنثر الرائق ينقلك من فن إلى فـــنن في نقولاته فتعيش مع فطاحل الشعراء وكبار الأدباء متذوقاً فنوناً مخـــتلفة ما بين شعر زهد وحكمة ومدح ورثاء وغير ذلك من أنواع الشعر وأغراضه المختلفة ، وكانت هذه النقولات الكثيرة مثرية للساحة الأدبية من جهـــة وحافظة عيون الشعر لأصحابها من الضياع والنسيان لأن كثيراً من المترجمين للشخصيات لا يهتم بالناحية الأدبية لمترجمه .

---

(١) ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله للمقريزي تحقيق محمد بن إبراهيم الشيباني ٥٠-٥١ .

آراؤه الاعتقادية

الباب الثاني : منهج المقريزي في دراسة العقيدة وفيه فصلان :

الفصل الأول : منهج المقريزي في دراسة العقيدة .

الفصل الثاني: التوحيد .

الفصل الأول : منهج المقريزي في دراسة العقيدة

لا شك أن لطريقة المؤلف دور كبير في إيصال علمه إلى الناس ، ولذلك تجد أن بعـــض المؤلفـــين يسلك بك مسالك شتى وطرقاً متنوعة من أجل تقرير قضـــية معيـــنة أو إيصال منهج ما فيتبع في ذلك طرق أهل الكلام، حتى لا تكاد أن تخرج مما قرأت أو جمعت بشيء ذي قيمة أو فائدة.
أما المقريزي فقد عرض العقيدة بأسلوب سهل ميسور يفهمه الجميع المتعلم وغـــير المتعلم وهذا ما فعله في كتابه تجريد التوحيد المفيد، وقد اقتبس ذلك من شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله.
فـــترى فيما عرضه الوضوح والبعد عن أي نوع من أنواع التعقيد أو إثارة المشكلات وقد تميزت دراسته للعقيدة بالتالي:
أولاً : عـــدم الدخـــول في مـــتاهات أهـــل الكلام أو الخوض في جدلهم أو الاستفادة من طريقة عرضهم لمسائل العقدية بل لا تكاد تعثر في مقولاته ونقولاته على شيء من هذه الأساليب أو تلك الطرق و المناهج.
ثانـــياً : دعم ما يقول بالنصوص من الكتاب والسنة وأقوال السلف رحمهم الله فانظـــر إليه في كتابه تجريد التوحيد المفيد، وهو يحشد الأدلة من القرآن والســـنة لبيان توحيد الألوهية بأسلوب ميسر وطريقة لطيفة بديعة لا يملها القارئ.
ثالـــثاً: التركـــيز على أكبر المسائل وأهمها وهو توحيد الألوهية والبعد عن الشـــرك بجميع أنواعه وأقسامه، وربط الناس بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمـــداً رســـول الله صلى الله عليه وسلم وقطع الوسائط التي يتخذها أهل الجهـــل ظـــناً منهم أنها تقربهم إلى الله زلفى، وبين حسن الظن بالله وربط القلوب بذلك.
رابعاً: بيانه لخصائص الألوهية حتى تحيا القلوب على عقيدة صحيحة ومنهج قويم.

فيقول: واعلم أن من خصائص الإلهية الكمال المطلق من جميع الوجوه وذلك يوجب أن تكون العبادة له وحده عقلاً وشرعاً وفطرة .
فمن جعل ذلك لغيره فقد شبه الغير بمن لا شبيه له .
ومن خصائص الإلهية: العبودية التي لا تقوم إلا على ساقي الحب والذل فمن أعطاهما لغيره فقد شبهه بالله سبحانه وتعالى في خالص حقه.
ومن خصائص الألوهية: السجود، فمن سجد لغيره فقد شبهه به ومنها التوكل: فمن توكل على غيره فقد شبهه به.
ومنها التوبة: فمن تاب لغيره فقد شبهه به.
وهكذا يسوق هذه المسائل لبيان خصائص الألوهية حتى إذ ما عرفها العبد واستقرت في سويداء القلب استقام له الأمر وأبصر الحق ولزم الطريق.
وكان رحمه الله يركز في كتابه التجريد على أنواع العبادة التي لا يجوز صرف شيء منها إلا لله تعالى وخاصة أصول العبادة التي تحرك القلوب إلى الله وهي: المحبة والخوف لما يكثر وقوعها من الناس ويخطئ فيها الكثير فلا يفرق بين أنواع المحبة القلبية التي لا يجوز صرفها لغيره والمحبة التي تكون لغيره فيخلط بين الأمرين ويقع في شر العملين.
خامساً: عرضه لتوحيد الأسماء والصفات بطريق موجز وأسلوب مختصر بين من خلاله ما كان عليه الصدر الأول والسلف من بعدهم فقال:
اعلم أن الله تعالى لما بعث من العرب نبيه محمد صلى الله عليه وسلم رسولاً إلى الناس جميعاً وصف لهم ربهم سبحانه وتعالى، بما وصف به نفسه الكريمة في كتابه العزيز الذي نزل به على قلبه صلى الله عليه وسلم الروح الأمين، بما أوحى إليه ربه تعالى، فلم يسأله صلى الله عليه وسلم أحد من العرب بأسرهم قرويهم وبدويهم عن معنى شيء من ذلك كما كانوا يسألونه صلى الله عليه وسلم عن أمر الصلاة والزكاة والصيام والحج وغير ذلك مما لله فيه سبحانه فيه أمر ونهي .

ثم يســـوق الكلام رحمه الله حتى يصل إلى أن المنهج الذي تبنى عليه العقيدة هو:

وهكـــذا أثبتوا رضي الله عنهم ما أطلقه الله سبحانه على نفسه الكريمة من الوجه واليد ونحو ذلك مع نفي مماثلة المخلوقين، فأثبتوا رضي الله عنهم من غـــير تشبيه ، ونزهوا من غير تعطيل ولا عرف أحد منهم شيئاً من الطرق الكلامية ولا مسائل الفلسفة.

سادســـاً: بيانه لمنهج الخصوم من أصحاب الفرق والملل كما هو مع نقده أحـــياناً باختصـــار في النقل عنهم وبيان أهم ما تميز به ذلك المنهج أو تلك الطريقة فانظر إليه وهو يتحدث عن مذهب الخوارج فيقول:

الفرقة العاشرة الخوارج: ويقال لهم النواصب، والحرورية نسبة إلى حروراء موضـــع خرج فيه أولهم على علي رضى الله عنه، وهم الغلاة في حب أبي بكر وعمر وبغض علي بن أبي طالب رضوان الله عليهم أجمعين، ولا أجهل منهم، فإنهم القاسطون المارقون، خرجوا على علي رضي الله عنه وانفصلوا عنه بالجملة وتبرؤوا منه .

وانظـــر إلـــيه في موضع آخر وهو يتحدث عن بعض فرق الرافضة فيقول : " والســـابعة عشر: الشيطانية أتباع محمد بن النعمان شيطان الطاق وقد شـــارك المعتزلة والرافضة في جميع مذهبهم، وانفرد بأعظم الكفر قاتله الله، وهو أنه زعم أن الله لا يعلم الشيء حتى يقدره وقبل ذلك يستحيل علمه "

وبالجملـــة فقـــد تمـــيز المقريزي في تقرير العقيدة ودراستها بأسلوب ميسر وعرض واضح يستفيد منه المتعلم ولا يمله العالم.

الفصل الثاني : التوحيد وفيه ثلاثة مباحث

المبحث الأول : توحيد الربوبية .

المبحث الثاني : توحيد الألوهية .

المبحث الثالث : توحيد الأسماء و الصفات .

تمهيد

علم التوحيد

تعريف التوحيد في اللغة : قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة وحد : الواو والحاء والدال أصل واحد يدل على الانفراد ، من ذلك الوحدة ، وهو واحد قبيلته ، إذا لم يكن فيهم مثله (١) .

وفي لسان العرب لابن منظور :

قال ابن سيده : والله الأوحد والتوحد وذو الوحدانية ، ومن صفاته الواحد الأحد ، والفرق بينهما كما قال أبو منصور الأزهري وغيره أن الأحد بني لنفي ما يذكر معه من العدد ، تقول ما جاءني أحد ، والواحد اسم بني يفتتح به العدد ، تقول جاءني واحد من الناس ، ولا تقول جاءني أحد ، فالواحد منفرد بالذات في عدم المثل والنظير ، والأحد منفرد بالمعنى .... ولا يوصف أحد بالأحدية غير الله تعالى ، فلا يقال : رجل أحد كما يقال رجل وحد ، أي فرد ، لأن أحدا من صفات الله عز وجل التي استخلصها لنفسه ولا يشركه فيها شيء (٢) .

والتوحيد في اللغة : الحكم بأن الشيء واحد ، والعلم بأنه واحد (٣) .

فقولهم " وحدت الله " من باب : عظمت الله ، وكبرت الله ، أي :

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٦/٩٠ .

(٢) لسان العرب لابن منظور ٣/٤٥٠ ، وانظر مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية عثمان جمعة ص ١٠٣ .

(٣) التعريفات للجرجاني ص ٩٦ .

علمته عظيماً وكبيراً ، فكذلك وحدته ، أي : علمته واحداً متزهاً عن المثل في الذات والصفات .

وقــال بعض العلماء التوحيد : نفي التشبيه عن الله الواحد ، وقيل التوحيد نفي التشبيه عن ذات الموحد وصفاته ، وقيل التوحيد : العلم بالموحد واحداً لا نظير له ، فإذا ثبت هذا فكل من لم يعرف أن الله هكذا فإنه غير موحد (١) .

المعنى الاصطلاحي للتوحيد :

التوحــيد في الاصطلاح : هو إفراد الله بالعبودية والربوبية ، ويشمل ذلك أنواع التوحيد الثلاثة : توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية ، وتوحيد الأسماء والصفات .

وهي متلازمة مترابطة متكاملة ولا يصلح إيمان المرء ولا توحيده ما لم يأت بها كاملة ، فالله تعالى وحده هو المتفرد بالخلق والإحياء والرزق والإماتة ، وله صفات الكمال والعظمة والجلال ، فهو المتفرد كذلك ، بالأمر والنهي والطاعة .

---

(١) مدخل لدراسة العقيدة عثمان جمعة ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

وتطلــق كلمة التوحيد أيضاً على العلم الذي يدرس الجانب العقائدي من الدين وعندئذ يعرفونه بأنه :

علم يبحث فيه عن وجود الله ، وما يجب أن يثبت له من صفاته وما يجوز أن يوصف به وما يجب أن ينفى عنه ، ويبحث عن الرسل لإثبات رسالتهم وما يجب أن يكونوا عليه ، وما يجوز أن ينسب إليهم ويمتنع أن يلحق بهم (١).

وأصــل معــنى التوحيد : هو اعتقاد أن الله واحد لا شريك له في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته .

وبهذا يكون التوحيد كاملاً ، وسمي هذا العلم به تسمية له بأهم أجزائه فهو من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل .

أهمية التوحيد ومكانته :

لقــد خلق الله الخلق ليعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، قال تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) (٢) .

والعبادة أساسها التوحيد إذا لا يقبل الله من أحد عباده أمراً ، إلا إذا حقق العبد توحيده لله عز وجل ، ولأن خصومة الأمم مع أنبيائهم أول

---

(١) مدخل لدراسة العقيدة ص ١٠٥ ، وانظر رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ص ٨ .

(٢) الذاريات آية ٥٦ .

مــا وقعــت في التوحيد كما قال تعالى (ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) (١) .

ولهــذا فالتوحيد رأس الأمر كله وعليه مدار قبول الأعمال ، به أرسل الله الرسل ، وعليه قام أمر العباد ، وضرورهم عليه أعظم الضرورات وحاجتهم إليه مقدمة على جميع الحاجات .

فإنــه لا حياة للقلوب ولا سرور ولا لذة ولا نعيم ولا أمان إلا بأن تعرف رها ومعبودها وفاطرها بأسمائه وصفاته وأفعاله ويكون ذلك أحب إليها مما ســواه ويكــون ســعيها فيما يقربها إليه ، ولذلك بعث الله رسله وأساس رســالتهم معــرفة الله سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله ، وعلى هذه المعرفة تبنى مطالب الرسالات جميعها من لدن آدم عليه الصلاة والسلام إلى خاتم أنبيائه ورسله محمد صلى اله عليه وسلم .

وهــذا التوحــيد أساس كلمة الإخلاص التي قامت بها الأرض والسماوات وخلقت لأجلها جميع المخلوقات ، وبها أرسل الله تعالى رسله وأنزل رسله وشــرع شرائعه ، ولأجلها نصبت الموازين ، ورفعت الدواوين وقام سوق الجنة والنار ، وبها انقسمت الخليقة إلى المؤمنين والكفار ، والأبرار والفجار ، فهــي منشــأ الخلــق والأمــر ، والــثواب والعقــاب ، وهــي الحق

---

(١) النحل آية ٣٦ .

الـــذي خلقت له الخليقة ، وعنها وعن حقوقها السؤال والحساب ، وعليها يقع الثواب والعقاب ، وعليها نصبت القبلة وعليها أسست الملة ، ولأجلها جـــردت ســيوف الجهـــاد ، وهي حق الله على جميع العباد ، فهي كلمة الإسلام ، ومفتاح دار السلام ، وعنها يسأل الأولون والآخرون ، فلا تزول قدمـــا عبد بين يدي الله حتى يسأل عن مسألتين : ماذا كنتم تعبدون ؟ ، وبماذا أجبتم المرسلين ؟ .

فجواب الأولى بتحقيق " لا إله إلا الله " معرفة وإقراراً وعملاً .

وجـــواب الثانـــية بتحقيق " أن محمداً رسول الله " معرفة وإقرارا ، وانقياداً وطاعة [1] .

ولـــذا فمـــا من نبي أرسله الله تعالى إلى قومه إلا وقد دعا إلى هذه الكلمة العظيمة كلمة التوحيد أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره .

وليس التوحيد مجرد إقرار العبد بأنه لا خالق إلا الله وأن الله رب كل شيء وملـــيكه كمـــا كـــان عـــباد الأصـــنام مقـــرين بذلك وهم مشركون بـــل التوحـــيد يتضـــمن محبة الله والخضوع له والذل له ، وكمال الانقياد والطاعة ، وإخلاص العبادة له وإرادة وجهه الأعلى بجميع الأقوال والأعمال والنصـــح والعطـــاء ، والحـــب والـــبغض ، مـــا يحـــول بين صاحبه

---

(١) زاد المعاد لابن القيم ١/٣٤ .

وبين الأسباب الداعية إلى المعاصي والإصرار عليها ، ومن عرف هذا عرف قول النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله " [1] .

ومن ثم أصبحت كلمة التوحيد وهي شهادة ألا إله إلا الله تشير إلى جوانب العقيدة ومسائلها ، لأنه إذا حصل الإيمان بمضمونها على وجه صحيح استتبع ذلك قطعاً الإيمان بسائر العقائد من إلهيات ونبوات وسمعيات ، فإن الوحدانية تتضمن الاعتراف بالله بأنه المعبود بحق ، وهو اعتراف ضمني بأنه جامع لكل كمال منزه عن كل نقص ، وهي نهاية التعظيم وغاية المحبة والخشية .

ومن هنا كانت العناية بذكر الوحدانية لأنها كانت أهم مقاصد الرسل جمعياً ، لأنها هي وحدها العقيدة التي كفر بها أكثر الناس وهجروها ، فهم يعرفون الله تعالى بقدرته وعلمه وإرادته وأنه خالق السماوات والأرض ... الخ ، ولكنهم يؤمنون به وهم مشركون يتخذون له أنداداً من دونه يحبونهم كحبه ويخشونهم كخشيته [2] .

ولذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : ليس للقلوب سرور ولا لذة تامة إلا في محبة الله ، والتقرب إليه بما يحبه ، ولا تمكن محبته إلا

---

(١) صحيح مسلم كتاب المساجد ٤٥٦/١ .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٣٢/٢٨ .

بالإعــراض عن كل محبوب سواه ، وهذه حقيقة لا إله إلا الله ، وهي ملة إبراهــيم الخلــيل عليه السلام ، وسائر الأنبياء والمرسلين صلاة الله عليهم أجمعين [١] .

دعوة واحدة (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) ، ونجد في اكثر من سورة مــن ســور القــرآن الكريم ، وبخاصة سور الأعراف وهود والشعراء يأتي تسلســل مقصود لتاريخ الرسل الذين أرسلوا إلى أقوامهم كل رسول يقول الكــلمة ذاتها ويمضي فيجيء الرسول الذي يأتي بعده ويقول ذات الكلمة ، حــتى كــأنهم رسول واحد على اختلاف الزمن واختلاف لغات الأقوام (ولقــد أرســلنا نوحاً إلى قومه أني لكم نذير مبين . ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم) [٢] .

(وإلى عــاد أخــاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره)[٣]

(وإلى ثمــود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) [٤]

(وإلى مديــن أخــاهم شــعيباً قــال يــا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره)[٥] (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا

---

(١) مدخل لدراسة العقيدة ص ١٠٦ .

(٢) هود آية ٢٥-٢٦ .

(٣) هود آية ٥٠ .

(٤) هود آية ٦١.

(٥) الأنبياء آية ٨٤ .

أنـــا فاعـــبدون)[1] ، جـــاء الرسل كلهم بلا إله إلا الله ، ولكن الكتب السماوية السابقة حرفت و لم يبق إلا القرآن الكريم على حاله كما كان يوم أنـــزل ، وكما هو في اللوح المحفوظ ، لأن الله هو الذي تكفل بحفظه ، ولم يكن حفظه للبشر كالكتب السابقة (إنا نحن نـــزلنا الذكر وإنا له لحافظون)[2]

إن لا إلـــه إلا الله تعني عبادة الله وحده دون شريك والتزام بما جاء مـــن عـــند الله فالألوهـــية تقتضي العبودية في كل من سواه ، وإذا انتفت الألوهية عن كل شيء وكل أحد وكل كائن في هذا الوجود كله ، وثبتت لله وحده فمعنى ذلك أن الإله الذي يعبد بحق هو الله ، ولا يعبد سواه ، لأن كـــل ما سواه ليس إلهاً فلا تجوز له العبادة التي يجب أن تتمحض لله وحده بـــلا شـــريك [3] ، وهكذا تكون كلمة لا إله إلا الله منهاج حياة للأمة في ماضـــيها وحاضرها ومستقبلها ، لا يمكن أن يكون لها صلاح أو مكان بين الأمم إلا بهذه الكلمة العظيمة التي خوطب بها الأولون ودعي إليها الآخرون عـــلى نســـق واحد لاختلاف فيه على مر العصور ، كلمة تملأ حقيقتها الكيان البشري وتسري في أعماقه وتنبض نبضاً حياً يحرك كل ذرة في هذا الكون فتنطلق بها النفوس لتصلح ما فسد من أمراض القلوب .

---

(١) الأنبياء آية ٢٥ .

(٢) الحجر آية ٩ .

(٣) لا إله إلا الله عقيدة وشريعة محمد قطب ص ٢٠-٢١ بتصرف يسير .

المبحث الأول: توحيد الربوبية

يقول المقريزي رحمه الله: اعلم أن الله سبحانه وتعالى هو رب كل شيء ومالكه وإلهه فالرب مصدر رب يرب ربا فهو رابٌّ : فمعنى قوله تعالى (رب العالمين) راب العالمين فان الرب سبحانه وتعالى هو الخالق الموجد لعباده القائم بتربيتهم وإصلاحهم المتكفل بصلاحهم من خلق ورزق وعافية وإصلاح دين ودنيا [1] .

توحيد الربوبية: هو اعتقاد أن الله سبحانه وتعالى وحده رب كل شيء ومالكه والمتصرف فيه، وهو خالق كل شيء، خالق العباد ورازقهم وهو محييهم ومميتهم وأنه سبحانه هو الضار والنافع، المتفرد بإجابة الدعاء عند الاضطرار والأمر كله له سبحانه، وبيده الخير كله، وهو على كل شيء قدير، ليس له في ذلك شريك .

واسم الرب له الجمع الجامع لجميع المخلوقات فهو رب كل شيء وخالقه والقادر عليه لا يخرج شيء عن ربوبيته وكل من في السماوات والأرض عبد له في قبضته، وتحت قهره فاجتمعوا بصفة الربوبية وافترقوا بصفة الإلهية [2] .

وهذا النوع من التوحيد أقر به الكفار ولكنه لم يدخلهم في الإسلام لعدم إقرارهم بتوحيد الألوهية.

وقد حكى الله تعالى ذلك عن الكفار فقال سبحانه وتعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) [3] .

---

(١) تجريد التوحيد المفيد ص ٥

(٢) مدارج السالكين لابن القيم ص ٤١ .

(٣) لقمان آية ٢٥ .

وقال تعالى (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون) [1]
وقـــال تعـــالى (قـــل من يرزقكم من السماء والأرض أمَّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون) [2] .
وهـــم بهذا ينسبون الخلق والإحياء والرزق وإنزال المطر وغيره ينسبونه لله ســـبحانه وتعالى ومع ذلك وصفوا بالشرك وحكم عليهم به إذ يقول تبارك وتعـــالى (ومـــا يؤمـــن أكـــثرهم بـــالله إلا وهـــم مشـــركون) [3]
لأن الربوبية منه تعالى لعباده والتأله من عباده له سبحانه كما أن الرحمة هي الوصلة بينهم وبينه عز وجل، واعلم أن أنفس الأعمال وأجلها قدراً توحيد الله تعالى غير أن التوحيد له قشران: الأول: أن تقول بلسانك لا إله إلا الله ويسمى هذا القول توحيداً وهو مناقض للتثليث الذي تعتقده النصارى وهذا التوحيد أيضاً يصدر من المنافق الذي يخالف سره جهره.
والقشر الثاني:
أن لا يكون في القلب مخالفة ولا إنكار لمفهوم هذا القول بل يشتمل القلب على اعتقاد ذلك والتصديق به، وهذا هو توحيد عامة الناس.
ولباب التوحيد أن يرى الأمور كلها لله تعالى ثم يقطع الالتفات إلى الوسائط وأن يعبده سبحانه عبادة يفرده بها ولا يعبد غيره [4].

---

(١) الزخرف آية ٨٧ .

(٢) يونس آية ٣١ .

(٣) يوسف آية ١٠٦ .

(٤) تجريد التوحيد المفيد للمقريزي ص ٦- ٧

إذاً لا يقبل توحيد الربوبية وحده دون أن يشتمل على توحيد الألوهية لأن من أقر واعترف بأن الله هو الخالق والرازق والمحيي والمميت وجب عليه أن يعبده سبحانه وتعالى وحده لا شريك له ، وسيأتي على ذلك مزيد كلام في موضعه.

ويقـــول في موضع آخر من كتابه تجريد التوحيد المفيد ص ٤٨ : " ويحتج الرب سبحانه عليهم بتوحيدهم ربوبيته على توحيد ألوهيته كما قال تعالى (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ء الله خير أما يشركون، أمن خلـــق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أءله مع الله بل هم قوم يعدلون) [(١)]

وفي هـــذا يشير المقريزي رحمه الله إلى أن الله جل ثناءه يحتج على منكري توحـــيد الألوهية بإقرارهم بتوحيد الربوبية من خلال هذه الآية المباركة التي تبين إقامة الحجة والبرهان على كل من جحد توحيد الألوهية إذ أن من أقر بـــأن الله خلـــق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأنبت به حدائق ذات بهجة وما كان للإنسان أن ينبت شجرها، فكيف يعبد غيره ويتخذ إلهاً سواه تعالى الله عما يقول المبطلون علواً كبيراً .

ولهذا يقول رحمه الله (وربوبيته سبحانه للعالم الربوبية الكاملة المطلقة الشاملة تـــبطل أقوالهـــم لأنهـــا تقتضي ربوبيته لجميع ما فيه من الذوات والصفات والحركات والأفعال) [(٢)].

---

(١) سورة النمل الآيات ٥٩-٦٠ .

(٢) تجريد التوحيد ص ٥١ .

ثم يـــبين رحمه الله أن الشرك ينقسم إلى قسمين شرك في الألوهية وشرك في الربوبية.

ويقول في شرك الربوبية:

هو (الشرك به تعالى في الربوبية كشرك من جعل معه خالقاً آخر : كالمجوس وغيرهـــم، الذين يقولون: بأن للعالم ربين: أحدهما خالق الخير، ويقولون له بلسان الفارسية: يزدان .

والآخر: خالق الشر ويقول له المجوس بلسانهم (أهرمن) .

وكالفلاسفة ومن تبعهم الذين يقولون: بأنه لم يصدر عنه إلا واحد بسيط، وأن مصدر هذا العالم عن العقل الفعال فهو رب كل ما تحته ومدبره [(١)].

ولهذا ترى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول في هذا النوع من الشرك.

وأمـــا النوع الثاني: فالشرك في الربوبية، فإن الرب سبحانه هو المالك المدبر المعطـــى المـــانع، الضـــار النافع، الخافض الرافع، المعز المذل، فمن شهد أن المعطـــي أو المـــانع، أو الضار أو النافع، أو المعز أو المذل غيره فقد أشرك بربوبيته [(٢)].

ويقول أيضاً شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

وقد ذكر أرباب المقالات: ما جمعوا من مقالات الأولين والآخرين في الملل والنحل والآراء والديانات، فلم ينقلوا عن أحد إثبات شريك مشارك له في خلـــق المخلوقـــات، ولا ممـــاثل له في جمـــيع الصـــفات، بـــل مـــن

---

(١) تجريد التوحيد ص ٥٥- ٥٦ .

(٢) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ١/٩٢ .

أعظـــم مـــا نقلـــوا في ذلـــك قول الثنوية الذين يقولون بالأصلين (النور) و (الظلمة) وأن النور خلق الخير، والظلمة خلق الشر.

وقـــد أخبر سبحانه عن المشركين من إقرارهم بأن الله خالق المخلوقات ما بينه في كتابه فقال: (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله، قـــل أفرأيـــتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره، أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته، قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون) [1] ولهذا نجد المقريزي رحمه الله قد ساق هذه النقولات مقتبساً ما كتبه من شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وكذلك الإمام ابن القيم رحمه الله.

ولم يعـــدو مـــا كتبه وسطره في كتابه عن هذين العالمين الكبيرين مستدلاً بالآيـــات والأحاديـــث من كتاب الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم ولهـــذا خـــرج كتابه فريداً في بابه مفيداً في ما رمى إليه وقصده من تجريد التوحيد من شوائب الشرك والخرافات.

وقـــد سلك هذا الطريق في تقرير توحيد الربوبية جل العلماء من المحققين المعتـــبرين ، يقول الإمام الطحاوي عن توحيد الربوبية : " وأما الثاني: وهو توحـــيد الربوبـــية، كالإقرار بأنه خالق كل شيء وأنه ليس للعالم صانعان متكافئان في الصفات والأفعال، وهذا التوحيد حق لا ريب فيه، وهو الغاية عـــند كـــثير من أهل النظر والكلام وطائفة من الصوفية، وهذا التوحيد لم يذهـــب إلى نقيضـــه طائفة معروفة من بني آدم، بل القلوب مفطورة على الإقـــرار بـــه أعظـــم مـــن كونهـــا مفطـــورة عـــلى الإقـــرار بغيره من

---

(١) الفتاوى لشيخ الإسلام ١/ ٩٣

(١) الزمر آية ٣٨ .

الموجودات، كما قالت الرسل فيما حكى الله عنهم (قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض) [1] .

وأشهر من عرف تجاهله وتظاهره بإنكار الصانع فرعون، وقد كان مستيقنا بـــه في الـــباطن، كما قال له موسى (لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر) [2]

وقال تعالى عنه وعن قومه: (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا) [3] ولهذا لما قال (وما رب العالمين) على وجه الإنكار له تجاهل العارف، قال له موسى (رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . قال لمن حوله إلا تستمعون، قال ربكم ورب آبائكم الأولين. قال إن رسولكم الـــذي أرسل إليكم لمجنون، قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون) [4] .

وقد زعم طائفة أن فرعون سأل موسى مستفهماً عن الماهية ، وأن المسؤول عنه لما لم تكن له ماهية عجز موسى عن الجواب وهذا غلط.

وإنمـــا هـــذا استفهام إنكار وجحود، كما دل سائر آيات القرآن على أن فـــرعون كان جاحداً لله نافياً له، لم يكن مثبتاً له طالباً للعلم بماهيته ،فلهذا بـــين لهم موسى عليه السلام أنه معروف، وأن آياته ودلائل ربوبيته أظهر وأشهر من أن يسأل عنها. مما هو؟ بل هو سبحانه أعرف وأظهر وأبين من أن يجهل، بل معرفته مستقرة في الفطرة أعظم من معرفة كل معروف

---

(١) إبراهيم آية ١٠ .

(٢) الإسراء آية ١٠٢ .

(٣) النمل آية ١٤ .

(٤) الشعراء آية ٢٤-٢٨

ولم يعـــرف عن أحد من الطوائف أنه قال: إن للعالم صانعان متماثلان في الصفات والأفعال، فإن الثنوية من المجوس، والمانوية القائلين بالأصلين: النور والظلمة، وأن العالم صدر عنهما:

متفقون على أن النور خير من الظلمة وهو الإله المحمود، وأن الظلمة شريرة مذمومة وهم متنازعون في الظلمة، هل هي قديمة أو محدثة؟ فلم يثبتوا ربين متماثلين.

والمقصود هنا: أنه ليس في الطوائف من يثبت للعالم صانعين متماثلين مع أن كـــثيراً مـــن أهـــل الكلام والنظر والفلسفة تعبوا في إثبات هذا المطلوب وتقريـــره، ومنهم من اعترف بالعجز عن تقرير هذا بالعقل وزعم أنه يتلقى من السمع [1].

إذا كـــل الطوائـــف كانوا مقرين. بتوحيد الربوبية وأنه ليس للعالم خالقان ولكن اتخذ بعض هؤلاء شفعاء كما أخبر عنهم تعالى بقوله (والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) [2]

مـــع إقـــرارهم بأن الخالق هو الله سبحانه وتعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) [3] .

وقد ألف المقريزي رحمه الله كتاباً أسماه (نحل عبر النحل) ساق فيه من بيان هدايـــة الله تعالى وبديع صنعه للنحل ما فيه عظة وعبرة لكل باحث في هذا المـــيدان ومتأمل في بديع صنع الله تبارك وتعالى ، وقد أورد فيه من البراهين والأدلـــة مـــا يجعـــل الكـــتاب فـــريداً في بابـــه مـــتوحداً في عـــلمه

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ٧٩- ٨٥ بتصرف يسير.

(٢) الزمر آية ٣ .

(٣) لقمان آية ٢٥ .

ولا سيما وأنه عرض للنحل وطبيعة عمله وأشكاله وألوانه وأنواع ما يقوم بـــه من عمل، وطريقة معاشه وأنواع عسله والزهور التي يقتات منها وغير ذلـــك الكثير مما يجعل الكتاب شيق القراءة، جميل العرض، لا يمله القارئ، ويزيد من إيمان المتأمل المستبصر في ملكوت الله عز وجل.

فيقول رحمه الله في وصف النحل:

والنحل: حيوان ذو هيئة ظريفة وخلقة لطيفة، وبنية نحيفة، وسط بدنه مربع مكعـــب ومؤخـــره مخروط، ورأسه مدور مبسوط، وفي وسط بدنه أربعة أرجـــل ويـــدان متناســـبة المقاديـــر كأضـــلاع الشـــكل المســـدس في الدائرة [(١)].

ثم يقـــول أيضاً ومن النحل سود، وهي أصغر من الصفر، والصفر أكبر من الســـود، والـــنحل تلد من غير لقاح الذكور، وتتخذ بيوتها مسدسه، وهو حيوان فهيم فيه كيس، ونظافة وطهارة، وشجاعة.

ونظـــر في العواقـــب، ومعـــرفة بفصول السنة وأوقات المطر، وتدبير المرتع والمطعـــم، والطاعـــة لكبيره، والاستكانة لأميره وقائده، وهو بديع الصنعة وعجيب الفطرة [(٢)].

ثم يقول في موضع آخر من كتابه هذا عن بيان نظافة النحل وطهارتها :

وجـــنس النحل ألطف أجناس الحيوان كلها ولذلك تكره كل رعي يكون منتـــناً أو زهـــيم الـــرائحة، وهي تكره النتن وتكره أيضاً الروائح الدهنية والأدهـــان، وإن كانـــت عطـــرة، وتلســـع المتدهن إذا دنا منها وتوافقها

---

(١) نحل عبر النحل ص ٢ .

(٢) نحل عبر النحل ص ١٤ .

الأصـــوات اللذيـــذة المطربة، ولا يغترزن بشيء من معايش الناس، والنحل يحب الصعتر وأجوده الأبيض [1].

ويقول أيضاً رحمه الله في موضع آخر عن هداية الله للنحل.

والنحل تحس بالبرد والمطر وعلامة ذلك لزومها الخلية، وفي لطف إحساس كثير من الحيوان عجب عجيب، و (إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار) [2] (فتبارك الله أحسن الخالقين) [3] .

ثم يقول أيضاً رحمه الله.

ومن شأن النحل في تدبير معاشها أنها إذا أصابت موضعاً نقياً بنت فيه بيوتاً من الشمع أولاً ثم تتخذ البيوت التي تأوي فيها ملوكها، ثم بيوت ذكورها التي لا تعمل شيئاً والذكور أصغر جرماً من الإناث وهي تكثر المادة داخل الخلية وإن طارت فتخرج بأجمعها وترتفع في الهواء ثم تعود

إلى الخلية ثم بيوت إناثها، والنحل تعمل الشمع أولاً ثم تلقى فيه البزر وتقعد علــيه، وتحضــنه، كمـــا تحضـــن الطـــير، فالشمع لها بمترلة العش للطير والــبزر بمترلـــة البيض فيكون من ذلك البزر دود أبيض، ثم تنهض الدود وتغـــذي نفسها، ثم تطير، وهي لا تقعد على أزهار مختلفة، بل زهر واحد وهي تملأ بعض البيوت عسلاً، وبعضها فراخاً.

---

(١) نحـــل عبر النحل ص ١٤ " والصعتر نبات طيب الرائحة ويقال له السعتر والزعتر و الصعتر ، وهو بالصاد أفصح " .

(٢) النور آية ٤٤ .

(٣) المؤمنون آية ١٤ .

وهـــي تـــتخذ البيوت قبل المرعى، فإذا استقر لها بيت خرجت منه فرعت وأكلت من الثمرات ثم آوت إلى بيوتها لأن ربها سبحانه وتعالى أمرها باتخاذ البيوت أولاً ثم الأكل بعد ذلك.

وهي تبيض في بعض البيوت، وتحضن وتفرخ وتأوي إلى بعض بيوتها، وتنام فـــيها أيام الصيف والشتاء، وأيام المطر والريح، والبرد ، فتتقوت من ذلك العسل المخزون هي وأولادها يوماً بيوم لا إسرافاً، ولا تقتيراً، إلى أن تنتهي أيام الشتاء، ثم تأتي أيام الربيع، ويطيب الزمان، ويخرج النور والزهر، فترعى مـــنه، وتفعـــل كمـــا فعلت عام الأول، و لم يزل هذا دأبها بإلهام من الله تعالى [1].

ويقـــول أيضـــاً في هذا الباب من هداية الله للنحل : ومن لطف الله حس الـــنحل أعجوبة قد تحير فيها قدماء العلماء، وذلك أنه إذا أزمع شتاء شات بالكون، أو مطر، من غير أن يرى الناس لذلك أمارة، ترى النحل قبل كون ذلـــك ســـاكنة في داخل الخلية فيعلم قوامها بطول التجارب أن قد اقترب شتاء، وبرد ومطر.

وكانـــت العرب تعلم أن برداً قد اقترب وقوعه، أو جراداً قد دنا مجيئه بما يـــرون مـــن حال النحل، وذلك أنهم يرونها قبل أن يكون ذلك، فاترة في العمل، كأنها قد اعتراها كسل وانكسار، فعند ذلك يترقبون أن سيكون برد أو جـــراد، فـــيكون كذلـــك، والـــبرد والجراد مضران بالنحل وأضرهما الجراد لأنه يلحس الأرض فتهلك النحل .

وكفى عجباً بما تراه من أنك إذا فتحت وعاء عسل في بيت ضيق وعلى بعد منك خلايا نحل، فما تشعر بأول من هجوم النحل عليك، وفي البيت بيوت أخـــر بها أناس لم يشعروا بفتح ذلك الوعاء ، كذلك الخلية إذا حولت من أرض إلى أخرى لم تعرفها نحل تلك الخلية قط، فإذا نصبت في تلك الأرض

---

(١) نحل عبر النحل ص ٢٢- ٢٣ .

الغريبة، ثم فتحت وذهب النحل منها في تلك الأرض المجهولة من كل وجه، فإنها تـؤوب إلى خليتها بعينها، ولا تخطئها ولا تضل عنها، وربما حملت الخلايـا في بعض البلدان إذا أجدبت المرعى إلى بلدان أخر لطلب المرعى، تطلق عنها فتسرح في تلك البلاد وتعمل أعمالها من غير تدريب ولا تدريج كمـا كانت تعلمها من قبل ثم لا تغلط نحلة فتدخل في خلية غير خليتها، والخلايا متلاصقة أو مجاورة، وفي كل هذا عبر وأعجوبة [1].

(١) نحل عبر النحل ص ٣٢ .

ثم يقول رحمه الله في فضل النحل :

وكفى للنحل شرفاً تنويه الله تعالى بذكرها في محكم كتابه العزيز حيث قال: (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون، ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون)[1]

.

معاشها، لم يدر مخلوق ما تلك القوة- وإن شارك النحل فيها كثير من الحيوان- فإن لها عليهم مزية اختصاص بأنه تعالى عبر عن إلهامها بالوحي تشريفاً لها بخلاف غيرها فإنه تعالى قال (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها) [2] ، وقال (ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) [3].

فدخلت النحلة في هذا العموم وامتازت بأن صارت مما أوحى الله سبحانه وتعالى إليها وأثنى عليها فعلمت مساقط الأنوار من وراء البيداء فتقع هناك بروضة عبقة، وزهرة أنقه، ثم يصدر عنها ما تحفظه رضاباً وتلفظه شراباً [4].

ويقول رحمه الله في بيان قوله تعالى (يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه)[5]

---

(١) النحل آية ٦٨- ٦٩ .

(٢) الشمس آية ٧ .

(٣) طه آية ٥٥ .

(٤) نحل عبر النحل ص ٤٢ .

(٥) النحل آية (٦٩) .

قـــال لأن اســـتحالة الأطعمة لا تكون إلا في البطن ، ثم عدد تعالى أنواع العســـل الـــذي أنعـــم بـــه على العباد فقال (مختلف ألوانه) يعني الأحمر والأبـــيض، والجـــامد، والســـائل، ليتذكروا قدرته سبحا نه على الإيجاد والاختراع، فإن الأصل واحد، وما يكون عنه مختلف بسبب وقوع تنوع غذائـــه بحسب مراعي النحل، ثم وصف تعالى هذا الخارج من النحل بصفة شريفة وهي الشفاء الذي أودعه فيه فقال تعالى(فيه شفاء للناس)[١][٢]

وقـــال رحمـــه الله نقلاً عن الغزالي في كتابه الإحياء وقال الشيخ أبو حامد الغزالي في كتاب الإحياء: انظر إلى النحل كيف أوحى الله إليها حتى اتخذت من الجبال بيوتآ، وكيف استخرج من لعابها الشمع والعسل وجعل أحدهما ضـــياء ، والآخـــر شـــفاء ، ثم لو تأملت عجائب أمرها في تناولها الأزهار والأنوار ، واحترازها من النجاسات والأقذار ، وطاعتها لواحد من جملتها، وهو أكبرها شخصاً وهو أميرها، ثم ما سخر الله تعالى

لأميرها من العدل والإنصاف بينها، حتى إنه ليقتل منها على باب المنفذ كل مـــا وقـــع منها على نجاسة، لقيت من ذلك العجب إن كنت بصيراً على نفســـك، وفارغـــاً من هم بطنك، وفرجك، وشهوات نفسك، في معاداة أقـــرانك، وموالاة إخوانك، ثم دع عنك جميع ذلك، وانظر إلى بنيانها من الشـــمع، واختـــيارها مـــن جميع الأشكال الشكل المسدس، فلا تبني بيتها مســـتديرا، ولا مربعاً ، ولا مخمساً، بل مسدساً لخاصية في الشكل المسدس يقصـــر فهـــم المهندسين عن درك ذلك وهو أن أوسع الأشكال وأحوالها المســـتدير ومـــا يقـــرب مـــنه، فـــإن المـــربع تخـــرج منه زوايا ضائعة

---

(١)النحل آية (٦٩) .

(٢) نحل عبر النحل ص ٤٦ .

وشكل النحل مستدير مستطيل، فترك المربع حتى لا تبقى الزوايا فارغة ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة إن الأشكال المستديرة إذا اجتمعت لم تجتمع متراصة، ولا شكل من الأشكال ذوات الزوايا يقرب في الاحتواء من المستدير، ثم تراص الجملة منه لا يبقى بعد اجتماعها فرجة إلا المسدس، وهذه خاصية هذا الشكل.

فانظر كيف ألهم الله تعالي هذا النحل على صغر جرمه اتخاذ الأشكال المتساوية الأضلاع بحيث لا يزيد ضلع عن ضلع، ولا ينقص ويعجز عن هذا التساوي المهندس الحاذق بالفرجار والمسطرة لطفاً به ، فسبحانه ما أعظم شأنه وأوسع فضله وامتنانه . انتهي كلام الغزالي رحمه الله .

وقال بعض الحكماء : بيوت النحل من أعجب الأشياء، لأنها مبنية على الشكل المسدس الذي لا ينحرف، كأنه استنبط بقياس هندسي ثم هو في دائرة مسدسه لا يوجد فيها اختلاف فبذلك اتصلت حتى صارت كالقطعة الواحدة، وذلك لأن الأشكال من الثلاثة إلى العشرة إذا جمع كل واحد منها إلى أمثاله لم يتصل، وجاءت بينها فرج إلا الشكل المسدس، فإنه إذا اجتمع إلى أمثاله اتصل كأنه قطعة واحدة، كل هذا بغير قياس منها ولا آلة ولا بكار بل ذلك من أثر صنع اللطيف الخبير وإلهامه إياها.

وقال آخر جمع الله تعالى في النحلة السم والعسل، ليكون دليلاً على كمال قدرته، وأخرج منها العسل ممزوجاً بالشمع، كذلك عمل المؤمن ممزوج بالخوف والرجاء [1] .

---

(١) نحل عبر النحل ٦٩- ٦٨ .

وختاماً لما ذكره المقريزي أشير إلى بداية كلامه رحمه الله في سبب تأليف هذا الكتاب حيث قال : فهذا قول وجيز في ذكر النحل ، وما أودع فيه الباري جلت قدرته من غرائب الحكمة، وعجائب الصنع ليعتبر أولوا الأبصار، ويتذكر أرباب الاعتبار [1].

والمقريزي رحمه الله طرق باباً مهماً في ربط القلوب بالله عز وجل من خلال النظر في ملكوته وما خلق الله فيه من مخلوقات يحار المرء في إدراك أمرها وعجيب صنعها وإتقان عملها ولكن المرء عندما يتأهل، وينظر نظر المؤمن في كل ما خلق الله، يعلم حينها أن كل شيء في الوجود يسبح الله ويحمده، ويعبده ويقدسه، (وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) [2] .

إذاً من الذي أعلم النحل أن يكون دؤوباً نشيطاً في عمله، عالماً ببناء بيته، عارفاً بغدوه ورواحه، لا يضل طريقة حتى ولو وضع حتى ولو وضع في أرض مفازة فهو أهدى لطريقه من أحدنا بداره، تساؤلات وتساؤلات كثيرة عن النحل وعالمه .

والإجابة في حس المؤمن واضحة جلية إنه الله.

الذي خلق كل شيء فهداه إلى طلب معاشه والضرب في الأرض من أجل تحصيل رزقه.

ولذا فإن موضوع النحل وهدايته من أعظم المواضيع التي تصلح أن تكون

---

(١) نحل عبر النحل ص ٢ .

(٢) الإسراء الآية ٤٤ .

درساً علمياً عملياً لطرحه على كل منكر لوجود الله عز وجل ولا يؤمن إلا بما يراه ويبصره ويرى وجود العالم صدفة والمقريزي رحمه الله سلك في كتابه هذا بين العرض العلمي الدقيق لحقائق النحل ولطيف خلقته وبين الجمع الشيق، والحديث الرائق ، والأسلوب الأدبي الرفيع، الذي يشد القارئ إلى القراءة دون ملل، بعبارات لطيفة، و إشارات سريعة يحصل من ورائها النفع الكبير لكل باحث عن الحقيقة، وطالب للحق فيما هدى الله إليه خلقه ، كما قال تعالى (قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) [1] .

والمقريزي رحمه الله كغيره من علماء السلف رحمهم الله جميعا من الذين لهم كبير اهتمام وعظيم عناية بالتأمل في خلق الله عز وجل مع ملاحظة الدقة والعناية فيما يتعلق بالجانب العلمي للدراسات التطبيقية وأن لهم في ذلك قصب السبق .

وقد سبق المقريزي رحمه الله عدد من العلماء المسلمين رحمهم الله كان لهم اهتمام هذا الجانب العلمي المرتبط بهداية الله للنحل وغيره من المخلوقات.

كأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري في كتابه عيون الأخبار وكمال الدين الدميري في كتابه حياة الحيوان الكبرى وابن القيم الجوزية في كتابه شفاء العليل وكذلك المتكلمين والفلاسفة كابن سينا في كتابه الشفاء وغيرهم كثير ممن كتب في هذا الجانب.

لكن المقريزي رحمه الله امتاز على غيره في هذا الباب، بأن أفرد كتاباً مستقلاً ذكر فيه كل ما يتعلق بعالم النحل وأجناسه، ومنافعه ، ومصادر

---

(١) طه آية ٥٠ .

رزقـــه، وســـير عمله. مع جمع الأدلة من الكتاب والسنة وأقوال أهل اللغة والأدب، وبعض المسائل الفقهية، وأمر الناس فيما يتعلق باهتمامهم بالعسل ومنـــتجاته كالشمع وكثير من المسائل الهامة التي يعز وجودها في غير هذا الكتاب.

ونجـــد أن المسلك الذي سلكه المقريزي رحمه الله في عرض كتابه، نحل عبر الـــنحل من بيان ربط القلوب بالله عز وجل هو ذلك المسلك الذي سار- عليه قبله الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله في كتابه شفاء العليل.

يقول ابن القيم رحمه الله مبيناً هداية الله للنحل في أمور معاشه: وأمر النحل في هدايـــتها من أعجب العجب وذلك أن لها أميراً ومدبراً وهو اليعسوب وهو أكبر جسماً من جميع النحل وأحسن لوناً وشكلاً وإناث النحل تلد في إقبال الربيع، وأكثر أولادها يكن إناثاً، وإذا وقع فيها ذكر لم تدعه بينها بل إما أن تطرده وإما أن تقتله، إلا طائفة منها تكون حول الملكة [1] وذلك أن الذكـــر مـــنها لا تعمل شيئاً ولا تكسب، ثم تجمع الأمهات وفراخها عند الملكة فتخرج بها إلى المرعى من المروج والرياض والبساتين والمراتع في أقصر الطرق وأقرها فيجتني منها كفايتها، فترجع بها الملكة فإذا انتهوا إلى الخلايا وقفت على بابها و لم تدع ذكراً ولا نحلة غريبة تدخلها، فإذا تكامل دخولها د خلـــت بعدهـــا، وتواجدت النحل في أماكنها ومقاعدها فتبتدئ الملكة بـــالعمل كأنها تعلمها، فيأخذ النحل في العمل ويتسارع إليه وتترك الملكة العمل، وتجلس ناحية بحيث تشاهد النحل، فيأخذ النحل في إيجاد الشمع من لزوجات الأوراق والأنوار، ثم تنقسم النحل فرقاً فمنها فرقة تلزم الملكة ولا

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله (الملك) والصحيح أنها ملكة إذ ليس للنحل (ملك).

تفارقها، ولا تعمل ولا تكسب وهي حاشية الملكة من الذكورة، ومنها فرقة تهيـــئ الشـــمع وتضعه والشمع هو ثفل العسل وفيه حلاوة كحلاوة التين، وللـــنحل فـــيه عناية شديدة فوق عنايتها بالعسل، فينظفه النحل ويصفيه ويخلصه مما يخالطه من أبوالها وغيره وفرقة .

تـــبني البيوت، وفرقة تسقي الماء، وتحمله على متونها، وفرقة تكنس الخلايا وتـــنظفها مـــن الأوساخ والجيف والزبل، وإذا رأت بينها نحلة مهينة بطالة قتلـــتها حـــتى لا تفسد عليهن بقية العمال ببطالتها ومهانتها وأول ما يهيأ في الخلـــية مقعـــد الملكـــة وبيتها فتبني لها بيتا مربعا يشبه السرير والتخت فتجلس عليه وتستدير حولها طائفة من النحل تشبه الأمراء والخدم والخواص لا يفارقنها ، ويجعل النحل بين يديه شيئاً يشبه الحوض يصب فيه من العسل أصـــفى مـــا يقـــدر علـــيه، ويملأ منه الحوض يكون ذلك طعاماً للملكة وخواصـــها، ثم يأخذن في ابتناء البيوت على خطوط متساوية كأنها سكك ومحـــال، وتـــبني بـــيوتها، لأن المطلوب من بناء الدور هو الوثاقة والسعة، والشـــكل المسدس دون سائر الأشكال إذا انضمت بعض أشكاله إلى بعض صار شكلاً مستديراً كاستدارة الرحى ولا يبقى فيه فروج ولا خلل ويشد بعضه بعضاً حتى يصير طبقاً واحداً محكماً لا يدخل بين بيوته رؤوس الإبر ، فتـــبارك الذي ألهمها أن تبني بيوتها هذا البناء المحكم الذي يعجز البشر عن صـــنع مـــثله، فعلمـــت أنها محتاجة إلى أن تبني بيوتها من أشكال موصوفة بصفتين:

إحداهما : أن لا يكون زواياها ضيقة حتى لا يبقى الموضع الضيق معطلاً والثانية: أن تكون تلك البيوت مشكلة بأشكال إذا انضم بعضها إلى بعض وامـــتلأت العرصـــة مـــنها فلا يبقى منها ضائعاً، ثم إنها علمت أن الشكل الموصـــوف بهـــاتين الصفتين هو المسدس فقط، فإن المثلثات والمربعات وإن أمكـــن امتلاء العرصة منها إلا أن زواياها ضيقة، وأما سائر الأشكال وإن كانت زواياها واسعة إلا أنها تمتلئ العرصة منها بل يبقى بينها فروج خالية ضائعة، وأما المسدس فهو موصوف بهاتين الصفتين فهداها سبحانه إلى بناء

بيوتها على هذا الشكل من غير سطر ولا آلة ولا مثال يحتذى عليه، وأصنع بني آدم لا يقدر على بناء البيت المسدس إلا بالآلات الكبيرة، فتبارك الذي هداها أن تسلك سبل مراعيها على قوتها وتأتها ذللا لا تستعصي عليها، ولا تضل عنها، وأن تجني أطيب ما في المرعى وألطفه وأن تعود إلى بيوتها الخالية فتصب فيها شراباً مختلفاً ألوانه فيه شفاء للناس، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون .

فإذا فرغت من بناء البيوت خرجت خماصاً تسيح سهلاً وجبلاً، فأكلمت من الحلاوات المرتفعة على رؤوس الأزهار وورق الأشجار فترجع بطاناً وجعل سبحانه في أفواهها حرارة منضجة تنضج ما جنته فتعيده حلاوة ونضجاً ثم تمجه في البيوت حتى إذا امتلأت ختمتها وسدت رؤوسها بالشمع المصفى، فإذا امتلأت تلك البيوت عمدت إلى مكان آخر إن صادفته فاتخذت فيه بيوتاً ، وفعلت كما فعلت في البيوت الأولى، فإذا برد الهوى، وأخلف المرعى وحيل بينهما وبين الكسب، لزمت بيوتها واغتذت. مما ادخرته من العسل، وهي في أيام الكسب و السعي تخرج بكرة وتسيح في المرتع ، وتستعمل كل فرقة منها بما يخصها من العمل فإذا أمست رجعت إلى بيوتها.

وفي النحل كرام عمال لها سعي وهمة، واجتهاد، وفيها لئام كسالى قليلة النفع مؤثرة للبطالة، فالكرام دائماً تطردها وتنفيها عن الخلية ولا تساكنها خشية أن تعدي كرامها وتفسدها.

والنحل من ألطف الحيوان وأنقاه، ولذلك لا تلقى زبلها إلا جوا تطير وتكره النتن والروائح الخبيثة، وأبكارها وفراخها أحرس وأشد اجتهاداً من الكبار وأقل لسعاً وأجود عسلاً ولسعها إذا لسعت أقل ضرراً من لسع الكبار.

ولما كانت النحل من أنفع الحيوان و أبركه قد خصت من وحي الرب تعالى وهدايته بما لم يشركها فيه غيرها وكان الخارج من بطونها مادة للشفاء من الأسقام والنور الذي يضيء في الظلام بمنزلة الهداة من الأنام كان أكثر

الحـــيوان أعداء وكان أعداؤه أقل الحيوان منفعة وبركة، وهذه سنة الله في خلقه وهو العزيز الحكيم [1] .

فانظر أخي المبارك إلى هذا الكلام القيم من ابن القيم رحمه الله في هداية الله للنحل.. وتأمل كلام المقريزي رحمه الله في هذا الباب ثم كلام الإمام الغزالي رحمـــه الله تجـــد أنـــه على نسق واحد، وهذا يدل على حسن جمع الإمام المقريـــزي رحمـــه الله فقد استفاد ممن كان قبله من العلماء في تأليف كتابه (نحـــل عـــبر الـــنحل) وأضـــاف إلـــيه كل جديد شاهده بنفسه أو قرأه في كتاب أو نقله إليه غيره، فكان كتابه جم الفائدة كبير القدر غزير العلم في بابه.

وخـــتام القـــول في هذا المبحث أقول إن القرآن الكريم يأخذنا في جولات وجـــولات نرتاد معها آفاق السماء ونجول في جنبات هذا الكون الفسيح وفق قوله عز وجل (قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) [2] ويقـــف بـــنا على زهرة ندية، وتأملات حسية ليفتح أمامنا باب الاتعاظ والاعتـــبار، ويجلو بذلك العمى عن الأبصار، فكم غافل تنبه وعاد إلى الله ربـــه، والقرآن مليء بالآيات التي تتحدث عن بديع خلقه عز وجل من ليل ونهـــار وشمـــس وقمر، وحبوب وثمار، وجنات ونهر ونجوم وأقمار، وعطر وزهـــر، كل ذلك ليرينا قدرة الله عز وجل وهي تعمل في هذا الكون وفق أمره فسبحانه من إله كريم حيث خلق كل ما في هذا الكون وسخره لخدمة الإنسان .

---

(١) شفاء العليل لابن القيم ص ١٠١- ١٠٢ .

(٢) طه أية ٥٠ .

وتوحيد الربوبية أمر فطره الله في القلوب وغرسه في الصدر فما من شيء في هذا الوجود إلا وهو يعلم أن الله خلقه وهو ربه ومالكه والمتصرف في أمره، حتى وإن ظهر منه العناد، والكبر والاستعلاء ، إلا أن أمر الفطرة يظهر من خلال مواقف الحياة أو اختباره بالبلايا والرزايا .

وكل شيء في هذا الكون شاهد على وجود الله عز وجل كما قال الشاعر.

فيا عجباً كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد

ولله في كل تحريكة ... وتسكينة أبداً شاهد

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه الواحد [1]

(١) ذكر ابن خلكان في كتابه الوفيات ٧/٣٨ البيت الأخر ونسبه لأبي نواس وقيل أيضا بأنها لأبي العتاهية.

المبحث الثاني : توحيد الألوهية

قال المقريزي رحمه الله :

والإلهية: كون العباد يتخذونه سبحانه محبوباً مألوهاً ويفردونه بالحب والخوف والرجاء والإخبات والتوبة، والنذر والطاعة، والطلب والتوكل، ونحو هذه الأشياء.

فإن التوحيد حقيقته: أن ترى الأمور كلها لله تعالى رؤية تقطع الالتفات عن الأسباب والوسائط فلا ترى الخير والشر إلا منه تعالى

وهذا المقام يثمر التوكل، وترك شكاية الخلق، وترك لومهم، والرضا عن الله تعالى والتسليم لحكمه.

واعلم أن أنفس الأعمال، وأجلها قدراً : توحيد الله تعالى .

غير أن التوحيد له قشران:

الأول: أن تقول بلسانك: (لا إله إلا الله) ويسمى هذا القول: توحيداً وهو مناقض التثليث الذي تعتقده النصارى، وهذا التوحيد يصدر أيضاً من المنافق الذي يخالف سره جهره.

والقشر الثاني: أن لا يكون في القلب مخالفة، ولا إنكار لمفهوم هذا القول، بل يشتمل القلب على اعتقاد ذلك والتصديق به، وهذا هو توحيد عامة الناس.

ولباب التوحيد: أن يرى الأمور كلها من الله تعالى ثم يقطع الالتفات عن الوسائط وأن يعبده سبحانه عبادة يفرده بها ولا يعبد غيره.

ويخرج عن هذا التوحيد: اتباع الهوى فكل من اتبع هواه فقد اتخذ هواه معبوده قال تعالى (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) [1].

---

(١) الجاثية آية ٢٣ .

وإذا تأملت عرفت أن عابد الصنم لم يعبده إنما عبد هواه وهو ميل نفسه إلى دين آبائه فيتبع ذلك الميل، وميل النفس إلى المألوفات أحد المعاني التي يعبر عنها بالهوى.

ويخرج عن هذا التوحيد: السخط على الخلق، والالتفات إليهم فإن من يرى الكل من الله، كيف يسخط على غيره أو يأمل سواه؟ وهذا التوحيد مقام الصديقين [1] .

وإذا تأملت كلام المقريزي رحمه الله وجدته عين الحق والصواب، إذ أن الألوهية كون العباد يتخذونه سبحانه محبوباً مألوهاً ويفردونه بالحب والخوف والرجاء فلا يغلبون جانباً على حساب الآخر كما فعلت بقية الفرق الضالة .

فالصوفية بعضهم عبدوه بالحب وحده، والخوارج عبدوه بالخوف وحده، والمرجئة عبدوه بالرجاء وحده، وأهل السنة والجماعة عبدوه بالحب والخوف والرجاء حباً في ذاته وخوفاً من عذابه وطمعاً ورجاء في رحمته وهذه العبادة هي التي تثمر براً وتنتج صلاحاً لأنها بنيت على التوازن .

ولذلك يقول المقريزي عقب ذلك عن حقيقة التوحيد، أن ترى الأمور كلها لله تعالى رؤية تقطع الالتفات عن الأسباب والوسائط ، فلا ترى الخير والشر إلا منه تعالى .

نعم إن من يفرد الله بالخوف والرجاء والإخبات ، والنذر والطاعة والطلب والتوكل ويجعل أموره كلها إلى الله، فإنه يرى بعين البصيرة فيعلم حينها أن الخير من الله تعالى والشر قدره الله ، ومن ثم فإن هذا التوحيد يثمر التوكل الحق، وترك الشكاية إلى الخلق وينتج عنه الرضا عن

---

(١) تجريد التوحيد المفيد للمقريزي تحقيق على العمراني ص ٤٥- ٤٦.

الله تعـــالى والتسليم لحكمه وفي هذا المقام مقام العبادة وحسن التوكل على الله عز وجل يقول المقريزي:

(وأودع سمعك فائدة جليلة، وهي أن الطب النبوي جميعه قسمان

أحدهما: ما كان من عادة العرب التداوي به .

والثاني : ما جاء بوحي إلهي .

فـــالأول قســـم من أقسام الطب، والثاني لا يصح تأثيره إلا مع قوة إيمانية ويقـــين صادق، وإلا فلا منفعة له فيه، فإنه- إذا اقترن به ما شرطناه، لأنجع دواء وأســـرع شـــفاء، فقال ما استشفى وشفى أهل الله وخاصته بآية من القرآن، ولعقة من عسل، أدواء يعجز عنها حذاق الأطباء (والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم)[1][2] .

هكـــذا يكون حسن التوكل بالله عز وجل إذا اقترن بالإيمان الصادق مع بذل السبب المشروع فإنه يكون بقدر الله دواءاً ناجحاً فالله هو الذي أنزل الـــداء، وهو الذي يرفعه إن شاء، فلا طبيب ينفع ولا دواء يشفي إلا بقدر الله عز وجل .

ولنـــنظر إلى حـــال القوم اليوم وكيف تعلقت قلوبهم بالأطباء حتى اصبح الطبيـــب تشـــد إليه الرحال وتتحمل من أجله المشاق ويصل الناس إليه في أقصى المعمورة من أجل سمعته ومهارته وحذاقته في عمله ونسى القوم جانباً مهماً أن الله عز وجل هو الضار النافع وأنه المحيى والمميت .

---

(١) البقرة آية ٢١٣ .

(٢) نحل عبر النحل للمقريزي ص ٥ .

وكما قال عز وجل (والذي هو يطعمني ويسقين، وإذا مرضت فهو يشفين) [١] فلو تعلقت قلوب الناس بالله وتوكلوا على الله حق توكله لدفع عنهم كثيراً من أنواع البلاء ورفع عنهم كثيراً من الأسقام [٢].

ويقول المقريزي رحمه الله، وقد علم الله سبحانه وتعالى عباده كيف مباينة الشرك في توحيد الإلهية وأنه تعالى حقيق بإفراده ولياً وحكماً، وربا فقال تعالى (قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض) [٣] .

وقال: (أفغير الله ابتغى حكماً) [٤] .

وقال(قل أغير الله أبغي رباً) [٥] .

---

(١) الشعراء آية ٨٠ — ٨١ .

(٢) ونحن لا نحرم التداوي بالأدوية المباحة أو الذهاب إلى الأطباء لطلب الدواء ولكننا نحذر من التعلق بغير الله عز وجل في طلب الشفاء، وإلا فإن التداوي أمر مباح وقد دعا إليه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله (تداوو يا عباد الله) وبقوله (ما أنزل الله من داء إلا وأنزل معه دواء علمه من علمه وجهله من جهله) ولكن ذلك كله ينبغي أن يكون باعتقاد أن الله هو الضار وهو النافع وهو المحيي وهو المميت وما الطبيب والدواء إلا أسباب جعلها الله لرفع البلاء فقد يوافق الدواء الداء فيبرأ المريض بقدر الله وقد لا يحصل من ذلك شيء فيبقى المريض بعلته لأمر أراده الله، ولا نغفل في هذا الجانب أمراً مهماً كبيراً سبب في الشفاء ء بإذن الله وهو الدعاء والتذلل والخضوع إلى الله بأسمائه الحسنى وصفاته العليا كما قال المقريزي يرحمه الله، فقال ما استشفى وشفى أهل الله، وخاصته بآية من القرآن ولعقة من عسل، أدواء يعجز عنها حذاق الأطباء .

(٣) الأنعام آية ١٤ .

(٤) الأنعام آية ١١٤ .

(٥) الأنعام آية ١٦٤ .

فــلا ولي ولا حكم ولا رب إلا الله الذي من عدل به غيره فقد أشرك في ألوهيته وجحد ربوبيته .

فتوحــيد الربوبية هو الذي اجتمعت فيه الخلائق مؤمنها وكافرها وتوحيد الإلهــية مفرق الطرق بين المؤمنين و المشركين ، ولهذا كانت كلمة الإسلام لا إله إلا الله ، فلو قال : لا رب إلا الله لما أجزأه ذلك عند المحققين .

فتوحيد الألوهية هو المطلوب من العابد ، ولهذا كان أصل (الله (الإله كما هــو قــول ســيبويه وهو الصحيح وهو قول جمهور أصحابه إلا من شذ منهم [1] .

وهــذا الكــلام الذي ذكره المقريزي –رحمه الله – هو عين ما ذهب إليه الإمام ابن القيم في كتابه مدارج السالكين وبدائع الفوائد ، ويدل على تأثر الإمــام المقريــزي بمن سبقه في عصره كالإمام ابن القيم وقبله شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهم الله جميعاً .

فنلاحظ أن الكتاب [2] كله مستفاد من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في فتاواه ، أو من كلام ابن القيم رحمه الله في كتبه كمدارج السالكين ، وروضــة المحــبين ، و الجواب الكافي ، وبدائع الفوائد ، مع حسن سبك ودراية ربط بين المواضيع حتى خرج كتاباً ليس له نظير في بابه.

---

(١) تجريد التوحيد المفيد ص ٤٧ – ٤٨ .

(٢) أعني تجريد التوحيد المفيد .

أنواع الشرك :

ويقول المقريزي رحمه الله وشرك الأمم كله نوعان:

شرك في الإلهية وشرك في الربوبية.

فالشرك في الإلهية، والعبادة هو الغالب على أصل الإشراك وهو شرك عباد الأصنام وعباد الملائكة، وعباد الجن وعباد المشايخ والصالحين الأحياء، والأموات، الذين قالوا: إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى ويشفعوا لنا عنده، وينالنا بسبب قربهم من الله وكرامته لهم: قرب وكرامة، كما هو المعهود في الدنيا من حصول الكرامة، والزلفى لمن يخدمون الملك وأقاربه وخاصته. والكتب الإلهية كلها من أولها إلى آخرها تبطل هذا المذهب وترده ، وتقبح أهله وتنص على أنهم أعداء الله تعالى وجميع الرسل - صلوات الله عليهم - متفقون على ذلك من أولهم إلى آخرهم، وما أهلك تعالى من أهلك من الأمم إلا بسبب هذا الشرك ومن أجله [1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

الشرك نوعان: شرك في الإلهية- وشرك في الربوبية.

فأما الشرك في الإلهية فهو أن يجعل لله نداً أي: مثلاً في عبادته أو محبته، أو خوفه، أو رجائه، أو إنابته، فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله إلا بالتوبة منه قال تعالى (قل للذين كفروا أن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف)[2]

---

(١) تجريد التوحيد المفيد ٥٢ .

(٢) الأنفال آية ١٦٥ .

وهذا الذي قاتل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم مشركي العرب، لأنهم أشـــركوا في الإلهـــية، قال تعالى (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله)[(١)] (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى)[(٢)] (وقالوا أ أجعل الآلهة إلهاً واحداً، إن هذا لشيء عجاب)[(٣)] ، وقـــال تعالى (ألقيا في جهنم كل كفار عنيد.. إلى قوله: الذي جعل مع الله إلهاً آخر فألقياه في العذاب الشديد)[(٤)] .

وقـــال الـــنبي صلى الله عليه وسلم لحصين : كم تعبد؟ قال ستة في الأرض وواحد في السماء، قال: (فمن الذي تعد لرغبتك ورهبتك)؟ قال الذي في السماء. قال: (ألا تسلم فأعلمك كلمات) فأسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم (قل: اللهم ألهمني رشدي، وقني شر نفسي)[(٥)].

وأما الربوبية: فقد تقدم الحديث عليه في المبحث الأول.

ومـــا ذهـــب إليه المقريزي رحمه الله من بيان شرك الأمم مستفاد من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وبهذا يتبين أن المقريزي رحمه الله في كتابه تجـــريد التوحيد المفيد جمع من أقوال السلف رحمهم الله ما يؤكد به ويبين حقـــيقة التوحيد وخلوصه من الشرك. ويقول المقريزي رحمه الله عن أهل الشرك في توحيد الإلهية.

---

(١) البقرة آية ١٦٥ .

(٢) الزمر آية ٣ .

(٣) ص آية ٥ .

(٤) ق آية ٢٤- ٢٦ .

(٥) فتاوى شيخ الإسلام ١/٩١ .

وأصله الشرك في محبة الله تعالى، قال تعالى (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنـــدادا يحبونهم كحب الله) [1] ، فأخبر سبحانه: أنه من أحب مع الله شـــيئاً غـــيره كما يحبه فقد اتخذ نداً من دونه، وهذا على أصح القولين في الآية: أنهم يحبونهم كما يحبون الله [2].

وفي تقدير الآية قولان: أحدهما (والذين آمنوا أشد حباً لله) من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم التي يحبونها ويعظمونها من دون الله.

والـــثاني: (والذين آمنوا أشد حباً لله) من محبة المشركين بالأنداد لله فإن محبة المؤمنين خالصة، ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها، والمحـــبة الخاصـــة: أشد من المشتركة والقولان مرتبان على القولين في قوله تعـــالى (يحبوهم كحب الله) فإن فيها قولان: أحدهما: يحبونهم كما يحبون الله فـــيكون قد أثبت لهم محبة الله ولكنها محبة يشركون فيها مع الله أنداد ، والـــثاني: أن المعـــنى يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون الله ثم بين أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم [3] .

قـــال الإمام الشوكاني رحمه الله : ".. مع أن هؤلاء الكفار لم يقتصروا على مجرد عبادة الأنداد، بل أحبوها حباً عظيماً وافرطوا في ذلك إفراطاً بالغاً حتى صار حبهم لهذه الأوثان ونحوها متمكناً في صدورهم كتمكن حب المؤمنين لله سبحانه وتعالى [4].

---

(١) البقرة آية ١٦٥ .

(٢) تجريد التوحيد المفيد ص ٥٣ .

(٣) مدارج السالكين لابن القيم ٣/ ٢١

(٤) فتح القدير للإمام الشوكاني ١/

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يرجح القول الأول، ويقول إنما ذموا بأن أشركوا بين الله وبين أندادهم في المحبة و لم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين لـــه [١] ، وهـــذا هو العدل المذكور في قوله تعالى (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) [٢].

والمعنى على أصح القولين: أنهم يعدلون به غيره في العبادة فيسوون بينه وبين غيره في الحب والعبادة وكذلك قول المشركين- في النار- لأصنامهم: (تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين)[٣].

ومعلـــوم قطعـــاً أن هـــذه التســـوية لم تكن بينهم وبين الله في كونه ربهم وخـــالقهم، فإنهم كانوا كما أخبر الله عنهم مقرين بأن الله تعالى وحده هو ربهم وخالقهم وأن الأرض ومن فيها له وحده، وأنه رب السموات السبع؟ ورب العـــرش العظيم وأنه سبحانه هو الذي بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه.

وإنما كانت عند التسوية بينهم وبينه تعالى في المحبة والعبادة، فمن أحب غير الله تعـــالى خافه، ورجاه، وذل له كما يحب الله ويخافه ويرجوه: فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله، فكيف بمن كان غير الله أقرب عنده منه وأحب إليه، وأخوف عنده، وهو في مرضاته أشد عليه سعياً منه في مرضاة الله؟

---

(١) مدارج السالكين ٣/ ٢١ .

(٢) الأنعام آية ١

(٣) الشعراء٩٧- ٩٨ .

فـــإذا كـــان المســـوي بـــين الله وبين غيره في ذلك مشركاً فما الظن بهذا فعـــياذاً بالله من أن ينسلخ القلب من التوحيد والإسلام كانسلاخ الحية من قشرها وهو يظن أنه مسلم موحد، فهذا أحد أنواع الشرك [١].

إذاً يجـــب عـــلى القلـــوب أن تـــتجه إلى الله بحـــبها ولا تعدل معه غيره أو تســـاويه بـــه في المحبة وهكذا هو الإيمان الصادق النابع من حس المؤمن إذ يـــرى أنـــه لا شيء في الوجود كله أحب إليه من الله ، وأن يكون الله ورســـوله أحب إليه مما سواهما، وبهذا يأمر الله عباده المتقين أن يبرهنوا على صـــدق محبتهم له باتباعهم لرسوله صلى الله عليه وسلم قال تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) [٢].

وهذه الآية تسمى آية المحبة.

قال أبو سليمان الداراني : لما ادعت القلوب محبة الله أنزل لها هذه (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) وقال (يحببكم الله) إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها وفائدتها.

فدليلها وعلامتها: اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، وفائدتها وثمرتها: محبة الله ومحـــبة الرسول لكم، فلما لم تحصل المتابعة، فليست محبتكم له حاصلة ومحبته لكم منتفيه [٣].

---

(١) تجريد التوحيد ٥٤ .

(٢) آل عمران ٣١ .

(٣) مدارج السالكين ص ٢٢ .

وقال المقريزي رحمه الله أيضاً مبيناً بعض أنواع الشرك :

فالشـــرك به في الأفعال كالسجود لغيره سبحانه والطواف بغير البيت المحرم وحلـــق الـــرأس عـــبودية وخصوصـــاً لغيره، وتقبيل غير الحجر الأسود أو تقبيل القبور واستلامها والسجود لها.

وقد لعن النبي صلى الله عليه وسلم من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد يصلى له فيها فكيف من اتخذ القبور أوثاناً تعبد من دون الله؟.

فهـــذا لم يعلم معنى قول الله تعالى (إياك نعبد) وفي الصحيح عنه صلى الله علـــيه وســـلم أنـــه قال (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)[1] .

وفيه عنه أيضاً (إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون قبور أنبيائهم مساجد) [2] .

وفـــيه أيضاً عنه صلى الله عليه وسلم: (إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القـــبور مســـاجد، ألا فـــلا تـــتخذوا القـــبور مســـاجد، فإنني أنهاكم عن ذلك) [3] .

وفي مسند الإمام أحمد وصحيح ابن حبان عنه صلى الله عليه وسلم لعن الله زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج) [4] .

وقال: (أشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)[5] .

---

(١) أخرجه البخاري مع الفتح ٦٣٣/١ ، ومسلم برقم ٥٢٩ .

(٢) البخاري ١٣/١٧ وأخرجه أحمد في مسنده ٤٣٥/١.

(٣) أخرجه مسلم برقم ٥٣٢ .

(٤) مسند الإمام أحمد ٢٢٩/١ .

(٥) أخرجه الإمام مالك في الموطأ ١٧٢/١ .

وقال: (إن من كان قبلكم كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصورة أولئك شرار الخلق عند الله) [1]

وللشيخ عبدالرحمن بن حسن بن محمد بن عبدالوهاب رحمه الله كلام مفيد في كتابه فتح المجيد شرح كتاب التوحيد حيث قال: " إن من شرار الناس الذين يتخذون القبور مساجد أي بالصلاة عندها وإليها، وبناء المساجد عليها ، وجاء في الأحاديث الصحيحة أن هذا من عمل اليهود والنصارى وأن النبي صلى الله عليه وسلم لعنهم على ذلك، تحذيراً للأمة أن يفعلوا مع نبيهم وصالحيهم مثل اليهود والنصارى، فما رفع أكثرهم بذلك رأساً، بل اعتقدوا أن هذا الأمر قربة إلى الله، وهو مما يبعدهم من الله ويطردهم عن رحمته ومغفرته.

والعجب أن أكثر من يدعي العلم ممن هو في هذه الأمة لا ينكرون ذلك بل ربما استحسنوه ورغبوا في فعله، فلقد اشتدت غربة الإسلام وعاد المعروف منكراً والمنكر معروفاً، والسنة بدعة والبدعة سنة، نشأ على هذا الصغير، وهرم عليه الكبير.

قال شيخ الإسلام: أما بناء المساجد على القبور: فقد صرح عامة الطوائف بالنهي عنه، متابعة للأحاديث الصحيحة، وصرح أصحابنا وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريمه .

قال: ولا ريب في القطع بتحريمه، ثم ذكر الأحاديث في ذلك إلى أن قال: وهذه المساجد المبنية على قبور الأنبياء والصالحين أو الملوك وغيرهم فتبين إزالتها بهدم أو غيره، وهذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء المعروفين.

---

(١) أخرجه البخاري مع الفتح ٦٣٣/١ ومسلم برقم ٥٢٨ وانظر تجريد التوحيد ص ٥٩-٦٠ .

وقال ابن القيم رحمه الله: يجب هدم القباب التي بنيت على القبور لأنها أسست على معصية الرسول صلى الله عليه وسلم وقد أفتى جماعة من الشافعية بهدم ما في القرافة من الأبنية منهم ابن الجميزي والظهير والتريني وغيرهما.

وقال الأذرعي: وأما بطلان الوصية ببناء القباب وغيرها من الأبنية وإنفاق الأموال الكثيرة فلا ريب في تحريمه.

وقال الزيلعي في شرح الكنز، ويكره أن يبني على القبر، وذكر قاضي خان: أنه لا يجصص القبر ولا يبنى عليه، لما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهي عن التجصيص والبناء فوق القبر والمراد بالكراهة عند الحنفية رحمهم الله كراهة التحريم وقد ذكر ذلك ابن نجيم في شرح الكنز .

وقال الشارح رحمه الله تعالى: وجزم النووي رحمه الله في (شرح المهذب) بتحريم البناء مطلقاً وذكر في شرح مسلم نحوه أيضاً.

وقال الشافعي رحمه الله: أكره أن يعظم مخلوق حتى يجعل قبره مسجداً: مخافة الفتنة عليه وعلى من بعده من الناس، وكلام الشافعي رحمه الله بين مراده بالكراهة: كراهة التحريم. وقال أبو محمد عبدالله بن أحمد بن قدامه إمام الحنابلة صاحب المصنفات الكبار كالمغني والكافي وغيرهما رحمه الله (ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد " يحذر ما صنعوا، ولو لا ذلك أبرز قبره غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً،

وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام: تعظيم الأموات واتخاذ صورهم، والتمسح بها والصلاة عندها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وأما المقبرة فلا فرق فيها بين الجديدة والعتيقة، انقلبت تربتها أو لم تنقلب، ولا فرق بين أن يكون بينه وبين الأرض حائل أو لا، لعموم الاسم وعموم العلة، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم لعن الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ومعلوم أن قبور الأنبياء لا تنجس .

وبالجملة، فمن علل النهي عن الصلاة في المقبرة بنجاسة التربة خاصة فهو بعيد عن مقصود النبي صلى الله عليه وسلم ثم لا يخلوا أن يكون القبر قد بني عليه مسجد، فلا يصلي في هذا المسجد سواء صلى خلف القبر أو أمامه بغير خلاف في المذهب لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال (إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك).

وخص قبور الأنبياء لأن عكوف الناس على قبورهم أعظم، واتخاذها مساجد أشد وكذلك إن لم يكن بني عليه مسجد، فهذا قد ارتكب حقيقة المفسدة التي كان النهي عن الصلاة عند القبور من أجلها فإن كل مكان صلى فيه يسمى مسجداً ، كما قال صلى الله عليه وسلم (جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً) [1].

---

(١) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد للشيخ عبدالرحمن بن حسن بن عبدالوهاب والحديث رواه البخاري ٣٦٩/١ ومسلم برقم ٥٢١ .

ثم يقول المقريزي رحمه الله في أقسام الناس في زيارة القبور: والناس في هذا الباب - أعني زيارة القبور- ثلاثة أقسام : قوم يزورون الموتى فيدعون لهم وهذه هي الزيارة الشرعية ، وقوم يزورونهم يدعون بهم وهؤلاء هم المشركون (العوام والطغام من غلاتهم) ، وقوم يزورونهم فيدعونهم أنفسهم وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد)[1] وهؤلاء هم المشركون في الربوبية[2] .

ولهذا يقول ابن القيم رحمه الله :

وأما زيارة الموحدين فمقصودها ثلاثة أشياء أحدها تذكر الآخرة والاعتبار والاتعاظ وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك بقوله (زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة) [3].

الثاني: الإحسان إلى الميت، وأن لا يطول عهده به، فيهجره، ويتناساه، كما إذا ترك زيارة الحي مدة طويلة تناساه، فإذا زار الحي فرح بزيارته وسر بذلك، فالميت أولى لأنه قد صار في دار قد هجر أهلها إخوانهم وأهلهم ومعارفهم، فإذا زاره وأهدى إليه هدية من دعاء، أو صدقة أو أهدي قربة. ازداد بذلك سروره وفرحه، كما يسر الحي بمن يزوره ويهدي إليه .

ولهذا شرع النبي صلى الله عليه وسلم للزائرين أن يدعوا لأهل القبور بالمغفرة والرحمة، وسؤال العافية، فقط و لم يشرع أن يدعوهم، ولا أن يدعوا بهم، ولا يصلي عندهم.

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ ١/١٧٢ .

(٢) تجريد التوحيد المفيد ٦٢ .

(٣) رواه الإمام مسلم في كتاب الجنائز ٣٦/٧ والترمذي في كتاب الجنائز ٣٦٠/٣

الثالث: إحسان الزائر إلى نفسه باتباع السنة، والوقوف عند ما شرعه الرسول صلى الله عليه وسلم فيحسن إلى نفسه وإلى المزور. إذ الزيارة الشرعية يقصد بها السلام عليهم والدعاء لهم كما يقصد الصلاة على أحدهم إذا مات، فيصلي عليه صلاة الجنازة، فهذه الزيارة الشرعية [1].

أما الزيارة الشركية: فأصلها مأخوذ عن عباد الأصنام.

قالوا الميت المعظم، الذي لروحه قرب ومنزلة وقربة عند الله تعالى لا يزال تأتيه الألطاف من الله تعالى، وتفيض على روحه الخيرات، فإذا علق الزائر روحه به، فأدناه منه انعكس من روح المزور على روح الزائر من تلك الألطاف بواسطتها، كما ينعكس الشعاع من المرآة الصافية والماء ونحوه على الجسم المقابل له.

قالوا فتمام الزيارة أن يتوجه الزائر بروحه وقلبه إلى الميت، ويعكف همته عليه، ويوجه قصده كله وإقباله عليه، بحيث لا يبقى فيه التفات إلى غيره، وكلما كان جمع الهمة والقلب عليه أعظم كان أقرب إلى انتفاعه به. وقد ذكر هذه الزيارة على هذا الوجه ابن سينا والفارابي وغيرهما، وصرح بها عباد الكواكب في عبادتها.

وقالوا إذا تعلقت النفس الناطقة بالأرواح العلوية، فاض عليها منها النور وبهذا السر عبدت الكواكب، واتخذت الهياكل، وصنفت لها الدعوات واتخذت الأصنام المجسدة لها وهذا بعينه هو الذي أوجب لعباد القبور اتخاذها أعياداً .

---

(١) الفتاوى لشيخ الإسلام ١/٢٣٦ .

وتعلـيق السـتور عليها، وإبقاء السرج عليها، وبناء المساجد عليها ، وهو الـذي قصـد رسول الله صلى الله عليه وسلم إبطاله ومحوه بالكلية، وسد الذرائع المفضية إليه.

فوقـف المشـركون في طريقه ، وناقضوه في قصده ، وكان صلى الله عليه وسـلم في شق وهؤلاء في شق وهذا الذي ذكره هؤلاء المشركون في زيارة القـبور، هـو الشفاعة التي ظنوا أن آلهتهم تنفعهم بها، وتشفع لهم عند الله تعالى [1].

وأما زيارة الموتى لدعائهم، فهي كزيارة المشركين وأهل البدع لدعاء الموتى وطلـب الحاجات منهم، أو الاعتقاد أن الدعاء عند قبر أحدهم أفضل من الدعاء في المساجد والبيوت أو أن الإقسام بهم على الله وسؤاله سبحانه بهم أمر مشروع يقتضي إجابة الدعاء فمثل هذه الزيارة بدعة منهي عنها [2].

فـإذا كان الإسلام نهى عن الصلاة عند القبور وإن كان المصلي إنما قصد بصلاته ودعائه الله سبحانه وتعالى وذلك خشية الوقوع في ذريعة من ذرائع الشرك ، فكيف بمن دعا أهل القبور وصلى عندها من أجلهم، فلا ريب أنه أتى أمراً عظيماً ومنكراً شنيعاً .

---

(١) إغاثة اللهفان لابن القيم ٢١٩/١ .

(٢) الفتاوى لشيخ الإسلام ٢٣٦/١ ومراد شيخ الإسلام رحمه الله بقوله : بدعة منهي عنها ، فالنهي هنا يقتضي التحريم لما تفضي إليه هذه الزيارة من الشرك بالله تعالى .

نماذج من توحيد الألوهية :

ثم يورد المقريزي رحمه الله ما يبرهن به على توحيد الألوهية من الأدلة النقلية التي توضح عناية السلف رحمهم الله بتحقيق التوحيد وتجريده من الشوائب التي تعلق به فيقول : وقد حمى النبي صلى الله عليه وسلم جانب التوحيد أعظم حماية تحقيقاً لقوله تعالى (إياك نعبد...) ، حتى نهي عن الصلاة في هذين الوقتين [1]، لكونهما ذريعة إلى التشبه بعباد الشمس الذين يسجدون لها في هاتين الحالتين ، وأما السجود لغير الله، فقال عليه الصلاة والسلام : " لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد إلا الله "[2] ولا ينبغي (في كلام الله ورسوله) إنما يستعمل للذي هو في غاية الامتناع كقوله تعالى (وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً) [3] وقوله تعالى (وما علمناه الشعر وما ينبغي له) [4] وقوله تعالى (وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم)[5] ، وقوله تعالى (ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء) [6] .

ومن الشرك بالله تعالى المباين لقوله تعالى(إياك نعبد) الشرك به في اللفظ كالحلف بغيره كما رواه الإمام أحمد وأبو داود عنه صلى الله عليه وسلم

---

(١) أي بعد صلاة الفجر وبعد صلاة العصر.

(٢) أخرجه الترمذي ٣/ ٤٦٥ .

(٣) مريم آية ٩٢ .

(٤) يس ٦٩ .

(٥) الشعراء آية ٢١٠ ، ٢١١ .

(٦) الفرقان آية ١٨ .

أنه قال (من حلف بغير الله فقد أشرك)[1] .

ومن الإشراك بالله قول القائل لأحد من الناس: (ما شاء الله وشئت).

كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال له رجل: ما شاء الله وشئت، فقال: (أجعلتني لله نداً ؟ ، قل ما شاء الله وحده) [2] ، هذا مع أن الله سبحانه قد أثبت للعبد مشيئة كقوله تعالى (لمن شاء منكم أن يستقيم)[3] .

فكيف بمن يقول: أنا متوكل على الله وعليك، وأنا في حسب الله وحسبك، ومالي إلا الله وأنت، وهذا من الله ومنك، وهذا من بركات الله وبركاتك،، الله لي في السماء وأنت لي في الأرض؟! وازن بين هذه الألفاظ الصادرة من غالب الناس اليوم وبين ما هي عنه من: (ما شاء الله وشئت) ، ثم انظر أيهما أفحش؟

يتبين لك أن قائلها أولى بالبعد من (إياك نعبد) وبالجواب من النبي صلى الله عليه وسلم لقائل تلك الكلمة، وأنه إذا كان قد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم نداً فهذا قد جعل من لا يدانيه لله نداً [4].

قلت: إن كلام المقريزي يدل على اهتمامه بهذا الجانب المهم من التوحيد فكم وقع فيه من أناس في قديم الزمان وحديثه، وما زال الناس إلى يومنا

---

(١) مسند الإمام أحمد ٣٤/٢ ، وسنن أبي داود ٥٧٠/٣ .

(٢) البخاري الأدب المفرد ص ٢٣٤

(٣) التكوير آية ٢٨ .

(٤) تجريد التوحيد المفيد ٦٥ - ٦٦ .

هذا يقعون في مثل هذه الكلمات الشركية، وقد درج عليها كثير من الناس حتى أن من ينكرها أو ينبه على الخطأ الفاحش فيها، قد يرد قوله أو يرمى بالتشدد والتنطع.

وهـــذا يدل على أمية الناس في باب الاعتقاد وعدم اهتمامهم بهذا الجانب الذي يقدح في التوحيد.

نماذج من أنواع العبادة

ثم يسوق المقريزي دلائل على العبادة الحقة التي يجب على العبد أن يقوم بها وأن يجعلها خالصة لله فيقول:

وبالجملة، فالعبادة المذكورة في قوله: (إياك نعبد) هي

السجود، والتوكل، والإنابة، و التقوى، والخشية، والتوبة، والنذور، والحلف والتسبيح والتكبير، والتهليل، والتحميد، والاستغفار، وحلق الرأس خضوعاً وتعبداً والدعاء: كل ذلك محض حق الله تعالى [1].

ويبين المقريزي رحمه الله في كتابه تجريد التوحيد المفيد مباحث شتى كل مبحث فيها يحتاج إلى وقفة ونظر واستقصاء ، نظرا لأهمية الموضوع ومساسه بالواقع الذي يعيشه الناس اليوم، ولكثرة ما وقع فيه الناس من الأخطاء التي تدل على عدم الاهتمام بهذه القضايا العقائدية التي لا يسلم للمرء عقيدة بدون تحققها.

---

(١) تجريد التوحيد المفيد ص ٦٦ .

فأذكـــر هـــنا إشـــارات وعناوين لما ذكره المقريزي في كتابه على سبيل الاختصار للدلالة على أهمية الموضوع .

- الشرك في الإرادات والنيات.
- الشرك شركان: شرك متعلق بذات المعبود، وشرك في عبادته ومعاملته.
- شرك التعطيل: أقسام شرك التعطيل، شرك التمثيل، حقيقة الشرك.
- أصل ضلال الطوائف راجع إلى شيئين:

١- سوء ظنهم بالله

٢- أنهم لم يقدروا الرب حق قدره.

- أقسام الناس في عبادة الله واستعانته.
- أقسام الناس في الإخلاص والمتابعة.
- الخلاف في أفضل العبادة وأنفعها.
- العبادة هي التي وجدت الخلائق لأجلها.
- حقيقة العبادة .
- أصل العبادة: محبة الله بل إفراده بها.

وكـــل هـــذه المباحث التي سقت عناوينها وغيرها يدل دلالة واضحة على أهمية ما ذهب إليه السلف رحمهم الله.

فقد عني السلف هذه القضايا عناية تامة كشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وتلميذه ابن القيم، ومن ثم سار على هذا النهج المقريزي في كتابه التجريد .

وفي القرن الثاني عشر قام الشيخ المجدد محمد بن عبدالوهاب عليه رحمة الله وأبناؤه بطرق هذا الموضوع والكتابة فيه لما له من أهمية كبرى في حياة الأمة المؤمـــنة، فـــلا صلاح لاعتقاد ولا فلاح في عبادة إلا بتحقيق هذه المقاصد والقيام بها على أكمل وجه.

لأن حقيقة العبادة هي امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه.

وحقيقة الاعتقاد هي أن يُسلم العبد كل جوارحه لخالقه ومولاه فلا يصدر عن أمر إلا إذا أمر الله ورسوله به، ولا يقدم محبوباً على محبة الله ورسوله، وأن يرى الأمور كلها من الله تعالى فيقطع الالتفات عن الأسباب والوسائط فلا يرى الخير إلا من الله تعالى ، فإذا تحقق له هذا المقام فإنه يثمر حسن توكل ورضا بما قدر الله وتسليماً لحكمه وأمره.

وهكذا كان سلفنا الصالح رضوان الله عليهم لهم عناية جادة بكل ما يثمر براً وينتج خيراً ويربي أمة على عقيدة لا إله إلا الله محمد رسول الله.

المبحث الثالث : توحيد الأسماء والصفات

إن الحديث عن الأسماء والصفات من القضايا المهمة في عقيدة المسلم، إذ لا يقبل من أحد عقيدة وهو منكر لأسماء الله وصفاته التي بها يعرف الرب عز وجل ، وهو أحد أنواع التوحيد الثلاثة التي بترك واحد منها وجحده يهدم توحيد المرء ، والإيمان بواحد منها يقتضي الإيمان بها جميعاً وعن طريقها تكمن العقيدة الصحيحة وبها يدعى الله عز وجل ويتقرب إليه بالطاعات والعبادات (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون) [1] ، ولذا فإن الصحابة رضي الله عنهم تعلموا هذا النوع من التوحيد من فم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفوه حق المعرفة وآمنوا به إيماناً لا يخالطه شك ولا يمازجه ريب فكان ثمرة ذلك أن المؤمن قد تعرف على الله معرفة صادقة من خلال معرفته للأسماء والصفات التي أخبرنا الله تعالى بها.

فعندما علم بأن الله هو الخالق والرازق لم يطلب الرزق إلا منه، وعندما تعرف على الله العليم الحكيم سلم الأمر له كله، وعندما تعرف أنه متفرد بالخلق والأمر، خضع لأمره وحكمه، وعندما

تعرف عليه سميعاً بصيرا، امتلأت نفسه تقوى وخشية له سبحانه وتعالى ولذلك كان الصحابة رضوان الله عليهم يعلمون أسماء الله وصفاته ويعرفونها حق المعرفة لأنها من أنواع التوحيد الذي يقربهم من الله عز وجل ولا يعذر بتركه مؤمن.

---

(١) الأعراف ١٨٠ .

وسار على نهجهم وهديهم السلف الصالح رضوان الله عليهم يتناقلون العقيدة الصحيحة حتى ظهرت الفتنة وخرج رؤوس البدع وأحدثوا في الدين ما ليس منه.

وكان الناس بعدها فريقان، فريق يدعو إلى الحق ويأمر به، وآخر يدعو إلى الضلالة ويؤز الناس إليها أزا.

وكان بحمد الله وفضله أن الله قد حفظ لهذه الأمة أمر دينها فيسر لها رجالاً يذبون عنها ضلال المنحرفين وخرافات المضلين، ليبقى هذا الدين نقياً صافياً كما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم. ولقد كان للمقريزي رحمه الله دور مهم في هذا الباب، ولا سيما وأن عصره قد كان قريب عهد بعصر شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله وتلميذه ابن القيم ومعلوم ما لهذين الرجلين من عداء شديد عند كثير من أرباب البدع وأصحاب النحل المختلفة.

فأبان المقريزي في مختصر كلامه عقيدة السلف في الأسماء والصفات وبما كانوا عليه من سلامة في الاعتقاد وفهم لنصوص الكتاب والسنة وبعد عن المناهج الكلامية.

فقال:

اعلم أن الله تعالى لما بعث من العرب نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم رسولاً إلى الناس جميعا، وصف لهم ربهم سبحانه وتعالى ، بما وصف به نفسه الكريمة في كتابه العزيز الذي نزل به على قلبه صلى الله عليه وسلم الروح الأمين بما أوحى إليه ربه تعالى، فلم يسأله أحد من العرب بأسرهم، قرويهم وبدويهم عن نفي شيء من ذلك، كما كانوا يسألونه صلى الله عليه وسلم عن أمر الصلاة والزكاة والصيام والحج وغير ذلك مما لله فيه سبحانه أمر ونهى، وكما سألوه صلى الله عليه وسلم عن أحوال القيامة والجنة والنار، إذ لو سأله إنسان عن شيء من الصفات الإلهية لنقل كما نقلت الأحاديث

الـــواردة عنه صلى الله عليه وسلم في أحكام الحلال والحرام وفي الترغيب والترهيـــب، وأحوال القيامة والملاحم والفتن ونحو ذلك مما تضمنته كتب الحديـــث، معاجمهـــا ومســـانيدها وجوامعها، ومن أمعن النظر في دواوين الحديـــث النبوي، ووقف على الآثار السلفية، علم أنه لم يرد قط من طريق صـــحيح ولا ســـقيم عن أحد من الصحابة رضى الله عنهم على اختلاف طـــبقاهم وكثرة عددهم أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيء مما وصف الرب سبحانه به نفسه الكريمة في القرآن الكريم، وعلى لسان نبيه محمـــد صلى الله عليه وسلم بل كلهم فهموا معنى ذلك وسكتوا عن الكلام في الصـــفات، نعم ولا فرق أحد منهم بين كونها صفة ذات أو صفة فعل وإنما أثبتوا له تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة والإرادة والسمع والبصر والكلام والجلال والإكرام والجود والإنعام والعز والعظمة، وساقوا الكلام سوقاً واحداً.

وهكـــذا أثبتوا رضي الله عنهم ما أطلقه الله سبحانه على نفسه الكريمة من الوجه واليد ونحو،ذلك، مع نفى مماثلة المخلوقين، فأثبتوا رضي الله عنهم بلا تشـــبيه ونزهوا من غير تعطيل، ولم يتعرض مع ذلك أحد منهم إلى تأويل شيء من هذا ورأوا بأجمعهم إجراء الصفات كما وردت ولم يكن عند أحد منهم ما يستدل به على وحدانية الله تعالى وعلى إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم سوى كتاب الله، ولا عرف أحد منهم شيئاً من الطرق الكلامية ولا مسائل الفلسفة [1].

---

(١) الخطط ١٨٨/٤ .

إن ما ذكره المقريزي مختصراً هو عين الحق الذي كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم، إذ هم أهل اللغة والفصاحة والبيان فكانوا يفهمون ما يقرءون.
وفوق ذلك كله فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعلمهم ما ينفعهم في اعتقادهم وما يقولونه بألسنتهم في ربهم ومعبودهم الذي معرفته غاية المعارف. فتم لهم حسن الاعتقاد وسلامة المقصد بأقصر طريق وأوجز عبارة.
وما ذكره المقريزي:
من عدم سؤال الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى شيء من الصفات لأمرين مهمين: الأول منهما أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعلمهم ما يعتقدونه في ربهم وخالقهم ويخبرهم بما ظاهره ضلال وإلحاد ويبين لهم الحق فيه.
الثاني: سلامة لغتهم وحسن قصدهم أدى إلى فهم أسماء الله وصفاته فسكتوا عن الكلام والسؤال عن ما قد فهموه وأدركوه،ولو لم يفهموه لما سكتوا عن السؤال عن أمر مهم به صلاح أمرهم واستقامة اعتقادهم.
يقول الإمام ابن القيم في مختصر الصواعق:
والمقصود أن الله تعالى أكمل للرسول ولأمته به دينهم وأتم عليهم به نعمته، ومحال مع هذا أن يدع ما خلق له الخلق وأرسل به الرسل وأنزلت به الكتب ونصبت عليه القبلة وأسست عليه الملة وهو باب الإيمان به ومعرفته بأسمائه وصفاته وأفعاله ملتبساً مشتبهاً حقه بباطله لم يتكلم فيه بما هو الحق.
فكيف يكون أفضل الرسل وأجل الكتب غير واف بتعريف ذلك على أتم الوجوه مبين له بأكمل البيان موضح له غاية الإيضاح مع شدة حاجة النفوس إلى معرفته وهو أفضل ما اكتسبته النفوس وأجل ما حصلته القلوب.
من المحال أن يكون صلى الله عليه وسلم قد علمهم آداب الغائط قبله وبعده ومعه وآداب الوطء والطعام والشراب ويترك أن يعلمهم ما يقولونه

بألســـنتهم ويعتقدونه بقلوبهم في ربهم ومعبودهم الذي معرفته غاية المعارف والوصـــول إلـــيه أتم المطالـــب وعبادته وحده لا شريك له اقرب الوسائل ويخـــبرهم بمـــا ظاهره ضلال وإلحاد ويحيل في فهم ما أخبر به عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله على مستكرهات التأويل وما تحكم به عقولهم هذا وهو القائل: (تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك) [1] ﷺ وهـــو القائل: (ما بعث الله من نبي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينهاهم عن شرما يعلمه لهم) [2].

وقال أبو ذر: (توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علما) [3].

وقـــال عمـــر بن الخطاب: (قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً فذكر بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم حفظ ذلك من حفظ ونسيه من نسيه) [4].

فكيف يتوهم من لله ورسوله في قلبه وقار أن يعتقد أن رسول الله صلى الله علـــيه وســـلم قـــد أمســـك عـــن بيان هذا الأمر العظيم و لم يتكلم به بالصواب، معاذ الله، بل لا يتم الإيمان إلا بأن يعتقد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بين ذلك أتم البيان وأوضحه غاية الإيضاح، و لم يدع بعده لقـــائل مقالاً، ولا لمتأول تأويلا ثم من المحال أن يكون خير الأمة وأفضلها

---

(١) رواه ابن ماجة ١٦/ ١ وأحمد ١٢٦/٤

(٢) مسلم في الإمارة ٤٧٣ ١/ ٣

(٣) رواه أحمد ١٦٢/ ٥

(٤) البخاري كتاب بدء الخلق ٢٨٦/ ٦ الفتح.

وأسبقها إلى كل خير قد قصروا في هذا الباب فجفوا عنه أو تجاوزوه فغلوا فيه، وإنما ابتلى من خرج عن منهجهم بهذين الداءين [١].

إذا الصـــحابة كانوا يؤمنون إيماناً قاطعاً وجازماً بأسماء الله وصفاته مما أخبر الله بـــه وأخبر به رسوله صلى الله عليه وسلم من الأسماء والصفات عن الله عز وجل فأثبتوا رضي الله عنهم بلا تشبيه ونزهوا من غير تعطيل.

ونحن نعتقد أنهم كانوا يفهمون ما يخاطبون به من ذلك كله وإلا لسألوا عنه واستفســروا عـــن معـــناه لتعلقه بالجانب الرئيسي في حياتهم وهو جانب الاعـــتقاد وقـــد رأينا أنهم حملوا سيوفهم في وجهه عندما لم يقتنعوا به ثم أصـــبحوا فيما بعد يفدونه بأرواحهم وأولادهم وأموالهم، ولن يفعلوا ذلك في ســـبيل ديـــن يجهلـــون عقيدته ولا يعرفون معناه وقال صاحب مفتاح السعادة: (أن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم على عقيدة واحدة لأنهم أدركوا زمان الوحي وشرف صحبة صاحبه وأزال عنهم ظلم الشكوك والأوهام) [٢].

ويقول ابن القيم: (وقد تنازع الصحابة رضى الله عنهم في كثير من مسائل الأحكام وهم سادات المؤمنين وأكمل الأمة إيماناً ولكن بحمد الله

---

(١)مختصر الصواعق لابن القيم ٧- ٨ .

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة لأبي القاسم اللالكائى تحقيق د ا أحمد سعد حمدان ١/ ١٨ .

لم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الأسماء و الصفات والأفعال) [1].

ويقـــول المقريـــزي مبيناً موقف أهل السنة والجماعة من آيات وأحاديث الصفات:

(وقد أجمع المسلمون قاطبة على جواز رواية الأحاديث الواردة في الصفات ونقلها وتبليغها من غير خلاف بينهم في ذلك، ثم أصبح أهل الحق على أن هذه الأحاديث مصروفه عن احتمال مشابهة الخلق لقوله تعالى (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)[2].

ولقول الله تعالى (قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد و لم يولد ، و لم يكن له كفواً أحد)[3].

وقـــد عظم رسول الله صلى الله عليه وسلم شأنها، ورغب أمته في تلاوتها حتى جعلها تعدل ثلث القرآن من أجل أنها شاهدة بتنـــزيه الله تعالى، وعدم الشـــبه والمثل له سبحانه، وسميت سورة الإخلاص لاشتمالها على إخلاص التوحيد من أن يشوبه ميل إلى تشبيهه بالخلق.

فـــإذا ثبـــت إجمـــاع المسلمين على جواز رواية هذه الأحاديث ونقلها مع إجمـــاعهم على أنها مصروفة عن التشبيه، لم يبق في تعظيم الله تعالى بذكرها إلا نفـــي التعطـــيل لكون أعداء المرسلين سموا ربهم سبحانه أسماء نفوا فيها صفاته العلا، فقال قوم منهم هو طبيعة .

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة لأبي القاسم ١/١٨ وانظر إعلام الموقعين ١/٤٩ .

(٢) الشورى ١١ .

(٣) سورة الإخلاص .

وقـــال آخرون منهم هو علة، إلى غير ذلك من إلحادهم في أسمائه سبحانه، فقـــال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الأحاديث المشتملة على ذكر صـــفات الله العلا، ونقلها عنه أصحابه البررة ثم نقلها عنهم أئمة المسلمين حـــتى انتهت إلينا، كل منهم يرويها بصفتها من غير تأويل لشيء منها مع علمـــنا أنهم كانوا يعتقدون أن الله سبحانه وتعالى (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) ففهمنا من ذلك أن الله تعالى أراد بما نطق به رسوله صلى الله علـــيه وسلم من هذه الأحاديث، وتناولها عنه الصحابة رضى الله عنهم وبلغوها لأمته، أن يغص بها في حلوق الكافرين، وأن يكون !ذكرها نكتاً في قلب كل ضال معطل مبتدع يقفو أثر المبتدعة من أهل الطبائع وعباد العلل، فلذلـــك وصف الله نفسه الكريم بها في كتابه ووصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً بما صح عنه وثبت ، فدل على أن المؤمن إذا اعتقد أن الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير وأنه صمد لم يلد و لم يولد و لم يكن لـــه كفواً أحد كان ذكره لهذه الأحاديث تمكين الإثبات وشجاً في حلوق المعطلـــة ، وقد قال الشافعي رحمه الله: (الإثبات أمكن) نقله الخطابي و لم يبلغـــنا عن أحد من الصحابة والتابعين وتابعيهم أنهم أولو هذه الأحاديث، والـــذي يمنع من تأويلها إجلال الله تعالى عن أن تضرب له الأمثال وأنه إذا نزل القرآن بصفة من صفات الله تعالى كقوله سبحانه (يد الله فوق أيديهم) [1] فإن نفس تلاوة هذا يفهم منها السامع المعنى المراد به، وكذا قوله تعالى (بـــل يداه مبسوطتان) [2] عند حكايته تعالى عن اليهود نسبتهم إياه إلى

---

(١)الفتح آية ١٠

(٢) المائدة آية ٦٤ .

البخل فإن نفس تلاوة هذا مبينه للمعنى المقصود، وأيضاً فإن تأويل هذه الأحاديث يحتاج أن يضرب لله تعالى فيها المثل نحو قولهم في قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) [1] الاستواء الاستيلاء، كقولك استوى الأمير على البلد وأنشدوا:

قد استوى بشر على العراق .

فلزمهم تشبيه الباري تعالى ببشر، وأهل الإثبات نزهوا إجلال الله عن أن يشبهوه بالأجسام حقيقة ولا مجازا.

ولذلك لم يتأول السلف شيئا من أحاديث الصفات مع علمنا قطعا أنها عندهم معروفة عما يسبق إليه ظنون الجهال من مشابهتها لصفات المخلوقين وتأمل تجد الله تعالى لما ذكر المخلوقات المتولدة من الذكر والأنثى في قوله تعالى (خلق لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجا يذرؤكم فيه) [2].

علم سبحانه ما يخطر بقلوب الخلق، فقال عز من قائل (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) [3]، [4].

ولله در المقريزي في ما نقل وذكر من مذهب أهل السنة والجماعة في أسماء الله وصفاته فذلك هو الحق الذي لا ريب فيه، صدع به

---

(١) طه (٥).

(٢) الشورى (١١).

(٣) الشورى (١١).

(٤) الخطط ٤/ ١٩٦، ١٩٧ .

الصحابة رضوان الله عليهم وتناقله أهل الحق كابراً عن كابر وسيبقى كذلك ما بقى ليل ونهار وأشرقت شمس ونور قمر.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : " ومن الإيمان بالله، الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه العزيز، وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل يؤمنون بأن الله (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) [١] فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون في أسماء الله وآياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه [٢] .

وما ذكره شيخ الإسلام هنا من بيان مذهب أهل السنة والجماعة في الإيمان بصفات الله عز وجل الواردة في كتاب الله وسنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم هو ما ذهب إليه المقريزي بقوله: (وقد أجمع المسلمون قاطبة على جواز رواية الأحاديث الواردة في الصفات ونقلها وتبليغها من غير خلاف بينهم في ذلك، كما أجمع أهل الحق منهم على أن هذه الأحاديث مصروفة عن احتمال مشابهة الخلق لقوله تعالى (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير).

قال الإمام أحمد رحمه الله لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله لا يتجاوز القرآن والحديث [٣] .

---

(١) ، (٣) الشورى آية ١١ .

(٢) العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام بشرح الشيخ محمد خليل هراس ٧٥ .

(٣) مجموع الفتاوى ٥/٢٦ .

ومذهب السلف أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل، ونعلم أن ما وصف الله بـــه نفسه من ذلك فهو الحق الذي ليس فيه لغز ولا أحاجى بل معناه يعـــرف من حيث يعرف مقصود المتكلم بكلامه، لا سيما إذا كان المتكلم أعـــلم الخلـــق بما يقول وأفصح الخلق في بيان العلم وأفصح الخلق في البيان والتعريف والدلالة والإرشاد .

وهـــو ســـبحانه مع ذلك ليس كمثله شيء ، لا في نفسه المقدسة المذكورة بأسمائـــه وصفاته ولا في أفعاله، فكما نتيقن أن الله سبحانه له ذات حقيقية وـــله أفعال حقيقية فكذلك له صفات حقيقية وهو ليس كمثله شيء لا في ذاتـــه ولا في صفاته ولا في أفعاله [1] وانظر إلى المعنى الحق الذي استقر في قلب المقريزي وعبر بقوله (فإن تأويل هذه الأحاديث يحتاج إلى أن يضرب لله تعالى فيها المثل ، نحو قولهم في قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) [2] الاستواء بمعنى الاستيلاء كقولك استوى الأمير على البلد وأنشدوا : قد استوى بشر على العراق انتهى كلامه .

يقول شيخ الإسلام : والمبطل لتأويل من تأويل استوى بمعنى استولى وجوه : أحدهـــا : أن هذا التفسير لم يفسره أحد من السلف من سائر المسلمين من الصحابة والتابعين ، فإنه لم يفسره أحد في الكتب الصحيحة عنهم بل أول مـــن قال ذلك بعض الجهمية والمعتزلة كما ذكره أبو الحسن الأشعري في كتاب (المقالات) وكتاب (الإبانة) .

---

(١) مجموع الفتاوى ٥/٢٦ .

(٢) طه آية ٥ .

الثاني : أن معنى هذه الكلمة مشهور ، ولهذا لما سئل ربيعة بن عبدالرحمن ومالك بن أنس عن قوله (الرحمن على العرش استوى) قالا : الاستواء معلوم ، و الكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .
ولا يريدان : الاستواء معلوم في اللغة دون الآية ، لأن السؤال عن الاستواء في الآية كما يستوي الناس .
الثالث : إنه إذا كان معلوماً في اللغة التي نزل بها القرآن كان معلوماً من القرآن .
الرابع: انه لو لم يكن معنى الاستواء في الآية معلوماً لم يحتج أن يقول: الكيف مجهول، لأن نفى العلم بالكيف لا ينفي إلا ما قد علم أصله كما نقول: إنا نقر بالله ونؤمن به، ولا نعلم كيف هو.
الخامس: الاستيلاء سواء كان. بمعنى القدرة أو القهر أو نحو ذلك هو عام في المخلوقات كالربوبية، والعرش وإن كان أعظم المخلوقات، ونسبة الربوبية إليه تنفى نسبتها إلى غيره، كما في قوله تعالى (قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم) [1]
وكما في دعاء الكرب، فلو كان استوى بمعنى استولى- كما هو عام في الموجودات كلها لجاز مع إضافته إلى العرش أن يقال: استوى على السماء وعلى الهواء والبحار والأرض وعليها ودونها ونحوها، إذ هو مستول على العرش .

---

(١) المؤمنون آية ٨٦ .

فلما اتفق المسلمون على أنه يقال استوى على العرش ولا يقال: استوى على هذه الأشياء مع انه يقال استولى على العرش والأشياء ، علم أن معنى استوى خاص بالعرش ليس عاماً كعموم الأشياء.

السادس: أنه أخبر بخلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش وأخبر أن عرشه كان على الماء قبل خلقها، وثبت ذلك في صحيح البخاري عن عمران بن حصين عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (كان الله ولا شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شي ثم خلق السموات والأرض) مع أن العرش كان مخلوقاً قبل ذلك، فمعلوم أنه مازال مستولياً عليه قبل وبعد فامتنع أن يكون الاستيلاء العام هذا الاستيلاء الخاص بزمان كما أن مختصا بالعرش.

السابع: انه لم يثبت أن لفظ استوى في اللغة بمعنى استولى، إذ الذين قالوا ذلك عمدهم البيت المشهور:

ثم استوى بشر على العراق   من غير سيف ولا دم مهراق

ولم يثبت نقل صحيح أنه شعر عربي وكان غير واحد من أئمة اللغة أنكروه وقالوا: انه بيت مصنوع لا يعرف في اللغة، وقد علم أنه لو احتج بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لاحتاج إلى صحته، فكيف ببيت من الشعر لا يعرف إسناده؟ وقد طعن فيه أئمة اللغة.

وذكر عن الخليل كما ذكره أبو المظفر في كتابه الإفصاح قال: سئل الخليل هل وجدت في اللغة استوى بمعنى استولى؟ فقال: هذا ما لا تعرفه العرب، ولا هو جائز في لغتها، وهو إمام في اللغة على ما عرف من حاله، فحينئذ حمله على مالا يعرف حمل باطل .

الثامن: انه روي عن جماعة من أهل اللغة أنهم قالوا: لا يجوز استوى بمعنى استولى إلا إذا كان في حق من كان عاجزاً ثم ظهر، والله سبحانه لا يعجزه شيء والعرش لا يغالبه في حال، فامتنع أن يكون بمعنى استولى.

فإذا تبين هذا فقول الشاعر:

ثم استوى بشر على العراق

لفظ مجازي لا يجوز حمل الكلام عليه إلا مع قرينة تدل على إرادته واللفظ المشـــترك بطـــريق الأولى، ومعلوم أنه ليس في الخطاب قرينة انه أراد بالآية الاستيلاء.

وأيضـــاً فأهل اللغة قالوا: لا يكون استوى بمعنى استولى إلا إذا كان منازعاً مغالــباً، فـــإذا غلب أحدهما صاحبه قيل: استولى، والله لم ينازعه أحد في العرش .

فلو ثبت استعماله في هذا المعنى الأخص مع النـــزاع في إرادة المعنى الأعم لم يجب حمله عليه بمجرد قول بعض أهل اللغة مع تنازعهم وفي حديث عدي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بدابته فلما وضع رجله في الغرز قال (بسم الله) فلما استوى على ظهرها قال: (الحمد لله).

التاســع: انه لو ثبت انه من اللغة العربية لم يجب أن يكون من لغة العرب العـــرباء، ولو كان من لفظ بعض العرب العرباء لم يجب أن يكون من لغة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

العاشـــر: انـــه لو حمل على هذا المعنى لأدى إلى محذور يجب تنـــزيه بعض الأئمة عنه، فضلاً عن الصحابة، فضلاً عن الله ورسوله، فلو كان الكلام في الكـــتاب والسنة كلاماً نفهم منه معنى ، ويريدون به آخر، لكان في ذلك تدليس وتلبيس، ومعاذ الله أن يكون ذلك، فيجب أن يكون استعمال هذا الشـــاعر في هـــذا اللفظ في هذا المعنى ليس حقيقة بالاتفاق، بل حقيقة في غيره، ولو كان حقيقة فيه للزم الاشتراك المجازي فيه، فإذا كان مجازا عن

بعـــض العرب أو مجازاً اخترعه من بعده أفنترك اللغة التي يخاطب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته؟!

الحـــادي عشـــر: أن هذا اللفظ الذي تكرر في الكتاب والسنة والدواعي مـــتوفرة عـــلى فهم معناه من الخاصة والعامة عادة وديناً، أفنجعل الطريق إلى فهمـــه ببيـــت شعر أحدث فيؤدي إلى محذور، فلو حمل على معنى هذا البيـــت للـــزم تخطئة الأئمة الذين لهم مصنفات في الرد على من تأول ذلك ولكان يؤدي إلى الكذب على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والصحابة والأئمـــة، وللـــزم أن الله امتحن عباده بفهم هذا دون هذا مع ما تقرر في نفوسهم وما ورد به نص الكتاب والسنة، والله سبحانه لا يكلف نفساً إلا وســـعها وهـــذا مستحيل على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والصحابة والأئمة

الـــثاني عشـــر: أن معنى الاستواء معلوم علما ظاهرا بين الصحابة والتابعين وتابعـــيهم فـــيكون التفسير المحدث بعده باطلا قطعا، وهذا قول يزيد بن هـــارون الواســـطي فإنـــه قال: إن من قال: (الرحمن على العرش استوى) خلاف ما تقرر في نفوس العامة فهو جهمي .

ومـــنه قـــول الإمام مالك: الاستواء معلوم وليس المراد أن هذا اللفظ في القرآن معلوم كما قال بعض الناس: استوى أم لا؟ ، أو أنه سئل عن الكيفية ومـــالك جعلها معلومة. والسؤال عن النـــزول ولفظ الاستواء ليس بدعة ولا الكـــلام فيه، فقد تكلم فيه الصحابة والتابعون وإنما البدعة السؤال عن الكيفية [1].

---

(١) مجموع الفتاوى ٥/١٤٤-١٤٨ .

والحـــق مـــا ذهـــب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية في بيان معنى الاستواء وتوضـــيحه أكمل توضيح وأجل بيان ونقلت هذا الكلام الذي ساقه ساقها رحمه الله لنفاسته وبيان أهميته ، إذ أن كثير من أهل البدع يعتمد على هذا البيـــت مـــن الشـــعر الذي فصل القول فيه ابن تيميه وأبان بطلانه بتلك الوجوه المختلفة من الأقوال الجامعة.

فـــأهل الســـنة والجماعـــة يقفون من آيات وأحاديث الصفات كما ذكر المقريـــزي موقف الحق والعدل والإنصاف فلا تأويل ولا نفى وإنما رضاً بما أنزل الله ورسوله ، والمتأمل في ذلك يجده عين الصواب والرضى والبعد عن الخلل والزلل وانظر إلى أئمة التفسير كالطبري والبغوي وابن كثير وغيرهم كثير من أئمة التفسير ونقلهم مذهب أهل السنة والجماعة وردهم على اصل البدع والأهواء من الأشاعرة والمعتزلة وغيرهم ممن خالف المنهج الحق .

يقول ابن جرير الطبري رحمه الله في معنى الاستواء : وأولى المعاني لقول الله جـــل ثـــناؤه: (ثم اســـتوى إلى السماء فسواهن) [١] علا عليهن وارتفع فدبرهن بقدرته وخلقهن سبع سموات [٢] .

---

(١) البقرة آية ٢٩ .

(٢) تفسير ابن جرير ٤٣٠/١ .

وقال البغوي رحمه الله في تفسير قوله تعالى (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش)[(١)] ، قال الكلبي ومقاتل: استقر ،وقال أبو عبيدة: صعد، وأولت المعتزلة الاستواء بالاستيلاء، وأما أهل السنة فيقولون الاستواء على العرش صفة لله تعالى
بلا كيف، يجب على الرجل الإيمان به، ويكل العلم فيه إلى الله عز وجل، وسأل رجل مالك عن قوله تعالى (الرحمن علي العرش استوى)[(٢)] كيف استوى ؟ ، فأطرق رأسه ملياً وعلاه الرحضاء ، ثم قال الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة، وما أضنك إلا ضال ثم أمر به فأخرج .
وروي عن سفيان الثوري، والاوزاعى، والليث بن سعد وسفيان بن عيينة وعبدالله بن المبارك وغيرهم من علماء السنة في هذه الآيات التي جاءت في الصفات المتشابهات أمررها كما جاءت كيف [(٣)] .
وقال ابن كثير في الآية الآنفة الذكر.
فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً، ليس هذا موضع بسطها، وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح، مالك والأوزاعي، والثوري وليت بن سعد، والشافعي ، وأحمد، واسحاق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديما وحديثا وهو امرارها كما جاءت من غير تكييف

(١) الأعراف آية ٥٤ .

(٢) طه آية ٥ .

(٣) تفسير البغوي ٢/٢٣٨ .

ولاتشبيه، ولاتعطيل، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله فإن الله لا يشـــبهه شيء من خلقه، وليس كمثله شيء وهو السميع البصير، بل الأمــــر كما قال الأئمة منهم نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري قال: من شـــبهه الله بخلقه كفر ومن جحد ما وصف الله به فقد كفر، وليس فيه ما وصـــف الله بـــه نفسه ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة، على الوجه الذي يليق بجلاله ونفي عن الله النقائص فقد سلك سبيل الهدى [1] .

ومـــا ذكره ابن كثير هو عمدة الحق والعدل والصواب وهو ما ذهب إليه المقريزي في قوله:

(وأهـــل الإثـــبات نـــزهو إجـــلال الله من أن يشبهوه بالأجسام حقيقة ولا مجازاً).

وأسوق هنا كلاماً نفيساً للشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله في تفسير قوله تعالى(ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار) [2] هذه الآية الكريمة وأمـــثالها مـــن آيـــات الصـــفات كقوـــله (يـــد الله فـــوق أيديهم)[3] ونحو ذلك أشكلت على كثير من الناس إشكالاً ضل بسببه خلق لا يحصـــى كثرة، فصار قوم إلى التعطيل وقوم إلى التشبيه سبحانه وتعالى علـــواً كـــبيراً عـــن ذلـــك كلـــه، والله جـــل وعـــلا أوضح هذا غاية

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٢٠ .

(٢) الأعراف آية ٥٤ .

(٣) الفتح آية ١٠ .

الإيضـــاح، و لم يترك فيه لا لبس ولا إشكال، وحاصل تحرير ذلك أنه جل وعلا بين أن الحق في آيات الصفات مركب من أمرين:

أحدهما: تتزيه الله جل وعلا عن مشابهة الحوادث في صفاهم سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيرا.

والـــثاني: الإيمان بكل ما وصف الله به نفسه في كتابه، أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم ، لأنه لا يصف الله أعلم بالله من الله، (أ أنتم أعلم أم الله) [1] ، ولا يصـــف اله بعد الله أعلم بالله من رسول الله صلى الله عليه وســـلم الـــذي قـــال فـــيه (ومـــا يـــنطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى) [2]

فمن نفى عن الله وصفاً أثبته لنفسه في كتابه العزيز، أو أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم زاعماً أن ذلك الوصف يلزمه ما لا يليق بالله جل وعلا فقد جعل نفسه أعلم من الله ورسوله بما يليق بالله جل وعلا سبحانك هذا بهتان عظيم! .

ومن اعتقد أن وصف الله يشابه صفات الخلق، فهو مشبه ملحد ضال، ومن أثبـــت لله ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم مع تتريهه جـــل وعلا عن مشابهة الخلق فهو مؤمن جامع بين الإيمان بصفات الكمال والجلال، والتتريه عن مشابهة الخلق، سالم من ورطة التشبيه والتعطيل، والآية الـــتي أوضـــح الله بها هذا في قوله تعالى (ليس كمثله شيء وهو السميع البصـــير) فـــنفى عـــن نفســـه جـــل وعـــلا مماثلـــة الحـــوادث

---

(١) البقرة آية ١٤٠ .

(٢) النجم الآيات ٣ - ٤

بقولـــه(لـــيس كمثله شيء) واثبت لنفسه صفات الكمال والجلال بقوله (وهو السميع البصير) .

فصـــرح في هـــذه الآية الكريمة بنفي المماثلة مع الاتصاف بصفات الكمال والجلال.

والظاهر أن السر في تعبيره بقوله (وهو السميع البصير)دون أن يقول مثلاً : وهـــو العلي العظيم أو نحو ذلك من الصفات الجامعة ،أن السمع والبصر يتصف بها جميع الحيوانات .

فـــبين أن الله متصـــف بهما، ولكن وصفه بهما على أساس نفى المماثلة بين وصفه تعالى وبين صفات خلقه.

ولذا جاء بقوله(وهو السميع البصير) بعد قوله (ليس كمثله شيء) نفي هـــذه الآيـــة الكـــريمة إيضـــاح لـــلحق في آيـــات الصفات لا لبس معه ولا شبهـــة البتة [1] .

إذاً فقد أبان المقريزي في ما ذكره جامع قول أهل السنة والجماعة في آيات وأحاديث الصفات ، وقد أوردت هذه النقولات حول صفة الاستواء لأنها مـــتكأ كـــثير من الفرق الضالة في التأويل كالمعتزلة والأشاعرة لاستنادهم الباطل على قول الشاعر:

قد استوى بشر على العراق   من غير سيف ولا دم مهراق

والمقريـــزي قد بين في مجمل كلامه القواعد العامة التي يرتكز عليها مذهب أهل السنة والجماعة في الأسماء والصفات وموقفهم الوسط بين فرق الضلال وكيف هدى الله أهل الحق للحق وأضل أقواماً عن الهدى ودين الحق.

---

(١) أضواء البيان للشنقيطي ٢/٣٠٤ – ٣٠٥ .

ومـــا أجل كلامه رحمه الله إذ يقول: وأصل كل بدعة في الدين البعد عن كلام السلف والانحراف عن اعتقاد الصدر الأول [١].

نعـــم إن أصل كل بدعة هو البعد عن كلام السلف وتركه وراءهم ظهرياً والجـــري والـــلهف خلـــف سراب لا يغني من الحق شيئاً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .

يقول اللالكائى حاثاً على التمسك بما كان عليه السلف الصالح رحمهم الله: فهـــلم الآن إلى تديـــن المتـــبعين وســـيرة المتمســـكين وسبيل المتقدمين بكـــتاب الله وسنته والمنادين بشرائعه وحكمته الذين قالوا (آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين)[٢] .

وتنكبوا سبيل المكذبين بصفات الله وتوحيد رب العالمين فاتخذوا كتاب الله إماماً وآياته فرقاناً ونصبوا الحق بين أعينهم عياناً وسنن رسول الله صلى الله علـــيه وســـلم جنة وسلاحاً واتخذوا طرقها منهاجاً وجعلوها برهاناً فلقوا الحكمـــة ووقـــوا من شر الهوى والبدعة لامتثالهم أمر الله في اتباع الرسول وتركهم الجدال بالباطل ليدحضوا به الحق.

يقـــول الله عـــز وجل فيما يحث على اتباع دينه والاعتصام بحبله والاقتداء برسوله صلى الله عليه وسلم (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمـــة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنـــتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون)[٣] .

---

(١) الخطط والآثار ٤/١٩٨ .

(٢) آل عمران آية ٥٣ .

(٣) آل عمران آية ١٠٣ .

وروى العرباض بن سارية قال: وعظنا رسول الله موعظة دمعت منها الأعين ووجلت منها القلوب ، فقلنا يا رسول الله موعظة مودع فبما تعهد إلينا ، فقال : " قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك ومن يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بما عرفتم سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة ضلالة)[1] .

ويقول ابن القيم مبينا طريق الذين ضلوا عن سبيله وتنكبوا الصراط وأخذوا بالرأي والهوى وتركوا الكتاب والسنة واتبعوا الأهواء فيقول:

لما أعرض الناس عن تحكيم الكتاب والسنة، والمحاكمة إليها واعتقدوا عدم الاكتفاء بهما وعدلوا إلى الآراء والقياس والاستحسان وأقوال الشيوخ عرض لهم من ذلك فساد في نظرهم ، وظلمة في قلوبهم، وكدر في أفهامهم ومحق في عقولهم، وعمتهم هذه الأمور حتى ربي فيها الصغير وهرم عليها الكبير، فلم يردها منكراً ، فجاءهم دولة أخرى، قامت فيها البدع مقام السنن والنفس مقام العقل والضلال مقام الهدى والجهل مقام العلم)[2]

ومما قاله شيخ الإسلام رحمه الله فيما صنفه من الرد على الزنادقة والجهمية : " الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم، يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون فيهم على الأذى

---

(١) أصول اعتقاد أهل السنة و الجماعة للالكائي ١ / ٢١-٢٢ والحديث رواه ابن ماجه في المقدمة ١٦/١ باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين .

(٢) الفوائد لابن القيم ص ٤٨ .

يحـــيون بكـــتاب الله الموتى ويبصرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبلـــيس أحيوه، وكم تائه ضال قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس، وأقـــبح أثـــر الـــناس عليهم، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين وانتحال المـــبطلين، وتـــأويل الجـــاهلين الذيـــن عقـــدوا ألويـــة الـــبدعة..." (١)

والحق أن من خرج عن طريق السلف الصالح واتبع هواه فلا بد أن يقع في طـــريق من طرق الغواية والضلال، وما حال تلك الفرق المختلفة إلا نتاج واضح لتركها ما كان عليه الصدر الأول من هذه الأمة من اعتقاد صحيح وطـــريق مليح، فكان ما كان من تدابر وتناحر وتقاتل، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك.

وهذا يكون المقريزي قد وضح مذهب أهل السنة والجماعة في باب الأسماء والصفات وأنه المنهج الحق الذي لا يزيغ عنه إلا هالك .

---

(١) درء التعارض في العقل والنقل لشيخ الإسلام ١/ ١٨ .

الفصل الثالث : القدر وخلق أفعال العباد

معنى القضاء في اللغة :

ومعنى القضاء في اللغة هو إحكام الشيء وإتمام الأمر وهذا هو أصل معنى القضاء وإليه ترجع جميع معاني القضاء الواردة في اللغة ، وقد يأتي بمعنى القدر [1] .

ويطلق القدر على الحكم والقضاء [2] ومن ذلك حديث الاستخارة وفيه : (فاقدره لي ويسره لي) [3] .

وقدرت الشيء أقدره من التقدير ، ومنه الحديث (فإن غم عليكم فاقدروا له) [4] أي اقدروا له عدد الشهر حتى تكملوه ثلاثين يوماً .

ومن معاني القضاء إتقان الأمر واحكامه و إنفاذه ، ومن معانيه أيضاً الأمر ، والحكم ، والإعلام كما أن من معاني القدر التقدير والله سبحانه وتعالى قدر مقادير الخلق ، فعلمها وكتبها وشاءها وخلقها وهي مقضية ومقدرة فتقع حسب أقدارها .

معنى القضاء والقدر شرعاً :

هو تقدير الله تعالى الأشياء في القدم وعلمه سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده وعلى صفات مخصوصة وكتابته سبحانه لذلك ومشيئته، ووقوعها على حسب ما قدرها وخلقه لها [5].

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ٤٢٢ .

(٢) لسان العرب ٥/٧٤ .

(٣) رواه البخاري مع الفتح ٣/٤٨ .

(٤) رواه البخاري مع الفتح ٤/١١٩ .

(٥) العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٦٥ .

أهمية الموضوع :

يقول ابن القيم مبيناً أهمية القضاء والقدر في حياة المسلم :

فإن أهم ما يجب معرفته على المكلف النبيل، فضلاً عن الفاضل الجليل ما ورد في القضاء والقدر والحكمة والتعليل، فهو من أسنى المقاصد، والإيمان به قطب رحى التوحيد ونظامه، ومبدأ الدين المبين وختامه، فهو أحد أركان الإيمان وقاعدة أساس الإحسان التي يرجع إليها ويدور في جميع تصاريفه عليها، فالعدل قوام الملك، والحكمة مظهر الحمد والتوحيد متضمن لنهاية الحكمة وكمال النعمة، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، فبالقدر والحكمة ظهر خلقه وشرعه المبين (ألا له الخلق والأمر فتبارك الله رب العالمين)[1]

إن عقيدة القدر من الأمور التي ينبغي أن ترسخ في قلب المؤمن ويعلم علماً قاطعاً بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، و ما أخطأه لم يكن ليصيبه، ولذلك عده الرسول صلى الله عليه وسلم من أركان الإيمان التي لا يتم إلا بها فقال صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل المشهور الذي رواه عبدالله بن عمر عن أبيه عمر بن الخطاب رضي الله عنهما وفيه: (قال فأخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال: صدقت) [2] .

(١) شفاء العليل لابن القيم ص ١٧ .

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان باب الإيمان والإسلام والإحسان رقم ١ والبخاري كتاب الإيمان الفتح ١/١١٤ .

وجـــاء من حديث علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وســـلم (لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله وأني محمد رسول الله بعثني بالحق، ويؤمن بالموت، وبالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر) [(١)].

والمـــراد نفـــى أصل الإيمان عمن لم يؤمن بهذه الأربع شهادة أن لا إلا الله وشـــهادة أن محمـــداً رسول الله، ويؤمن بالموت ويؤمن بالبعث بعد الموت ويؤمـــن بالقدر وأن كل ما يجري في الكون صغيره وكبيره، ودقيقه وجليله من الذرة إلى المجرة من الله تعالى.

وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم التحذير من التكذيب بالقدر وذلك في الحديـــث الذي رواه أبو الدرداء رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " لا يدخل الجنة عاق ، ولا مدمن خمر، ولا مكذب بقدر" [(٢)].

ولهذا كان الإيمان بالقدر أصل من أصول الإيمان وقاعدة مهمة من القواعد التي يرتكز عليها المؤمن في حياته وتسير الأمور دونما خلل أو زلل .

مدى خطورة هذا الموضوع :

لا شـــك أن باب القضاء والقدر من الأبواب التي تهم المسلم في حياته ولا ينفك عنه أبداً ، وأن كل أمر كبير وصغير مرتبط بهذا الباب .

---

(١) رواه الترمذي ٤٥١/١ وأخرجه أحمد وابن ماجة والحاكم تحفة الأحوذي ٢٠١/٣ .

(٢) رواه الإمام أحمد ٤٤١/٦ .

روى مسلم في صحيحه عن طاووس قال : " أدركت ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : كل شيء بقدر ، قال وسمعت عبدالله بن عمر يقول : كل شيء بقدر حتى العجز والكيس أو الكيس والعجز " (١) .

ولكن مع ذلك فقد زلت فيه أقلام ودحضت فيه أقدام وخاض فيه خائضون وكثر فيه المنحرفون من أهل الضلال .

وكم من خائض فيه يظن نفسه محسناً وهو قد تاه وتنكب الطريق (٢) يقول ابن القيم في مقدمة كتابه شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل : " سلك جماهير العقلاء في هذا الباب في كل واد وأخذوا في كل طريق، وتولجوا كل مضيق، وركبوا كل صعب وذلول وقصدوا الوصول إلى معرفته، والوقوف على حقيقته وتكلمت فيه الأمم قديماً وحديثاً وساروا للوصول إلى مغزاه سيراً حثيثاً، وخاضت فيه الفرق على تباينها واختلافها، وصنف فيه المصنفون الكتب على تنوع أصنافها.

فلا أحد إلا وهو يحدث نفسه بهذا الشأن، ويطلب الوصول فيه إلى حقيقة العرفان فتراه متردداً فيه مع نفسه، أو مناظراً لبني جنسه وكل قد اختار لنفسه قولا لا يعتقد الصواب في سواه، ولا يرتضي إلا إياه.

وكلهم إلا من تمسك بالوحي عن طريق الصواب مردود وباب الهدى في وجهه مسدود تحسى على غير طائل، وارتوى من ماء آسن، قد طاف على باب الأفكار، ففاز بأبخس الآراء والمطالب ، فرح بما عنده من

---

(١) شرح النووي على مسلم ١/١٥٧ .

(٢) القضاء والقدر . د. عمر سليمان الأشقر ص ١٠ .

العلم الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، وقدم آراء من أحسن به الظن عن الوحي المنـــزل المشروع، والنص المرفوع، حيران يأتم بكل حيران، يحسب كل شراب ماء فهو طول عمره ظمآن، ينادي إلى الصواب من مكان بعيد أقبل إلى الهدى فلا يستجيب إلى يوم الوعيد، لقد فرح بما عنده من الضلال وقنع بأنواع الباطل، وأصناف المحال، منعه الكفر الذي اعتقده هدى وما هو ببالغه عن الهداة المهتدين، ولسان حاله أو قاله يقول : أهؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا، أليس الله بأعلم بالشاكرين [١] .

موقف المقريزي من القدر:

لقد كان المقريزي رحمه الله كما ذكرنا فيما مر من الفصول والمباحث من أهـــل السنة والجماعة فسلك مسلكهم في جميع المسائل الاعتقادية، بل لقد أفـــاد وأجاد في كثير منها كتوحيد الربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات، فكـــان فيها مؤصلاً وعالماً بارعاً مفنناً استفاد ممن قبله من العلماء الأفذاذ، وأفاد من جاء بعده.

فانظـــر إلى كلامه وهو يحمد الله ويمجده، ويرجع كل أمر من أمور الخليقة إليه فيما يتعلق بمعاشهم ومعادهم ، وما وهبه لهم من الخيرات وييسره لهم من الـــنعم، ومـــا يؤلون إليه في نهاية حياهم من الموت ثم البعث والنشور وما سيحاسب به كل واحد منهم فيقول:

الحمـــد لله الذي عرف وفهم، وعلم الإنسان ما لم يكن يعلم ، وأسبغ على عباد ه نعماً باطنة وظاهرة، ووالى عليهم من مزيد

---

(١) شفاء العليل ١٧-١٨ .

آلائــــه منناً متظافرة متواترة، وبثهم في أرضه حيناً يتقلبون، واستخلفهم في مالـــه فهـــم به يتنعمون، وهدى قوماً إلى اقتناص شوارد المعارف والعلوم، وشوقهم للتفنن في مسارح التدبر والركض بميادين الفهوم، وأرشد قوماً إلى الانقطــــاع من دون الخلق إليه، ووفقهم للاعتماد في كل أمر عليه وصرف آخرين عن كل مكرمة وفضيلة، وقيض لهم قرناء قادوهم إلى كل ذميمة من الأخـــلاق ورذيلـــة، وطبع على قلوب آخرين فلا يكادون يفقهون قولاً، وثبطهم عن سبل الخيرات فما استطاعوا قوة ولا حولا، ثم حكم على الكل بالفـــناء ونقلهم جميعاً من دار التمحيص والابتلاء إلى برزخ البيود والبلاء ، وسيحشرهم أجمعين إلى دار الجزاء ليوفي كل عامل منهم عمله ويسأله عما أعطاه وخوله وعن موقفه بين يديه سبحانه وما أعد له لا يسأل عما يفعل وهم يسألون [1] .

ثم يقـــول في موضع آخر عن سؤال خاتمة الخير : واختم لنا بخير وعافية بلا محنة فإن سؤال العبد ربه تعالى أن يختم له بخير وطلب ذلك لأخيه المؤمن من أهــم الأمور وأصله ثابت بالكتاب والسنة قال الله جل جلاله حكاية عن الكـــريم بـــن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم صلوات الله علـــيهم: (رب قـــد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السـموات والأرض أنـــت ولي في الدنـــيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين) [2] .

---

(١) المواعظ والاعتبار للمقريزي ١/٥ .

(٢) يوسف آية ١٠١ .

وقد أثنى الله تعالى على من ارتضاه من عباده بما وفقهم له من طاعته وكان مما وفقهم له من ذلك طلب الوفاة مع صفوته الذين اختارهم لعبادته، وقد أثنى الله تعالى على الذين يدعونه فيقولون:
(ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب) (١) .
وقال تعالى حكاية عن أهل الجنة أنهم يقولون (إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين، فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم، إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم) (٢) ، فدل أنهم كانوا مشفقين من أن يسلبوا الإسلام فيوردوا يوم القيامة موارد الأشقياء وكانوا يدعون الله أن لا يفعل بهم ذلك، فلما كانوا مشفقين أن يسلبوا الإسلام جزاهم ربهم سبحانه وتعالى بإشفاقهم عن دينهم الناشئ عن حبهم إياه وعرفانهم قدره أن ثبتهم عليه حتى أدى بهم في الآخرة إلى رضوانه وحلول دار المقامة من جناته.
فقد تبين من كتاب الله تعالى أن طلب خاتمة الخير والوفاة على الإسلام من سنن المرسلين وشعار المؤمنين.
فقد ورد عن بعضهم كان آخر ما تكلم به أبو بكر الصديق رضى الله عنه (توفني مسلماً وألحقني بالصالحين) .
وأما أصل ذلك من السنة فقد خرج البخاري ومسلم من حديث قتيبة بن سعيد قال: حدثنا يعقوب يعني عبدالرحمن القاري عن أبي حازم عن

---

(١) آل عمران آية ٨ .

(٢) الطور آية ٢٦-٢٨ .

سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار وإن الرجل يعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة) [1] ، وقال في كتاب القدر في باب الأعمال بالخواتيم عن سهل بن سعد الساعدي قال: نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى رجل يقاتل المشركين وكان من أعظم المسلمين غناً عنهم فقال:" من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا ، فتبعه رجل فلم يزل على ذلك حتى خرج فاستعجل الموت فقال بذبابة سيفه فوضعه بين ثدييه فتحامل عليه حتى خرج من بين كتفيه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم (إن العبد ليعمل فيما يرى للناس عمل أهل الجنة وإنه من أهل النار، ويعمل فيما يرى للناس عمل أهل النار وهو من أهل الجنة وإنما الأعمال بخواتيمها) [2] .

فانظر رحمك الله كيف نبهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على التيقظ وأن لا نغتر بما يبدو من ظاهر الأعمال، وأن العبرة بما يختم للعبد [3] .

والحق ما ذكره المقريزي رحمه الله من تقريره لهذا الأصل العظيم والركن السادس من أركان الإسلام إذ بين أن المؤمن مع عمله لا يستغني عن طلب حسن الخاتمة من الله عز وجل كما ساق على ذلك الأدلة من القرآن والسنة.

---

(١) البخاري مع الفتح ٤٢٣/١١ .

(٢) البخاري مع الفتح ٤٢٣/١١

(٣) المير في سؤال خاتمة الخير للمقريزي صحيفة ١-٣ باختصار والكتاب مخطوط .

وبـين أن الأمـور بخواتيمها فمن قرر الله له خاتمة حسنة وفقه إلى العمل الصالح فيموت على ذلك، ومن قذر الله له خاتمة سيئة قدر له من الأعمال ما يجعله يموت على تلك الخاتمة السيئة.

وكل ذلك في سابق علمه عز وجل بما هو كائن من العباد وما هم صائرون إليه.

روى الترمذي ني سننه عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: (خرج علينا رسـول الله وفي يـده كتابان فقال أتدرون ما هذان الكتابان؟ فقلنا لا يا رسـول الله، إلا أن تخبرنا، فقال للذي في يده اليمنى : هذا كتاب من رب العالمين، فيه أسماء أهل الجنة، وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم، فلا يزاد فيهم ولا ينقص فيهم أبداً .

ثم قـال للـذي في شماله : هذا كتاب من رب العالمين، فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص فيهم أبدا.

فقـال أصحابه: ففيم العمل يا رسول الله إن كان أمر قد فرغ منه ؟ فقال سـددوا وقـاربوا فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أي عمل، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أي عمل.

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بيديه فنبذهما. ثم قال: فرغ ربكم من العـباد فريق في الجنة وفريق في السعير) قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب صحيح [1].

---

(١) سنن الترمذي ٤/٤٥٠ .

إذاً ممـــا قدره الله عز وجل وختم به عمر الإنسان هو إما أن يكون من أهل الجنة فيختم له بخاتمة خير وإما أن يكون من أهل النار فيختم له بخاتمة سوء والعياذ بالله.

ولكــن قد تزل القدم ويفلت القلم ويتحدث اللسان عن هفوة يسيرة يقع فيها الإنسان ثم ما يلبث أن يعود سريعاً بعد تذكر وندم.

فالمقريزي رحمه الله وهو يقدم لكتابه المواعظ والاعتبار تذكر ما هو فيه من محن وآلام، وعلل وأسقام، فوقع في تبرم وشكاية ما كان يصح أن يذهب إليها لما هو عليه من الإيمان بالقضاء والقدر، فتمثل شعراً وقال:

يعاندني دهري كـأني عـدوه وفي كـل يوم بالكريهـة يلقاني
فإن رمت شيئاً جاءني منه ضده وإن راق لي يوماً تكدر في الثاني

ثم تذكر رحمه الله وعاد سريعاً إلى الحق والصواب فأردف قائلاً: اللهم غفرا ما هذا من التبرم بالقضاء ولا التضجر بالمقدور، بل إنه سقيم ونفثه مصدور يســتروح إن أبدى التوجع والأنين، ويجد خفاً من ثقله إذا باح بالشكوى والحنين .

ولو نظروا بين الجوانح والحشا رأوا مـن كتاب الحب في كبدي سطرا
ولو جربوا ما قد لقيت من الهوى إذا عـذروني أو جعلـت لهم عذرا [1]

فرحم الله المقريزي رحمة واسعة، فما أسرع ندمه وأجمل عباراته في رجوعه إلى الله عز وجل، وليت كل من يشكو دهره ويتبرم بالمقدور سريع العود، فالعود أحمد، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له .

---

(١) المواعظ والاعتبار ١/٧ .

متى نشأ القول بالقدر ؟ :

يقول المقريزي وكان أول من قال بالقدر في الإسلام، معبد بن خالد الجهمي [1] وكان يجالس الحسن بن الحسين البصري [2] فتكلم في القدر بالبصرة، وسلك أهل البصرة مسلكه لما رأوا عمرو بن عبيد [3] ينتحله وأخذ معبد هذا الرأي عن رجل من الأساورة يقال له أبو يونس سنسويه [4] ويعرف بالإسواري، فلما عظمت الفتنة به عذبه الحجاج وصلبه بأمر عبدالملك بن مروان سنة ثمانين، واقتدى بمعبد في بدعته هذه

(١) هو معبد بن عبدالله بن عويم الجهني البصري، سمع الحديث من ابن عباس وابن عمر ومعاوية، وعمران بن حصين، وغيرهم، وشهد يوم التحكيم، قال عنه الذهبي في ميزان الاعتدال: (صدوق في نفسه، ولكن سن سنة سيئة فكان أول من تكلم بالقدر فنهى الحسن الناس عن مجالسته وقال هو ضال مضل) ميزان الاعتدال ٤/١٤١

(٢) الحسن البصري هو أبو سعيد الحسن بن يسار البصري، مولى الأنصار سيد التابعين في زمانه وكان إمام أهل البصرة وحبر الأمة من العلماء الزهاد، ولد بالمدينة سنة ٢١ هـ وعاش في كنف على بن أبي طالب رضى الله عنه، كانت له هيبة فكان يدخل على الولاة فيعظهم، توفي سنة ١١٥ هـ أنظر ترجمته في: (الطبقات الكبرى لابن سعد ٧/١٥٦ .

(٣) عمرو بن عبيد: هو أبو عثمان عمرو بن عبيد البصري التميمى، يعتبر شيخ المعتزلة في عصره، ولد سنة ٨٥ هـ كان له زهد وتأله اشتهر بهما وكان أبوه من شرط الحجاج، قال عنه ابن معين : لا يكتب حديثه وقال النسائي: متروك الحديث ، وقال أيوب ويونس: يكذب، وقال حميد: كان يكذب على الحسن، توفي سنة ١٤٤ وقيل ١٤٣ انظر ميزان الاعتدال للذهبي ٣/٢٧٣

(٤) يقال له سوسن أو سنسويه من أهل البصرة كان يعمل بقالاً كان نصرانياً ثم أسلم ثم تنصر أخذ عنه معبد الجهمي وأخذ غيلان عن معبد.

جماعــــة، وأخــــذ السلف رحمهم الله في ذم القدرية وحذروا منهم كما هو معــــروف في كتب الحديث، ولما بلغ عبدالله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما مقالة معبد في القدر تبرأ من ا لقدرية [1] .

ومن المعلوم أن بدايات القول بالقدر هذه كانت فاتحة شر على الأمة وبداية بدعة ما تزال تتغلغل في جسد الأمة إلى وقتنا الحاضر وكل من ترجم لمعبد الجهمي قال عنه: إنه أول من تكلم بالقدر أو ابتدع القول بالقدر.

ومعلــــوم أن المقصود به نفى القدر ودليل ذلك رواية مسلم في صحيحه في الحديــــث المشهور فقد روى عن يحيى بن يعمر قال: كان أول من قال في القــــدر بالبصرة معبد الجهمي، فانطلقت أنا وحميد بن عبدالرحمن الحميدي حاجين أو معتمرين، فقلنا: لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فوفق لنا عبدالله بن عمر بن الخطــــاب داخلاً المسجد، فاكتنفته أنا وصاحبي أحدنا عن يمينه والآخر عن شمالــــه ، فظننت أن صاحبي سيكل الأمر إلي فقلت: أبا عبدالرحمن إنه قد ظهــــر قبلنا ناس يقرءون القرآن ويتقفرون العلم، (وذكر من شأنهم) وأنهم يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف...) الحديث [2] .

---

(١) المواعظ والاعتبار ٤/ ١٨٨.

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان حديث رقم ١ .

أقسام القدرية :

لقد قسم المقريزي القدرية إلى قسمين، قسم القدرية الجبرية، والقدرية النفاة.

فقال: الصنف الأول:

نفاة الحكم والتعليل الذين يردون الأمر إلى نفس المشيئة وصرف الإرادة فهؤلاء عندهم القيام بها ليس إلا لمجرد الأمر من غير أن يكون سبباً لنجاة، وإنما القيام بها لمجرد الأمر، ومحض المشيئة كما قالوا في الخلق: لم يخلق لغاية ولا لعلة هي المقصودة به، ولا لحكمة تعود إليه منه، وليس في المخلوقات أسباب تكون مقتضيات لمسبباتها وليس في النار سبب للإحراق، ولا في الماء قوة الإغراق ولا التبريد وهكذا الأمر عندهم سواء لا فرق بين الخلق والأمر، ولا فرق في نفس الأمر بين المأمور والمحظور ولكن المشيئة اقتضت أمره بهذا ونهيه عن هذا، من غير أن يقوم بالمأمور صفة تقتضي حسنه، ولا المنهي عنه صفة تقتضي قبحه .

وهؤلاء غالبهم لا يجدون حلاوة العبادة ولا لذتها ولا يتنعمون بها، ولهذا يسمون الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، والتوحيد، والإخلاص، ونحو ذلك تكاليف: أي كلفوا بها، ولو سمي مدعى محبة ملك من الملوك أو غيره ما يأمر به تكليفاً لم يعد محبا له وأول من صدرت عنه هذه المقالة: الجعد بن درهم.

والصنف الثاني :

القدرية النفاة الذين يثبتون نوعاً من الحكمة والتعليل لا يقوم بالرب ولا يرجع إليه، بل يرجع لمحض مصلحة المخلوق ومنفعته.

فعندهم أن العبادات شرعت أثماناً لما يناله العباد من الثواب والنعيم وأنها. بمنزلة استيفاء الأجير أجره.

قالوا: ولهذا يجعلها سبحانه عوضاً كقوله (ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها. مما كنتم تعملون) [١] (هل تجزون إلا ما كنتم تعملون)[٢] (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) [٣] ، (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب)[٤] .

وفي الصحيح (إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها)[٥] .

قالوا وقد سماها جزاء وأجراً وثواباً ، لأنه شيء يثوب إلى العامل من عمله، أي يرجع إليه.

قالوا ويدل عليه: الموازنة، فلو لا تعلق الثواب بالأعمال عوضاً عليها لم يكن للموازنة معنى وهاتان الطائفتان متقابلتان، فالجبرية لم تجعل للأعمال ارتباطاً بالجزاء البتة وجوزت أن يعذب الله من أفنى عمره في الطاعة وينعم من أفنى عمره في مخالفته وكلاهما سواء بالنسبة إليه، والكل راجع إلى محض المشيئة. والقدرية أوجبت عليه سبحانه رعاية المصالح وجعلت ذلك كله بمحض الأعمال وأن وصول الثواب إلى العبد بدون عمله فيه تنقيص باحتمال منة الصدقة عليه بلا ثمن، فجعلوا تفضله سبحانه على عبده بمنزلة صدقة العبد على العبد.

---

(١) الأعراف آية ٤٣ .

(٢) النمل آية ٩٠ .

(٣) النحل آية ٣٢

(٤) الزمر آية ١٠

(٥)أخرجه مسلم برقم ٢٥٧٧

وأن إعطاء ما يعطيه أجرة على عمله أحب إلى العبد من أن يعطيه فضلاً منه بلا عمل، و لم يجعلوا للأعمال تأثيراً في الجزاء البتة.

والطائفتان منحرفتان عن الصراط المستقيم وهو :

أن الأعمال أسباب موصلة إلى الثواب، والأعمال الصالحات من توفيق الله تعالى وفضله، وليست قدراً لجزائه وثوابه، بل غايتها إذا وقعت على أكمل الوجـــوه: أن تكون شكراً على أحد الأجزاء القليلة من نعمه سبحانه فلو عـــذب أهـــل سماواتـــه وأهـــل أرضـــه لعذبهـــم وهـــو غـــير ظالم لهم ولـــو رحمهم لكانت رحمته لهم خيراً من أعمالهم وتأمل قوله تعالى (وتلك الجـــنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون) [1] مع قوله صلى الله عليه وسلم : (لـــن يدخـــل أحد منكم الجنة بعمله)[2] تجد الآية تدل على أن الجنان بالأعمـــال والحديث ينفى الجنة بالأعمال، ولا تنافى بينهما لأن توارد النفي والإثبات ليس على محل واحد.

فالمـــنفي بـــاء الثمنـــية واستحقاق الجنة بمجرد الأعمال رداً على القدرية المجوســـية التي زعمت أن التفضل بالثواب ابتداءً متضمن لتكدير المنة والباء المثبـــتة التي وردت في القرآن هي باء السببية رداً على القدرية الجبرية الذين يقولـــون: لا ارتباط بين الأعمال وجزائها، ولا هي أسباب لها، وإنما غايتها أن تكون أمارة.

---

(١) ا لزخرف ٧٢

(٢) البخاري الفتح ١٥/١٣٢

والسنة النبوية: هي أن عموم مشيئة الله وقدرته لا تنافي ربط الأسباب بالمسببات وارتباطها بها وكل طائفة من أهل الباطل تركت نوعاً من الحق فإنها ارتكبت لأجله نوعاً من الباطل، بل أنواعها ، فهدى الله أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه [1].

وما ذهب إليه المقريزي من كلام جيد مبني على تأصيل في هذا المقام استفاده من ابن القيم رحمه الله من كتابه مدارج السالكين [2] ولم يشر إليه المقريزي أو يبين إفادة نقله منه ولعل ذلك يعود إلى ما سبق ذكره في توحيد الربوبية.

إذا تبين مما سبق أن القدرية انقسمت في باب القدر إلى قسمين، قسم نفى القدر، وقسم جعل الأمر جبراً، وكلا الطائفتين قد ضلت في هذا الباب ضلالاً مبيناً.

فلا غرو أن ما ذهبت إليه القدرية يدل على الجهل الفاضح بشرع الله عز وجل لأن الالتفات إلى الأسباب والاعتماد عليها شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع.

ومجرد الأسباب لا يوجب حصول المسبب، فإن المطر إذا نزل وبذر الحب لم يكن ذلك كافياً في حصول النباتات، بل لا بد من فضل الله وقدره.

وكذلك الولد لا يولد بمجرد إنزال الماء في الفرج، بل كم من أنزل ولم يولد له، بل لا بد من أن الله شاء خلقه فتحبل المرأة وتربيه في الرحم.

---

(١) تجريد التوحيد ١٠٥- ١٠٩

(٢) انظر مدارج السالكين لابن القيم ١/ ١١٢-١١٦ .

وكذلك أمر الآخرة ليس بمجرد العمل ينال الإنسان السعادة بل هي سبب ولهـذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنه لن يدخل أحدكم الجنة بعمله قـالوا: ولا أنت يا رسول الله! قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل)[1].

وقد قـال (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) فهذه باء السبب، أي بسبب أعمـالكم والـذي نفاه النبي صلى الله عليه وسلم باء المقابلة كما يقال: اشتريت هذا بهذا، أي: ليس العمل عوضاً وثمناً كافياً في دخول الجنة، بل لا بد من عفو الله وفضله ورحمته فبعفوه يمحو السيئات، وبرحمته يأتي بالخيرات وبفضله يضاعف البركات.

وفي هذا الموضوع ضل طائفتان من الناس :

فريق آمنوا بالقدر، وظنوا أن ذلك كاف في حصول المقصود، فأعرضوا عن الأسـباب الشـرعية، والأعمال الصالحة، وهؤلاء يؤول بهم الأمر إلى أن يكفروا بكتب الله ورسوله، ودينه.

وفريق: أخذوا يطلبون الجزاء من الله كما يطلبه الأجير من المستأجر متكلين على حولهم وقوتهم وعملهم، وكما يطلبه المماليك، وهؤلاء جهال ضلال، فإن الله لم يأمر العباد بما أمرهم به حاجة إليه ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلاً به ولكن أمرهم بما فيه صلاحهم، ونهاهم عما فيه فسادهم[2].

---

(١) رواه البخاري مع الفتح ١٠/١٣٢ رقم ٥٦٧٣ والإمام أحمد في مسنده ٢/٢٣٥ ، ٢٥٦ ، ٢٦٤ ، ٣١٩ .

(٢) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ٨/٧٠ .

ويتـــبين للقـــارئ أن ما ذهب إليه المقريزي من بيان لفرقتي القدرية والنفاة والجـــبرية هو ما ذهب إلى بيانه أهل السنة والجماعة، فقد بينوا ذلك غاية البيان كشيخ الإسلام ابن تيمية في فتاواه وكتبه فقد أفرد مجلداً [(١)] كاملاً في بـــيان القـــدر والإيمان به والرد على الفرق الضالة فيه وغيرها من المسائل والقضايا المهمة المتعلقة به.

وكذلـــك ابن القيم رحمه الله فقد ألف كتابه الشيق الجميل المسمى (شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل) .

وبـــين فيه كل ما يحتاج إليه المؤمن في هذا الباب مع السرد الشافي والبيان الوافي لمن خالف معتقد أهل السنة والجماعة في باب القضاء و القدر.

أضف إلى ذلك ما أورده في كتبه من بيانات وإفادات لا تخفى على طالب العـــلم في هـــذا الباب ككتابه مدارج السالكين، والداء والدواء، والفوائد، وروضة المحبين، وغيرها من الكتب الجمة التي ألفها رحمه الله.

مما يدل دلالة واضحة على اهتمام السلف ببيان الحق في باب لقضاء والقدر وتصـــديهم لكل من خالف المعتقد بالرد والإبطال. وقد أسهم المقريزي في هذا الجانب فأفاد رحمه الله بما قدم من بيان .

---

(١) المجلد الثامن من الفتاوى .

الفصل الرابع : البدع والمخالفات الشرعية

تمهيـــــــــــــد

إن البدع التي تحدث في الدين لها أكبر الخطر على العقيدة والشريعة فقد تكفر صاحبها وتخرجه من الملة، وأقلها أنها مفسقة له، مخالفة لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم عن ربه ولزوم السنة أمر واجب وقضية حتمية لا مناص عنها، ولا فكاك منها لأنها تمثل المسلم وطبيعة انتمائه لهذا الدين الحق ، فالإسلام هو السنة والسنة هي الإسلام، ولا يقوم أحدهما إلا بالآخر [1] .

تعريف البدعة :

البدعة : مأخوذة من البدع وهو الاختراع على غير مثال سابق.

وفي الدين: هي ما لم يشرعه الله ورسوله، وهو ما لم يأمر به الدين أمر إيجاب أو استحباب، فأما ما أمر به أمر إيجاب أو استحباب،

وعلم الأمر به بالأدلة الشرعية فهو من الدين الذي شرعه الله وإن تنازع أولو الأمر في بعض ذلك [2].

فإذا علم أن البدعة هي ما لم يشرعه الله ورسوله فما كان كذلك فهو البدعة التي حذر منها الإسلام ونهى عنها الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) [3] .

---

(١) بدع الاعتقاد محمد حامد الناصر ص ٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٦ ، وانظر مجموع الفتاوى ١٠٨/٤ .

(٣) أخرجه البخاري ٢٢١/٥ ومسلم رقم ١٧١٨ وأخرجه أحمد ٢٧٠/٦ .

و المقريزي قد أسهم في بيان بعض البدع المخالفة للشرع وحذر منها وبين أن أصل كل ضلال وانحراف يحدث في الإسلام إنما يكون بالبعد عن كلام السلف والانحراف عن اعتقاد الصدر الأول فمن تنكب السنة وترك الحق الذي ذهب إليه السلف فقد زلت قدمه وأصبح كمن يبحث عن ماء في مفازة قفر (كسراب بقيعة يحسبه الضمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً)[1].

وسأجعل ما أورده المقريزي من ذمه لبعض البدع والمخالفات في مسائل لأنها لم تأت في موضوع واحد أو على نسق وإنما جاءت متفرقة في مواضع عدة، ليسهل إيضاحها وبيان فساد كل بدعة أو مخالفة.

المسألة الأولى: إنكاره لما يعتقده بعض الجهلة من التبرك ببعض الناس.

قال في ترجمته لإسماعيل بن يوسف الأنبابي:

إسماعيل بن يوسف الأنبابي: الشيخ المجتهد المشهور، أحد من تشفيت به العامة إذا مسها الضر، وتجأر إليه، يزعمون أن سره يجلب لهم النفع ويدفع عنهم السوء والمكروه، عادة سوء في سفهاء أهل مصر، عافانا الله منها.

كان أبوه أحد الفقراء، وله سمعة وشهرة بناحية (أنبوبه) من بر الجيزة غربي القاهرة وله بها زاوية، فنشأ إسماعيل، واشتغل بالفقه على مذهب الشافعي رحمة الله عليه ، وأقبل الناس لزيارته بعد موت أبيه، وتبركوا به

---

(١) النور آية ٣٩ .

وصـــار يعمل المولد في كل سنة فينتابه الناس من الأقطار، وترحل إليه من الأطـــراف، ويخرج بياض أهل مصر والقاهرة إليه، وتضرب بظاهر زاويته الخـــيم وتعقد سوق، ويجتمع من النسوان والشبان خلق كثير ر فأذكر أنه عمل المولد على عادته في شهر ربيع الأول من سنة تسعين وسبعمائة، فهرع الناس لحضور المجتمع حتى غص بكثرة العالم، وتنوعوا تلك الليلة في الفسق، لكـــثرة اخـــتلاط النسوان والمردان بأهل الخلاعة، فتواتر الخبر أنه وجد في صـــبيحة تلك الليلة من جرار الخمر التي شربت بالليل فوق الخمسين فارغة ملقـــاة حول الزاوية في المزارع وافتضت تلك الليلة عدة أبكار ، وأوقدت شمـــوع بمـــال كبير، فبعث الله يوم الأحد بكرة صباح ليلة المولد المذكور قاصفاً من الريح كدرت على من كان هناك وسفت في وجوههم التراب، واقتلعت الخيم ، و لم يقدر أحد على ركوب النيل [١] .

فانظـــر إلى تلك القبائح من الأعمال استشفاء ببشر ودعاء له وتوسل به أن يجلب لهم الخير ويدفع عنهم الضر.

ماذا بقي بعد ذلك من جرم ؟ بعد هذا الشرك بالله عز وجل، ثم إن الذنوب والمعاصي إذا أشربها القلب غطت وحجبت عنه نور الحق والبصيرة فأصبح كالكوز مجخياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً والعياذ بالله.

اختلاط فاضح وسكر وعربدة، وزنا وخلاعة، وإسراف وتبذير وبدع ما أنزل الله بها من سلطان.

---

(١) درر العقود الفريدة للمقريزي ٢/٤٠١ .

وقد أبان المقريزي حال أولئك السفهاء الذين ما زالت بهم المنكرات والبدع إلى أن كان الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفـــر ما دون ذلك لمن يشاء) [1] فما عصى الله بذنب أعظم من الشرك به .

المسألة الثانية :

ذكر الصنم الذي يقال له أبو الهول.

قال: هذا الصنم بين الهرمين عرف أولاً ببلهيب وتقول أهل مصر اليوم أبو الهـــول و لم تـــزل الصابئة تعظم أبا الهول وتقرب له الديكة البيض وتبخره بالعندروس [2] .

المسألة الثالثة :

ذكر الأعياد التي كان الفاطميون يحتفلون بها:

قال المقريزي: وكان للخلفاء الفاطميين في طول السنة أعياد ومواسم وهي موســـم رأس السنة وموسم أول العام ويوم عاشوراء ومولد النبي صلى الله علـــيه وسلم، ومولد الحسن ومولد الحسين ، ومولد فاطمة الزهراء ومولد الخلـــيفة الحاضـــر، وليلة أول رجب وليلة نصفه، وليلة أول شعبان، وليلة نصفه، وموسم ليلة رمضان، وليلة الختم، وموسم عيد الفطر، وموسم عيد النحر وعيد الغدير ...[3] .

---

(١) النساء آية ١١٦ .

(٢) المواعظ والاعتبار ١٢٢/١ بتصرف واختصار.

(٣) المواعظ والاعتبار ٤٩٠/١ .

فيقول المقريزي في يوم عاشوراء، كانوا يتخذونه يوم حزن تتعطل فيه الأسواق ويعمل فيه السماط العظيم المسمى سماط الحزن.

فلما زالت الدولة، اتخذ الملوك من بني أيوب يوم عاشوراء يوم سرور يوسعون فيه على عيالهم ويتبسطون في المطاعم، ويصنعون الحلاوات ويتخذون الأواني الجديدة ليرغموا بذلك أنوف شيعة على بن أبي طالب الذين يتخذون يوم عاشوراء يوم حزن وعزاء على الحسين بن علي لأنه قتل فيه ، وكلا الفعلين غير جيد والصواب ترك ذلك والاقتداء بفعل السلف فقط [1] .

أضف إلى ذلك ما قاله عن مذاهبهم في أول الشهور فقال:

اعلم أن القوم كانوا شيعة ثم غلوا حتى عدوا من غلاة أهل الرفض [2].

فإذا تأملت هذه العبارات وضممتها إلى سابقاتها تبين لك الأمر أن المقريزي بريء مما نسب إليه من التشيع .

المسألة الرابعة: عيد الشهيد:

وهو عيد للنصارى وقد كان يعمل بمصر وهو اليوم الثامن من بشنس أحد شهور القبط ويزعمون أن النيل بمصر لا يزيد في كل سنة حتى يلقى النصارى فيه تابوتا من خشب فيه إصبع من أصابع أسلافهم الموتى ويكون ذلك اليوم عيدا ترحل إليه النصارى من جميع القرى ويركبون فيه الخيل ويلعبون عليها ويخرج عامة أهل القاهرة ومصر على اختلاف طبقاتهم وينصبون الخيم على شطوط النيل وفي الجزائر ولا يبقى مغن ولا مغنية ولا صاحب لهو ولا رب ملعوب ولا بغى ولا مخنث ولا ماجن ولا

---

(١) المواعظ والاعتبار ١/٤٩٠ .

(٢) المواعظ والاعتبار ١/٤٩٠ .

خليع ولا فاتك ولا فاسق إلا ويخرج لهذا العيد، فيجتمع عالم عظيم لا يحصيهم إلا خالقهم وتصرف أموال لا تنحصر ويتجاهر هناك. مما لا يحتمل من المعاصي والفسوق، وتثور فتن وتقتل أناس، ويباع من الخمر خاصة في ذلك اليوم بما يفيض على مائة ألف درهم فضة [1] .

المسألة الخامسة:

إنكاره للمسكرات (أو ما يسمى بحشيشة الفقراء) ، سميت بذلك لأن بعض أرباب الطرق الصوفية والعامة والسفلة منهم كان يأكل من هذه الشجرة وكانت تسمى بشجرة (القنب) ويحصل لهم من جرائها نشوة وفرحا وسرورا، ونشاطاً فما زالت تلك دعواهم.

وقيل إن أول من عرفها رجل يقال له جعفر بن محمد الشيرازي الحيدري في سنة ثمان وخمسين وستمائة وكان رجلا صوفيا فبينما هو يجول في الصحراء رأى شجرة فعمد إلى ورقها وأكل منها فشعر بنشاط وحيوية وفرح وسرور فلما عاد ورآه مريدوه استغربوا منه ذلك فأخبرهم بما حصل له من أكله الشجرة، وأطلعهم على سرها فأكلوا منها فأصابهم من الفرح والسرور ما لا يوصف، وطلب منهم كتمان أمرها عن الناس إلا الفقراء وقال إن الله قد خصكم بسر هذا الورق ليذهب بأكله همومكم الكثيفة ويجلو بفعله أفكاركم الشريفة فراقبوه فيما أودعكم وراعوه فيما استرعاكم.

---

(١) المواعظ والاعتبار ١/٦٩ .

فمـــا زالـــت شائعة ذائعة في بلاد خراسان ومعاملات فارس حتى اشتهرت ووصل خبرها إلى أهل الشام ومصر والروم فاستعملوها [1] .

قال المقريزي عن هذه الشجرة الخبيثة :

دع نـــزاهة القوم فما بلي الناس بأفسد من هذه الشجرة لأخلاقهم، ولقد حدثـــني القاضـــي الرئـــيس تاج الدين إسماعيل بن عبدالوهاب بن الخطباء المخزومى قبل اختلاطه عن الرئيس علاء الدين بن نفيس أنه سئل عن هذه الحشيشة فقال اختبرها فوجدها، تورث السفالة والرذالة وكذلك جربنا في طـــول عمرنا من عاناها فانه ينحط في سائر أخلاقه إلى ما لا يكاد أن يبقى له من الإنسانية شيء البتة .

وقـــال ابن البيطار في كتابه المفردات ومن القنب نوع ثالث يقال له القنب المندي و لم أره بغير مصر ويزرع في البساتين، يقال له الحشيشة عندهم وهو يســـكر جدا إذا تناول منه الإنسان قدر درهم أو درهمين حتى إن من أكثر مـــنه يخرجه إلى حد الرعونة، وقد استعمله قوم فاختلت عقولهم وأدى بهم الحـــال إلى الجنون وربما قتلت، ورأيت الفقراء يستعملونها على أنحاء شتى ، فمـــنهم من يطبخ الورق طبخا بليغا ويدعكه باليد دعكا جيدا حتى يتعجن ويعمل منه أقراصا، ومنهم من يجففها قليلا ثم يحمصها ويفركها باليد ويخلط بها قليلا من السمسم المقشور والسكر ويستفها ويطيل مضغها فإنهم يطربون علـــيه ويفرحون به كثيرا وربما أسكرهم فيخرجون به إلى الجنون أو قريب مـــنه فانظر كلام العارف فيها واحذر من إفساد بشريتك وإتلاف أخلاقك باستعمالها ولقد عهدناها وما يرمى بها ويتعاطاها إلا الأراذل من الناس.

---

(١) المواعظ والاعتبار ٢/١٧٢ بتصرف.

فلما كان في سنة خمس عشرة وثمانمائة شنع التجاهر بالشجرة الملعونة فظهر أمـــرها واشتهر أكلها، وارتفع الاحتشام من الكلام بها حتى لقد كادت أن تكون من تحف المترفين، وبهذا السبب غلبت السفالة على الأخلاق، وارتفع ســتر الحـــياء والحشـــمة بين الناس وجهروا بالسوء من القول، وتفاخروا بالمعايب ، وانحطوا عن كل شرف وفضيلة، وتحلوا بكل ذميمة من الأخلاق ورذيلـــة، فلـــو لا الشكل لم تقض لهم بالإنسانية ولولا الحس لما حكمت علـــيهم بالحيوانية، وقد بدا المسخ في الشمائل والأخلاق[1] المنذر بظهوره عـــلى الصـــور والذوات عافانا الله تبارك وتعالى من بلائه[2] ، ولقد كان المقريزي منكرا لتلك القبائح من الأعمال والاعتقادات، سواء ما كان منها على مستوى الفرد أو الجماعة، لما يترتب على تلك المنكرات من عقوبات قد تكون معجلة تحل بالناس فتعم الصالح والطالح.

كما حدث في تلك المجاعات التي لحقت بمصر من القحط والجدب والغلاء وضـــنك في العـــيش وقلة في الرزق كما أشار إلى ذلك المقريزي في كتابه السلوك وكتابه مجاعات مصر وكتابه كشف الغمة.

زد عـــلى ذلك ما للمعاصي من آثار قبيحة مذمومة تضر بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة يقول ابن القيم رحمه الله:

وللمعاصـــي مـــن الآثار القبيحة المذمومة، المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة مالا يعلمه إلا الله.

---

(١) فانظر إلى هذه المنكرات التي تغضب فاطر الأرض والسماوات مجاهرة بها، وتلذذ لها ودعوة الناس إليها.

(٢) المواعظ والاعتبار ٢/١٢٨ .

فمـــنها: حرمان العلم، ومنها حرمان الرزق، ومنها وحشة القلب ، ومنها الوحشة التي تحصل بينه وبين الناس لا سيما أهل الخير منهم، ومنها إضعاف القلب.

ومـــنها: أنه ينسلخ من القلب استقباحها، فتصير له عادة، فلا يستقبح من نفســه رؤيــة الناس له، ولا كلامهم فيه، وهي عند أرباب الفسوق غاية الــتفكه وتمام اللذة حتى يفتخر أحدهم بالمعصية ، ويحدث بها من لم يكن يعلمها، فيقول يا فلان عملت كذا وكذا.

وهذا الضرب من الناس لا يعافون، وتسد عليهم طريق التوبة، وتغلق عنهم أبوابها في الغالب.

ومـــنها: أن المعصـــية سبب لهوان العبد على ربه وسقوطه من عينه، قال الحســن البصري: هانوا عليه فعصوه، ولو عزوا عليه لعصمهم ، وإذا هان العــبد عــلى الله لم يكرمه أحد كما قال تعالى (ومن يهن الله فما له من مكرم) [1] .

ومنها: أن المعصية تورث الذل ولا بد.

ومـــنها: أن المعاصي تفسد العقل فإن للعقل نورا والمعصية تطفئ نور العقل ولا بد .

ومنها: أن الذنوب إذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها فكان من الغافلين.

ومن آثار المعاصي والذنوب:

أنها تحدث في الأرض أنواعا من الفساد في المياه والهواء والزروع والثمار

---

(١) سورة الحج آية ١٨ .

والمســـاكن قال تعالى (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون)[1] .

ومن تأثير معاصي الله في الأرض:

ما يحل بها من الخسف والزلازل ويمحق بركتها.

ومن عقوباتها:

ذهـــاب الحـــياء الذي هو مادة الحياة للقلب، وهو أصل كل خير وذهابه ذهاب كل خير بأجمعه.

ومن عقوباتها:

أنها تضعف في القلب تعظيم الرب جل جلاله، وتضعف وقاره في قلب العبد ولا بـــد شاء أم أبى، ولو تمكن وقار الله وعظمته في قلب العبد لما تجرأ على معاصيه.

ومن عقوباتها:

أنهـــا تســـتدعي نسيان الله لعبده وتركه، وتخليته بينه وبين نفسه وشيطانه وهناك الهلاك الذي لا يرجى معه نجاة، قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتـــنظر نفـــس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون، ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون)[2]

ومن عقوباتها:

أنهـــا تخرج العبد من دائرة الإحسان وتمنعه من ثواب المحسنين فإن الإحسان إذا باشر القلب منعه المعاصي.

---

(١) الروم آية ٤١ .

(٢) الحشر آية ١٨ ، ١٩ .

ومن عقوبات الذنوب:

أنها تزيل النعم وتحل النقم، فما زالت عن العبد نعمة إلا بسبب ذنب ولا حلت به نقمة إلا بسبب ذنب .

ولهذا لما كانت الذنوب متفاوتة في درجاتها ومفاسدها تفاوتت عقوباتها في الدنيا والآخرة بسبب تفاوتها [1] .

والمقريزي أوضح تلك المعاصي والبدع في الدين وبين بعض ما حل بأهلها من عقوبات عاجلة كما حدث في ليلة عيد المولد من سنة سبعمائة وتسعين للهجرة من ريح شديدة قلعت الخيم وذرت التراب في الوجوه وأفسدت عليهم لذتهم.

وكما يحدث من أمراض وفساد في العقل وقلة في الحياء وتغير في الطبع وفساد في الأخلاق لمن كان يأكل الحشيشة ويستعملها وبالجملة فإن المقريزي أفاد في بيان حال تلك المنكرات وما قد حصل بأهلها وبغضه لمن كان يقترفها وخوفه من عقوبات تنزل عليهم بسبب ما يحدث من مخالفات .

وهذا يدل على غيرته وما كان يتمتع به من حس إيماني أوقد في قلبه بيان الحق وإنكار المنكر.

لا سيما وأن المقريزي قد ولي الحسبة زمنا وكان مسؤولا عنها، ومن أعمال الحسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

(١) الجواب الكافي لابن القيم من صفحات مختلفة بتصرف واختصار .

الباب الثالث : موقفه من الفرق وفيه فصلان :

الفصل الأول : موقفه من الفرق المختلفة في قضية الإمامة .

الفصل الثاني :موقفه من الفرق الكلامية .

الفصل الأول : موقفه من الفرق المختلفة في قضية الإمامة

تمهيد

ما كان عليه أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم من الاجتماع في حالة حياته وبعد مماته

قال المقريزي رحمه الله : اعلم أن الله عز وجل لما بعث نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا إلى كافة الناس جميعا عربهم وعجمهم ، وهم كلهم أهل شرك وعبادة لغير الله تعالى إلا بقايا من أهل الكتاب كان من أمره صلى الله عليه وسلم مع قريش ما كان ، حتى هاجر من مكة إلى المدينة فكان الصحابة رضوان الله عليهم حوله صلى الله عليه وسلم يجتمعون في كل وقت ، مع ما كانوا فيه من ضنك المعيشة وقلة القوت فمنهم من كان يحترف في الأسواق ، ومنهم من كان يقوم على نخله ويحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل وقت ، فإذا سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسألة ، أو حكم بحكم ، أو أمر بشيء ، أو فعل شيئا وعاه من الصحابة من حضر عنده ، وفات من غاب عنه علم ذلك ، وكان يفتي في زمن النبي صلى اله عليه وسلم من الصحابة أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وعبدالرحمن بن عوف ، وعبدالله بن مسعود ، أبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وعمار بن ياسر ، وحذيفة بن اليمان ، وزيد بن ثابت ، وأبو الدرداء ، وأبو موسى الأشعري ، وسلمان الفارسي رضي الله عنهم ، فما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم استخلف أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، تفرقت الصحابة ، فمنهم من خرج لقتال مسيلمة و أهل الردة ، ومنهم من خرج لقتال أهل الشام ، ومنهم من خرج لقتال أهل العراق ، وبقي من الصحابة في المدينة مع أبي بكر عدة ، فكانت القضية إذا نزلت بأبي بكر رضي الله عنه ، قضى فيها بما عنده من العلم بكتاب الله أو سنة رسول الله صلى

الله عليه وسلم ، فإن لم يكن عنده فيها علم من كتاب الله ، ولا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ سأل من بحضرته من الصحابة رضي الله عنهم عن ذلك فإن وجد عندهم علما رجع إليه ، وإلا اجتهد في الحكم .

ولما مات أبو بكر رضي الله عنه ، وولي الأمة من بعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه فتحت الأمصار ، وزاد تفرق الصحابة فيما افتتحوه من الأقطار ، فكانت الحكومة تنزل بالمدينة أو غيرها من البلاد ، فإن كان عند الصحابة الحاضرين لها في ذلك أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حكم به ، وإلا اجتهد أمير تلك البلدة في ذلك .

وقد يكون في تلك القضية حكم عن النبي صلى الله عليه وسلم موجود عند صحابي آخر ، وقد حضر المدني ما لم يحضر المصري ، وحضر المصري ما لم يحضر الشامي ، وحضر البصري ما لم يحضر الكوفي كل هذا موجود في الأخبار والآثار ، وفيما علم من مغيب بعض الصحابة عن مجلس النبي صلى الله عليه وسلم في بعض الأوقات وحضور غيره ، ثم مغيب الذي حضر أمس ، وحضور الذي غاب ، فيدري كل واحد منهم ما حضر ، ويفوته ما غاب عنه ، فمضى الصحابة رضي الله عنهم على ما ذكرنا ، ثم خلف من بعدهم التابعون الآخرون عنهم وكل طبقة من التابعين في البلاد التي تقدم ذكرها فإنما تفقهوا مع من كان عندهم من الصحابة فكانوا لا يتعدون فتاويهم ، إلا اليسير مما بلغهم عن غير من كان في بلادهم من الصحابة رضي الله عنهم كاتباع أهل المدينة في الأكثر فتاوى عبدالله بن عمر رضي الله عنهما ، واتباع أهل الكوفة في الأكثر فتاوى عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ، واتباع أهل مكة في الأكثر فتاوى عبدالله بن عباس رضي الله عنهما ، اتباع أهل

مصر في الأكثر فتاوى عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، ثم أتي من بعد التابعين رضي الله عنهم فقهاء الأمصار ، كأبي حنيفة ، وسفيان ، وابن أبي ليلى بالكوفة ، وابن جريج بمكة ، ومالك وابن الماجشون بالمدينة ، وعثمان البتي وسوار بالبصرة ، والأوزاعي بالشام والليث بن سعد بمصر .

فجروا على تلك الطريق من أخذ كل واحد منهم عن التابعين من أهل بلده فيما كان عندهم ، و اجتهادهم في ما لم يجدوا عندهم ، وهو موجود عند غيرهم[١] .

---

(١) الخطط والآثار ٤/١٤٧ - ١٤٨ .

بيان حديث افتراق هذه الأمة :

أبان المقريزي في بداية حديثه عن الفرق حديث افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، ليبين حال الأمة بعد وحدتها و رباط جأشها و تمسكها بهدي النبي صلى الله عليه و سلم، فقال: و فرق أهل الإسلام الذي عناهم النبي صلى الله عليه و سلم بقوله ستفترق أمتي ثلاثا و سبعين فرقة، اثنتان و سبعون هالكة، و واحدة ناجية، و هذا الحديث أخرجه أبو داود و الترمذي و ابن ماجة من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: " افترقت اليهود على إحدى وسبعين، أو اثنتين و سبعين فرقة، و تفرقت النصارى على إحدى وسبعين، أو اثنتين و سبعين فرقة، و تفرقت أمتي على ثلاث و سبعين فرقة [1] .

و المقريزي لم يحصر نفسه في العدد المشار إلية في الحديث ، و قد تحرر من ذلك، و أشار إلى خمس فرق فقط: أهل السنة، و المرجئة، و المعتزلة و الشيعة، و الخوارج، ثم قال: و قد افترقت كل فرقة منها على فرق فأكثر افتراق أهل السنة في الفتيا ، و نبذ يسيرة من الاعتقادات، و بقية الفرق الأربع منها ما يخالف أهل السنة الخلاف البعيد، و منهم من يخالفهم الخلاف القريب [2] .

و قد ذهب قبل ذلك ابن حزم إلى التحرر من العدد المذكور في الحديث

---

(١) قال الترمذي هذا حديث حسن غريب لا نعرفه مثل هذا إلا على هذا الوجه ٥/٢٥ .

(٢) المواعظ والاعتبار : ١٦٩/٤ .

فقال: فرق المقرين بملة الإسلام خمسة، و هم أهل السنة، و المعتزلة والمرجئة، و الشيعة، و الخوارج، ثم افترقت كل فرقة من هذه على فرق [1] .

إلا أن معظم المؤرخين وقع تحت تأثير العدد المشار إليه في الحديث و اعتبره غاية يجب الوصول إليها، علما بأن الحديث لم يحد الزمان الذي ستظهر فيه هذه الفرق، و لم يحصل ظهورها جميعا في فترة زمنية محددة فالشهرستاني مثلا يقول : كبار الفرق الإسلامية أربع: القدرية الصفاتية ، الخوارج ، الشيعة ، و يردف ذلك بقوله ثم يتركب بعضها من بعض ويتشعب عن كل فرقة أصناف، فتصل إلى ثلاث و سبعين فرقة [2] .

و يقو ل ابن الجوزى إنا نعرف الافتراق و أصول الفرق و إن كل طائفة من الفرق قد انقسمت إلى فرق، و إن لم نحظي بأسماء تلك الفرق و مذاهبها ، و قد ظهر لنا من أصول الفرق الحرورية ، والقدرية والجهمية ، والرافضة ، والجبرية ، وقد قال بعض أهل العلم : اصل الفرق الضالة هذه الفرق الست ، وقد انقسمت كل فرقة منها على اثنتي عشرة فرقة فصارت اثنتين وسبعين فرقة [3] .

---

(١) الفصل في الملل و الأهواء و النحل لا بن حزم٢/١١١.

(٢) الملل و النحل للشهرستاني تحقيق محمد سيد كيلاني ١/١٥ .

(٣) تلبيس إبليس لابن الجوزي ص ١٩ .

و قد حقق الشاطبي هذه القضية و عقد فصلا من كتابه الاعتصام في تعيين الفرق، و أورد عن الطرطوشي [1] قوله: " إن هذه المسألة طاشت فيها أحلام الخلق فكثير ممن تقدم و تأخر من العلماء عينوها، و لكن في الطوائف التي خالفت في مسائل العقائد " و بعد أن ذكر الطرطوشي أن أصول الفرق ثمانية ، و أنها تتشعب إلى اثنتين و سبعين قال: " و هذا التعديد بحسب ما أعطته المنة من تكلف المطابقة للحديث الصحيح على القطع بأنه المراد إذ ليس على ذلك دليل شرعي، ولا دل العقل أيضا على انحصار ما ذكر في تلك العدة من غير زيادة ولا نقصان كما أنه لا دليل على اختصاص تلك البدع بالعقائد [2] .

و من ثم يتضح لنا أن ما ذهب إليه ابن حزم و المقريزي و الإمام الطرطوشي و الشاطبي يدل على أن الحديث ليس للحصر، إذ لم يعين الفرق بأسمائها، و لم يحدد البدع بأنواعها، و ليس ثمة زمان أو مكان تنحصر فيه هذه الفرق.

---

(١) محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب القرشي الأندلسي الطرطوشي الفقيه المالكي، ولد بطرطوشة أخر بلاد الأندلس سنة ٤٥١ هـ، و رحل إلى الشرق، و توفي بالإسكندرية سنة ٥٢٠ هـ بعد أن حج و ذهب إلى بغداد انظر الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب لابن فرحون المالكي: ٢/٤٤.

(٢) الاعتصام لأبي إسحاق الشاطبي: ٢/٢٠٦-٢٣٠ .

المبحث الأول : الخوارج

تعريف الخوارج:

قـــال المقريزي: و الخوارج يقال لهم الشراة ، و أحدهم شاري مشتق من شرى الرجل إذا ألح، أو معناه يستشري بالشر، أو من وقول الخوارج شرينا أنفسنا لدين الله، فنحن لذلك شراة، و قيل انه من قولهم شاريته أي لاحيته و ماريـــته ، و قـــيل شرى الرجل غضبا إذا استطار غضبا، و قيل لهم هذا لشدة غضبهم على المسلمين [1].

و يقال لهم النواصب والحرورية نسبة إلى حروراء، موضع خرج فيه أولهم على علي رضي الله عنه، و هم الغلاة في حب أبي بكر و عمر وبغض علي بـــن أبي طالب رضوان الله عليهم أجمعين، ولا أجهل منهم فإنهم القاسطون المـــارقون خـــرجوا عـــلي عـــلي بـــن أبي طالـــب رضـــى الله عـــنه و انفصـــلوا بالجملـــة، و تبروا منه، و منهم من صحبه، ومنهم من كان في زمنه [2].

و قد ذكر المقريزي أن فرقهم تزيد على عشرين فرقة، و سأذكر منها أربع فـــرق لأنها تعد أهم فرق الخوارج، و تتمثل في المحكمة الأولى والأزارقة، و النجدات، و الصفرية.

الأولى: و يقـــال لهـــم الحكمية، لأنهم خرجوا على علي رضي الله عنه في صفين ، و قالوا لا حكم إلا لله ، و لا حكم للرجال ، و انحازوا عنه إلى

---

(١) المواعظ و الاعتبار: ٤/١٨٨.

(٢) المرجع السابق : ٤/١٨٥ .

حـــروراء، ثم إلى النهروان، و سبب ذلك أنهم حملوه على التحاكم إلى من حكـــم بكتاب الله، فلما رضى بذلك، و كانت قضية الحكمين أبي موسى الأشعري، و هو عبدالله بن قيس، و عمرو بن العاص، غضبوا من ذلك، و نابذوا عليا، و قالوا في شعارهم: لا حكم إلا لله ولرسوله [١] .

و كـــانوا يحملـــون شعار التكفير لكل من خالفهم، فكانوا يكفرون عليا وعـــثمان، و أصـــحاب الجمـــل، و الحكمـــين، و مـــن رضي بالتحكيم و صوب الحكمين أو أحدهما و الخروج على السلطان الجائر [٢] .

و يذهب المقريزي إلى أن الخوارج ظهروا في زمن الصحابة رضي الله عنهم و صـــرحوا بالـــتكفير بالذنـــب و الخـــروج عـــلى الإمـــام و قـــتاله فـــناظرهم عـــبدالله بـــن عـــباس رضي الله عنهما، فلم يرجعوا إلى الحق و قاتـــلهم أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضى الله عنه و قتل منهم جماعة كما هو معروف في كتب الأخبار [٣] .

الثانية: الأزارقة اتباع أبي راشد نافع بن الأزرق بن قيس بن نهار بن إنسان بـــن أسط بن صبرة بن ذهل بن الدول بن حنيفة ، الخارج بالبصرة في أيام عبدالله بن الزبير.

و هـــم على التبري من عثمان و على و الطعن عليهما، و أن دار مخالفيهم دار كفـــر، و أن مـــن أقام بدار الكفر فهو كافر، و أن أطفال مخالفيهم في الـــنار، و يحـــل قتلهم، و أنكروا رجم الزناة و قالوا من قذف محصنة حد

---

(١) الخطط للمقريزى: ١٨٥/٤.

(٢) الفرق بين الفرق للبغدادي ٧٣

(٣) الخطط للمقريزى: ١٨٥/٤ .

و من قذف محصنا لا يحد ، و يقطع السارق في الكثير و القليل [1] .
و كان نافع كما يذكر على قدر كبير من الشجاعة، و على معرفة بالقرآن، و مقدرة على الخطابة، و يقال أنه كان ينتجع عبدالله بن عباس و هو بمكة يسأله عن تفسير القرآن، و في إحدى المرات أخذ نافع يسأل ابن عباس عن المفـــردات اللغويـــة في القـــرآن الكـــريم حـــتى مـــل مـــنه ابـــن عباس و ضجر منه [2] .
و قـــد ذكـــر الأشعري أن نافع هو الذي أحدث أول خلاف بين جماعة الخـــوارج، و ســـبب ذلـــك، كما يحكى أن امرأة خارجية من أهل اليمن تزوجت أحد الموالي من الخوارج، فلما عيرها أهلها بذلك، خيرت زوجها بين ثلاثة أمور: الهجرة إلى معسكر الخوارج حتى يكونا في أمن أو أن يخبئها عن قومها، أو يخلي سبيلها، فاختار زوجها فراقها.
فأجـــبرها أهـــلها على الزواج من ابن عم لها غير خارجي، ولما بلغ أمرها الخـــوارج اخـــتلفوا، فذهـــب بعضهم إلى أنهما لم يكن لهما أن يختارا غير الخـــروج و الـــلحاق بمعسكر الخوارج، و تبع نافع بن الأزرق هذا الرأي و تـــبرأ ممـــن قال بالتقية و أجاز لهما القعود وقد سميت هذه الجماعة التي اتبعت نافع في رأيه هذا و ما تبعه من آراء بالأزارقة [3] .
و يلاحظ أن الأزارقة أكدت ارتباطها بالمحكمة الأولى بتكفيرهم عليا رضى الله عـــنه، كمـــا ذهـــبوا إلى أن مرتكـــب كبيرة من الكبائر يكفر كفر

---

(١) الخطط للمقريزي ١٨٥/٤ .

(٢) الكامل في الأدب للمبرد: ١٣٧/١ ، ١٦٣، و انظر أيضا الإتقان في علوم القرآن للسيوطى : ١٥٨/١ .

(٣) مقالات الإسلاميين للأشعرى: ٨٨- ٨٩ باختصار.

ملــــة، و يخـــــرج بذلك عن دين الإسلام، و يكون مخلداً في النار مع سائر الكافرين [١].

وخلاصة ما أورده المقريزي في أقوال الأزارقة يتمثل في الآتي:

أولا: التبري من عثمان و علي رضى الله عنهما و الطعن فيهما.

ثانيا: جعل دار مخالفيهم دار كفر.

ثالثا: أن من أقام بدار الكفر فهو كافر.

رابعا: أن أطفال مخالفيهم في النار و يحل قتلهم.

خامسا: أنكروا رجم الزاني .

سادسا: قالوا من قذف محصنة حد ، و من قذف محصنا لا يحد.

سابعا: قطع يد السارق في الكثير و القليل.

و انظـــر إلى هـــذه الآراء الشاذة التي نادى بها الأزارقة التي تنم عن جهلهم بالشرع و عدم فقههم في الدين [٢].و اتباعهم للهوى و ما تشتهي الأنفس، و مخالفتهم لجماعة المسلمين ، و مروقهم من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية.

الثالــثة: الــنجدات و هم أتباع نجدة بن عامر الحنفي [٣]. و قيل نجد بن عويمـــر وهـــو عامر الحنفي [٤] ، و قيل عاصم [٥] الخارج باليمامة، وكان

---

(١) الملل و النحل للشهرستاني : ١٢٢/١ .

(٢) دراسات عن الفرق د. أحمد جلي: ٦٩.

(٣) مقالات الإسلاميين: ١٧٤/١ .

(٤) المواعظ والاعتبار : ١٨٥/٤ .

(٥) الملل و النحل للشهرستاني: ١٢٢/١ .

رأســـا ذا مقالة، مفردة، و تسمى بأمير المؤمنين، و بعث عطية بن الأسود فعرفـــت اتـــباعه بالعطورية و مذهبهم أن الدين أمران أحدهما: معرفة الله و رسوله وتحريم دماء المسلمين و أموالهم .

و الـــثاني: الإقـــرار بمـــا جاء من عند الله تعالى جملة، و ما سوى ذلك من الـــتحريم و التحليل، وسائر الشرائع فإن الناس يعذرون يجهلها، و أنه يأثم المجـــتهد إذا أخطـــأ وأن من خالف أن يعذب المجتهد فقد كفر، و استحلوا دماء أهل الذمة في دار التقية، و قالوا من نظر نظرة محرمة، أو كذب كذبة، أو أصر على صغيرة، و لم يتب منه فهو كافر، و من زنى أو سرق أو شرب خمرا من غير أن يصر على ذلك فهو مؤمن غير كافر [1] .

و نـــرى أن نجـــدة بن عامر الحنفي كان باليمامة حيث تخلف عن نافع بن الأزرق عـــند عودتهم جميعا من مكة المكرمة، و بينما هو في طريقة للحاق بمعســـكر نـــافع بـــن الأزرق، قابله من أطلق على ما أحدثه نافع من أراء استباحة قتل أطفال المخالفين، و حكمه على القعدة بالشرك [2].

فيقال إن نجدة رجع ثانية إلى اليمامة، و أعلن انفصاله عن نافع و تبريه منه، و بويع له بالإمامة، و أصبح أميرا على طائفة الخوارج عرفوا بالنجدات [3]

و انظر كيف قسم الخوارج النجدات الدين إلى قسمين:

الأول: معـــرفة الله و معـــرفة رسله عليهم الصلاة و السلام، و تحريم دماء

---

(١) المواعظ والاعتبار: ١/١٨٥ .

(٢) دراسات عن الفرق د. أحمد جلى .

(٣) الفرق بين الفرق للبغدادي ص ٨٧ .

المسلمين (يقصدون موافقيهم في المذهب) و الإقرار بما جاء من عند الله جملة، فهذا واجب على الجميع معرفته، ولا عذر في الجهل به.
و الثاني: ما سوى ذلك، فالناس معذورون فيه إلى أن تقوم عليهم الحجة في الحلال و الحرام، و تبني النجدات مبدأ العذر بالجهل، حتى سموا العاذرية، و الذي دعاهم إلى ذلك أن جماعة منهم على رأسهم ابن نجدة نفسه، بعث إلى القطيف فأصابوا غنائم و سبايا ، فأباحوا لأنفسهم نكاح السبايا قبل إخراج الخمس منها، وقالوا إن خرجت من نصيبنا فبها و إلا دفعنا من أموالنا مقابلها، و لما بلغ الأمر نجدة و أصحابه اختلفوا، فبعضهم برر هذا الفعل و اعتذر لمن قام به، و البعض الآخر أنكره و كان نجدة مع الذين عذروا هؤلاء لجهلهم بحكم الله، و هكذا أصبح الجهل بالحكم عذرا عند بعض النجدات.
و ما ذكره المقريزي رحمه الله عن النجدات هو ما ذهب إليه من أرخ في الفرق كالأشعري و البغدادي و الشهرستاني وغيرهم.
و يظهر من خلال كلام المقريزي أن النجدات تلخص معتقداتهم في التالي:
أولا: تقسيم الدين إلى قسمين، قسم يجب على الناس معرفته، ولا يعذرون بتركه.
و قسم: يعذر به الناس إلى أن تقوم عليهم الحجة في الحلال و الحرام.
ثانيا: أن المجتهد إذا أخطأ فهو آثم.
ثالثا: كفر من خالف أن يعذب المجتهد.
رابعا: استحلال دماء أهل الذمة في دار التقية.
خامسا: تكفير من نظر نظرة محرمة، أو كذب، أو أصر على صغيرة و لم يتب منها.

سادســـا: من زنى أو سرق، أو شرب خمرا من غير أن يصر على ذلك فهو مؤمن غير كافر .

و هكـــذا يكون الأمر إذا ابتعد المرء عن كتاب الله و سنة رسوله و حكم الرأي و الهوى.

الرابعة: الصفرية:

أتباع زياد بن الأصفر، و يقال: اتباع النعمان بن صفر، و قيل بل نسبوا إلى عـــبدالله بـــن صفار، و هو أحد بني مقاعس، و هو الحارث بن عمرو بن كعـــب بن سعد بن زيد مناة بن تميم بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار، و قيل عبدالله بن الصفار من بني عويمر بن مقاعس، و قيل سموا بذلك لصفرة علتهم، و زعم بعضهم أن الصفرية بكسر الصاد و قد وافق الصفرية الأزارقة في جميع بدعهم إلا في قتل الأطفال [1].

إذاً يـــرى المقريزي بأن الصفرية وافقت الأزارقة في جميع بدعهم إلا في قتل الأطفـــال، بيـــنما يرى بعض الكتاب المحدثين [2] بأن الصفرية أقل شذوذا و غلـــوا من الأزارقة، إذ أنهم خالفوا هؤلاء في رأيهم في القعدة و مرتكب الكـــبيرة، فلم يكفروا القعدة كما ذهب الأزارقة ما داموا موافقين لهم، بل مـــيزوا بين الذنوب التي فيها حد مقرر كالزنا و السرقة، فهذه في رأيهم لا يتجاوز بمرتكبها ما سماه الله به مع أنه زان، أو سارق، أو قاذف... الخ .

و أما الذنوب التي ليس فيها حد مقرر كترك الصلاة، و الفرار من الزحف فمرتكب مثل هذه الذنوب يعتبرونه كافرا، ولا يرى الصفرية أن

---

(١) المواعظ و الاعتبار: ٤/١٨٥.

(٢) دراسات عن الفرق: د. احمد جلى .

دار مخالفيهم دار حرب، كما لم يحكموا بقتل أطفال المشركين وتكفيرهم، ولا يقولون بخلود هم في النار، و لم يجيزوا سبي الذرية و النساء.

وللصفرية أراء في الشرك و الكفر و البراءة، يذهبون فيها إلى أن الشرك شركان: شرك هو طاعة الشيطان، و شرك هو عبادة الأوثان، و الكفر كفران: كفر بإنكار النعم، وكفر بإنكار الربوبية، و البراءة براءتان: براءة من أهل الحدود سنة، و براءة من أهل الجحود فريضة [١] .

و مهما يكن من عدم غلو الصفرية إلا أنهم لا يخرجون عن المنهج العام للخوارج و هو التكفير بالذنب ، و الخروج عن منهج الحق الذي عليه أهل السنة و الجماعة .

و مما نسب إليهم جواز تزويج المسلمات (أي الخارجيات) من كفار قومهم (بقية المسلمين) في دار التقية دون دار العلانية [٢] .

و كل ما ذكر عن الخوارج ينم عن غلو في الدين، و جهل بأحكام الإسلام، و نقمة على المجتمع الإسلامي أدى بهم إلى مثل تلك الآراء و الطوام، التي ما سبق بها أحد من العالمين ، و كانت المصيبة العظمى أن هذه الفرق خرج معظمها في الصدر الأول من الإسلام، وقت أن كان الصحابة رضوان الله عليهم تزخر مجالسهم بالعلم و الإيمان و التقى و الصلاح، فنهج الخوارج ذلك النهج البعيد كل البعد عن منهج الوحي الذي علمه الرسول صلى الله عليه وسلم أمته.

---

(١) دراسات عن الفرق د. أحمد حلى: ٧٣، و انظر الملل و النحل: ١/٣٧ ١، و الفرق بين الفرق: ٩١ .

(٢) المواعظ في الاعتبار: ١٨٩/٤ .

موقف الخوارج من الإمامة :

لم يورد المقريزي أراء تذكر حول قضية الإمامة عند الخوارج بل أنه أشار إلى مسألتين مهمتين في هذا الجانب :

الأولى: أنه ذكر أن مذهب الخوارج التكفير بالذنب و الخروج على الإمام و قتاله [1] .

الثانية: أن أتباع شبيب بن يزيد بن أبي نعيم الخارج في خلافة عبدالملك بن مروان انفردوا عن الخوارج بجواز إمامة المرأة وخلافتها ،حتى قال: و استخلف شبيب أمه غزالة فدخلت الكوفة و قامت خطيبة و صلت الصبح بالمسجد الجامع، فقرأت في الركعة الأولى بالبقرة، و في الثانية بآل عمران [2] ، و يظهر أنه ليس للخوارج نظرية واضحة حول الإمامة كتلك التي للشيعة حول أئمتهم، أو تلك التي لعامة المسلمين حول من يلي أمر المسلمين و الشروط التي ينبغي توفرها فيه، بل اعتبر شعارهم لا حكم إلا لله تحللا من الالتزام بإمرة معينة، و من ثم رد عليهم على رضى الله عنه بقوله: كلمة حق يراد بها باطل، نعم إنه لا حكم إلا لله، و لكن هؤلاء يقولون: لا إمرة إلا لله، و أنه لا بد للناس من أمير بر أو فاجر يعمل في إمرته المؤمن و يستمتع بها الفاجر و يبلغ الله فيها الأجلو يجمع به الفيء و يقاتل به العدو و تأمن به السبل، و يؤخذ به للضعيف من القوي حتى يستريح بر و يستراح من فاجر [3] ، وقد ذهب النجدات

---

(١) المواعظ و الاعتبار: ١٨٩/٤ .

(٢) المرجع السابق: ١٨٧/٤ .

(٣) دراسات عن الفرق: ٦٢.

من الخوارج إلى أنه لا حاجة إلى إمام إذا كان في إمكان للناس أن يتناصفوا فيما بينهم، فإن هم رأوا أن ذلك التناصف لا يتم إلا بإمام يحملهم عليه فأقاموه جاز [1] .

إذا فليست هناك نظرية واضحة عند الخوارج في مسالة الإمامة أضف إلى ذلك ما ذكره المقريزي من خروجهم على الإمام وتكفيرهم له، و كذلك جواز إمامة النساء كما حدث عند الشبيبة.

و بذلك يتضح أن الإمامة ليست أمرا ضروريا عند الخوارج بل هي من الأمور العامة و المصالح التي يمكن الاستغناء عنها في حالة تناصف الناس فيما بينهم، أما إمامة أبي بكر و عمر و علي، فهم يرون: إمامة أبي بكر و عمر و عثمان، حتى انقضاء الست سنوات الأولى من حكمه، ثم على حتى قبوله التحكيم [2] .

ومما يجمع عليه الخوارج كما قال الأشعري " إكفار عثمان و علي " [2]

وهذه الفرق الضالة المخالفة لأهل السنة و الجماعة ليس عندها دليل صريح من كتاب الله و سنة رسول الله صلى الله عليه و سلم في كل ما ذهبت إليه من أراء و معتقدات، إلا لظن و إن الظن لا يغني من الحق شيئا.

---

(١) الملل و النحل للشهرستاني ١٢٤/١ .

(٢) الإمامة العظمى عند أهل السنة و الجماعة د. عبدالله بن عمر الدميجى.

(٣) مقالات الإسلاميين ١٦٧/١ .

المبحث الثاني : الشيعة

الشيعة من حيث مدلولها اللغوي تعني القوم و الصحب و الأتباع و الأعوان [١].

و قد ورد ت في القرآن الكريم في هذا المعنى كما في قوله تعالى (فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته و هذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه) [٢] ، وقوله تعالى (وإن من شيعته لإبراهيم) [٣] ، فالشيعة في الآية الأولى تعني القوم، و في الثانية تشير إلى الأتباع الذين يوافقون على الرأي و النهج و يشاركون فيهما.

و لكن كلمة شيعة اتخذت معنى اصطلاحيا خلال التاريخ الإسلامي و استخدمت للدلالة على جماعة اعتقدت بأن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة، و يتعين القائم بها بتعيينهم، بل هي ركن الدين و قاعدة الإسلام، و لا يجوز لنبي إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم .

و ذهبت هذه الجماعة إلى أن النبي صلى الله عليه و سلم عين عليا ليكون خليفة عنه، و أن الخلافة من ثم تكون فيه و في عقبه دون غيرهم بالوصية و التعيين، و أن الخلفاء الذين تولوا الخلافة قبله قد سلبوا عليا هذا الحق، و أن خلافة علي تبدأ من اليوم الأول الذي توفي فيه النبي صلى الله عليه و سلم بغض النظر عن كونه تولى الخلافة فعلا أم لم يتولها [٤].

---

(١) انظر الصحاح للجوهري ٣/١٢٤.

(٢) القصص آية ١٥.

(٣) الصافات آية ٨٣ .

(٤) دراسات عن الفرق ص ١٥١ .

و بهذا يعرف الشهرستاني الشيعة بأنهم: هم الذين شايعوا عليا رضي الله عنه على الخصوص، و قالوا بإمامته و خلافته، نصاً و وصية، إما جليا وإما خفيا، و اعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده، و إن خرجت فبظلم يكون من غيره، أو تقية من عنده [1] .

بداية التشيع :

يرى المقريزي بأن بداية التشيع كان في زمن الصحابة رضوان الله عليهم و كان على يد عبدالله بن سبأ، فيقول : و حدث في زمن الصحابة رضي الله عنهم مذهب التشيع لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه و الغلو فيه، فلما بلغه ذلك أنكره، وحرق بالنار جماعة ممن غلا فيه، و انشد :

لما رأيت الأمر أمرا منكراً   أججت ناري ودعوت قنبرا

و قام في زمنه رضي الله عنه عبدالله بن وهب بن سبأ المعروف بابن السوداء السبئي، و أحدث القول بوصية رسول الله صلى الله عليه و سلم لعلى بالإمامة من بعده فهو وصي رسول الله صلى الله عليه و سلم و خليفته من بعده بالنص ، و أحدث القول برجعة علي بن أبي طالب بعد موته إلى الدنيا، وبرجعة رسول الله صلى الله عليه و سلم أيضا و زعم أن عليا لم يقتل، و انه حي و أن فيه الجزء الإلهي، و أنه هو الذي يجيء في السحاب، و أن الرعد صوته، و أن البرق سوطه، و أنه لا بد أن ينزل إلى الأرض فيملأها عدلا كما ملئت جورا، و من ابن سبأ تشعبت أصناف الغلاة من ا لرافضة [2] .

---

(١) الملل والنحل : ١٤٦/١ .

(٢) المواعظ و الاعتبار: ١٨٩/٤ .

و هـــنالك من يرى أن التشيع كانت بداياته منذ نزول الوحي على الرسول صـــلى الله علـــيه و ســـلم، و القائلون بهذه القضية هم الشيعة كما يقول صـــاحب كتاب دراسات عن الفرق في إيراده للآراء التي تحدثت عن بداية التشيع.

و مـــن الباحثين لا سيما الشيعة من يجعل نقطة البداية في التشيع زمن النبي صـــلى الله عليه و سلم، و يذهب هؤلاء إلى أن الحركة الشيعية تكونت مع مطالع الرسالة، و ترعرعت في أحضانها و نادى بها الرسول صلى الله عليه و ســـلم، فالكاتب الشيعي محمد الحسين آل كاشف الغطاء يذهب في كتابه أصـــل الشيعة و أصولها إلى أن أول من وضع بذرة التشيع في حقل الإسلام هو نفس صاحب الشريعة الإسلامية، يعني أن بذرة التشيع وضعت مع بذرة الإسلام جنبا إلى جنب و سواء بسواء، و لم يزل غارسها يتعاهدها بالسقى و العناية حتى نمت و ازدهرت في حياته ثم أثمرت بعد وفاته [١].

قلت إن هذه الدعوى لا برهان لها و لا دليل عليها، و إنما هي مقالة أخرق ودعوى زنيم ، يريد أن يلصق ضلالته و خرافاته بمقام

النبوة الكريم و يتكئ في ما يذهب إليه إلى إقرار الرسول له في كون التشيع أمرا من الدين معه بدأ و به ينتهي.

و هـــذه المحاولة من الشيعة لدرء الفساد الذي نسب إليهم و خبث الاعتقاد الذي ارتبط بهم.

---

(١) دراسات عن الفرق د. أحمد جلي: ١٥٢.

فلقـــد ذهب ابن حزم و المقريزي رحمهما الله تعالى إلى مدى الارتباط بين نشأة التشيع و الفرس، و ذهبا إلى أن بعض الطوائف الفارسية الحاقدة على الإسلام رأوا أن يكيدوا لهذا الدين من الداخل، فأظهر قوم منهم الإسلام و اســتمالوا أهل التشيع بإظهار محبة أهل البيت، و استشناع ظلم على رضي الله عنه، ثم سلكوا بهم مسالك شتى حتى أخرجوهم عن الإسلام (١) .

و هنالك من يرجع ظهور التشيع إلى الفترة التي تلت وفاة الرسول صلى الله علـــيه و ســـلم، و ما أعقبها من خلاف حول الإمامة، و ما تبع ذلك من وجهات ثلاث، تبنى أحدها الأنصار، و الثانية المهاجرون، و الثالثة تبناها و دافع عنها بنو هاشم (٢) .

و هـــنالك من يرجع التشيع من الناحية التاريخية إلى تلك الفترة التي أعقبت التحكيم في الحرب التي دارت بين على ومعاوية، و التشيع في نظر هؤلاء رد فعل لآراء الخوارج المتطرفة حول مشكلة الإمامة (٣) .

و هـــنالك وجهة نظر رابعة تربط التشيع بفاجعة كربلاء، التي انتهت بمقتل الحسين بن علي، و يعتبر أصحاب هذا الرأي أن استشهاد الحسين في حادثة كربلاء يمثل نقطة تحول من مجرد رأي سياسي إلى عقيدة راسخة في نفوس الشيعة (٤) .

---

(١) الفصل في الملل و النحل لابن حزم ١١٥/٢ ، و انظر المقريزي في المواعظ و الاعتبار ١٩٨/٤ .

(٢) دراسات عن الفرق د. أحمد جلي ص ١٥٤.

(٣) دراسات عن الفرق ص ١٥٨ .

(٤) المرجع السابق ص ١٥٩ .

و لعل ما ذهب إليه المقريزي من أن بداية التشيع كانت في زمن الصحابة رضوان الله عليهم، و أن أول بداية لذلك كانت على يد عبدالله بن سبأ هو الرأي الراجح.

إذ يقول المقريزي : و كان بداية التشيع في الإسلام أن رجلا من اليهود في خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه أسلم، فقيل له عبدالله بن سبأ، و عرف بابن السوداء، و صار يتنقل من الحجاز إلى أمصار المسلمين يريد إظلالهم، فلم يطق ذلك، فرجع إلى كيد الإسلام و أهله ونزل البصرة في سنة ثلاثة و ثلاثين فجعل يطرح على أهلها مسائل و لا يصرح، فأقبل إليه جماعة و مالوا إليه و اعجبوا بقوله، فبلغ ذلك عبدالله بن عامر، و هو يومئذ على البصرة، فأرسل إليه فلما حضر عنده سأله ما أنت، فقال رجل من أهل الكتاب رغبت في الإسلام و في جوارك فقال: ما شيء بلغني عنك، اخرج عني، فخرج حتى نزل الكوفة فأخرج منها فسار إلى مصر و استقر بها، و قال في الناس العجب ممن يصدق أن عيسى يرجع ، و يكذب أن محمدا يرجع ، و تحدث في الرجعة حتى قبلت منه، فقال بعد ذلك أن لكل نبي وصى، وعلى بن أبي طالب وصيه في الخلافة على أمته، و اعلموا أن عثمان أخذ الخلافة بغير حق فاقضوا في هذا الأمر، و ابدؤوا بالطعن على أمرائكم، فأظهروا الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر تستميلوا به الناس [1] .

و من ثم يتضح أن أول من أظهر القول وصية علي رضي الله عنه و القول بالرجعة، و نادى بذلك، و دعا إليها هو عبدالله بن سبأ.

و أما بقية الآراء فيمكن أن تكون مراحل تطور التشيع و نضوجه كحركة اصبح لها دعاتها، و نظامها، و قواعدها.

---

(١) المواعظ و الاعتبار: ٤/١٥٢.

فرق الشيعة :

ذكر المقريزي أن فرق الشيعة عشرين فرقة وسأذكر هنا فرقتين على سبيل الاختصار والإيجاز ، وهما الإمامية و الخطابية .

فقال المقريزي عن **الإمامية** : وهم مختلفون في الإمامة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فزعم أكثرهم أن الإمامة في علي بن أبي طالب وأولاده بنص النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن الصحابة كلهم قد ارتدوا إلا عليا وابنيه الحسن و الحسين وأبا ذر الغفاري وسلمان الفارسي وطائفة يسيرة وأول من تكلم في مذهب الإمامية علي بن اسماعيل بن هيثم التمار وكان من أصحاب علي بن أبي طالب ، وذهبت القطعية منهم إلى أن الإمامة في علي ، ثم في الحسن ، ثم في الحسين ، ثم في علي بن الحسين ثم في محمد بن علي ، ثم في جعفر بن محمد ، ثم في موسى بن جعفر ثم في علي بن موسى ، وقطعوا الإمامة عليه ، فسموا القطعية لذلك و لم يكتبوا إمامة محمد بن موسى ، ولا إمامة الحسن بن محمد بن علي بن موسى ، وقالت الناووسية : جعفر بن محمد لم يمت ، هو حي ينتظر وقالت المباركية أتباع مبارك ، الإمام بعد جعفر بن محمد ابنه اسماعيل بن جعفر ، ثم محمد بن إسماعيل [1] .

وهكذا نرى بأن الشيعة الإمامية ليس لها استقرار في الأئمة بل هناك خلط بينهم وما يزالون مختلفين لأنهم بعدوا عن الحق وحادوا عن الصواب .

---

(١) الخطط والآثار ٤/١٨٠

والفرقة الثانية الخطابية :

أتباع أبي الخطاب محمد بن أبي ثور ، وقيل محمد بن أبي يزيد الأجدع ومذهبه الغلو في جعفر بن محمد الصادق ، وهو أيضا من المشبهة وأتباعه خمسون فرقة ، وكلهم متفقون على أن الأئمة مثل علي وأولاده كلهم أنبياء ، وأنه لابد من رسولين لكل أمة ، أحدهما ناطق ، والآخر صامت ، فكان محمد ناطقا ، وعلي صامتا ، وأن جعفر بن محمد الصادق كان نبيا ، ثم انتقلت النبوة إلى أبي الخطاب الأجدع ، وجوزاوا كلهم شهادة الزور لموافقيهم ، وزعموا أن الدنيا لا تفنى وأن الجنة هي ما يصيبه الإنسان من الخير في الدنيا و النار ضد ذلك ، وأباحوا شرب الخمر والزنا وسائر المحرمات ، ودانوا بترك الصلاة ، وقالوا بالتناسخ وأن الناس لا يموتون ، وإنما ترفع أرواحهم إلى غيرهم ، وقالت البزيغية منهم أن جعفر بن محمد إله ، وليس هو الذي يراه الناس ، وإنما تشبه على الناس ، وزعموا أن كل مؤمن يوحى إليه ، وأن منهم من هو خير من جبريل و ميكائيل ومحمد صلى الله عليه وسلم ، وزعموا أنهم يرون أمواتهم بكرة وعشيا ، وزعمت الخطابية بأجمعها أن جعفر بن محمد الصادق أودعهم جلدا يقال له جفر فيه كل ما يحتاجون إليه من علم الغيب وتفسير القرآن ، وزعموا لعنهم الله أن قوله تعالى (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) معناه عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها [1] .

فانظر أخي المبارك إلى هذه الفرقة الضالة المارقة الغالية في الأئمة القائلة بألوهيتهم وما ترتب على ذلك من استباحة لشرب الخمور والزنا وترك

---

(١) الخطط والآثار ٤/١٨١ .

الصلوات وارتكاب الموبقات ، فرحم الله المقريزي الذي كشف عوراهم وفضح ستارهم ، كما فعل غيره من كتاب الفرق الأجلاء كالأشعري والبغدادي ، والشهرستاني ، وابن حزم .

المبحث الثالث: المرجئة

كلمة " المرجئة " اسم فاعل من الإرجاء، و الإرجاء يأتي في العربية على معنيين، الأول: التأخير، تقول " أرجأت كذا " تريد أخرته، و في القرآن الكريم في قصة موسى عليه السلام (قالوا أرجه و أخاه و ابعث في المدائن حاشرين) [1] أرادوا أخره و أمهله.

و المعنى الثاني للإرجاء: إعطاء الرجاء، تقول " أرجيت فلانا " تريد أنك أعطيته الرجاء، و الهمزة في آخر الإرجاء على المعنى الأول أصلية، و على المعنى الثاني منقلبة من حروف العلة.

ثم نقول أنه يجوز أن تكون تسمية هذه الفرقة بالمرجئة مأخوذة من المعنى الثاني لأنهم كانوا يقولون: لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة، فقد كانوا يعطون المؤمن العاصي الرجاء في ثواب الله.

ثم اعلم أن من الناس من يقول: الإرجاء تأخير حكم صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة، فلا يقضى عليه في الدنيا بحكم ما، و على هذا تكون المرجئة فرقة مقابلة للوعيدية [2].

و يقول المقريزي في تعريف الإرجاء:

الإرجاء إما مشتق من الرجاء لأن المرجئة يرجون لصحاب المعاصي الثواب من الله تعالى، فيقولون لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة، أو يكون مشتقا من الإرجاء، و هو التأخير فأخروا حكم أصحاب الكبائر إلى الآخرة.

---

(١) الشعراء آية ٣٦ .

(٢) مقالات الإسلاميين الهامش، تحقيق محي الدين عبدالحميد١/٥١٣، و انظر الملل و النحل للشهرستاني: ١/١٣٩

و حقيقة المرجئة انهم الغلاة في إثبات الوعد و الرجاء، و نفي الوعيد و الخوف عن المؤمنين [1] .

أول من وضع الإرجاء :

يقول المقريزي: و أول من وضع الإرجاء [2] أبو محمد بن الحسن المعروف بابن الحنفية بن على ين أبي طالب، و تكلم فيه.

---

(١) المواعظ و الاعتبار: ٤/١٧٧ .

(٢) و أول ما ظهر الإرجاء إنما كان رد فعل لتكفير الخوارج للحكمين و لعلى بن أبي طالب رضى الله عنه، و ليس هو الإرجاء المتعلق بالإيمان.

فأول من تكلم في الإرجاء هو: الحسن بن محمد بن ا لحنفية المتوفى في عام ٩٩ هـ، و قد ذكر ذلك كل من ترجم له رحمه الله ، قال ابن سعد في ترجمته له: و هو أول من تكلم في الإرجاء – و يذكر كذلك- أن زاذان و ميسرة دخلا عليه، فلاماه في الكتاب الذي وضع في الإرجاء، فقال لزاذان: يا أبا عمر لوددت أني كنت لم أكتبه " (الطبقات: ٥/٣٢٨).

و هذا الكتاب إنما فيه إرجاء المشتركين في الفتنة التي حدثت بعد خلافة الشيخين أبي بكر و عمر إلى الله عز وجل، و يؤكد لنا ابن حجر رحمه الله هذا المعنى ، و قد اطلع على هذا الكتاب فيقول: المراد بالإرجاء الذي تكلم الحسن بن محمد فيه غير الإرجاء الذي يعبه أهل السنة و الجماعة المتعلق بالإيمان، و ذلك أني وقفت على كتاب محمد بن الحسن المذكور: أخرجه ابن أبي عمر في كتاب الإيمان له في آخره قال: حدثنا إبراهيم بن عيينة عن عبدالواحد بن أيمن: كان ا لحسن بن محمد يأمرني أن اقرأ هذا الكتاب على الناس: أما بعد فإنا نوصيكم بتقوى الله – فذكر كلاما كثيرا في الموعظة و الوصية بكتاب الله و اتباع ما فيه و ذكر اعتقاده ثم قال في آخره: و نوالي أبا بكر و عمر رضي الله عنهما، و نجاهد فيهما، لأنهما لم تقتل عليهما الأمة، و لم تشك في أمرهما، و نرجي من بعدها ممن دخل في الفتنة، فنكل أمرهم إلى الله... انظر (تهذيب التهذيب لابن حجر: ٢/٣٢١،٣٢٠) و انظر في هذا كله (أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي تحقيق د. أحمد سعد حمدان: ١/ ٢٦،٢٧) .

و كـــان محمـــد بن الحسن بن الحنفية يكتب كتبه إلى الأمصار يدعوا إلى الإرجـــاء، إلا انه لم يؤخر العمل عن الإيمان كما قال بعضهم، بل قال أداء الطاعات و ترك المعاصي ليس من الإيمان، لا يزول بزوالها (١) .

القائلون بالإرجاء :

و ذكر المقريزي بأن من قال بالإرجاء ثلاثة أصناف:

صنف جمعوا بين الرجاء و القدر مثل غيلان الدمشقي .

و صنف جمعوا بين الإرجاء و الجبر مثل الجهم بن صفوان .

و صنف قالوا بالإرجاء المحض و هم أربع فرق :

١ - اليونســية: اتباع يونس بن عمرو (٢) ، و هو غير يونس بن عبدالرحمن القمــي الرافضي، زعم أن الإيمان معرفة الله و الخضوع له و المحبة و الإقرار بأنه واحد ليس كمثله شيء (٣) .

و يقــول الشهرســتاني: " زعــم أن الإيمان هو المعرفة بالله و الخضوع له و المحــبة ، و ترك الاستكبار عليه، و المحبة بالقلب، فمن اجتمعت فيه هذه الخصــال فهو مؤمن، و ما سوى ذلك من الطاعة فليس من الإيمان ، و لا يضر تركها حقيقة الإيمان، و لا يعذب على ذلك إذا كان الإيمان خالصا و اليقين صادقا.

---

(١) المواعظ والاعتبار: ٤/ ١٧٨.

(٢) في الملــل و الــنحل: أصــحاب يونــس بــن عــون النميري: ١/ ١٤٠، و في الفرق بين الفرق: ١٢٣ و هؤلاء هم اتباع يونس بن عون الذي زعم أن الإيمان في القلب و اللسان .

(٣) المواعظ و الاعتبار: ٤/١٧٧.

و زعم أن إبليس كان عارفا بالله وحده، غير أنه كفر باستكباره عليه (أبى و استكبر و كان من الكافرين) [1] .

قال: و من تمكن في قلبه الخضوع لله و المحبة له على خلوص ويقين لم يخالفه في معصية، و إن صدرت منه معصية فلا تضره بيقينه و إخلاصه والمؤمن إنما يدخـــل الجنة بإخلاصه و محبته لا بعمله و طاعته [2] و قال صاحب الفرق بين الفرق نحو هذا: هؤلاء هم أتباع يونس بن عون الذي زعم أن الإيمان في القلب واللسان و أنه هو المعرفة بالله تعالى و المحبة و الخضوع له بالقلب ، و الإقـــرار باللســـان انه واحد ليس كمثله شيء ما لم تقم حجة للرسل عليهم الصلاة و السلام فإن قامت عليهم حجتهم بالتصديق لهم، ومعرفة ما جـــاء مـــن عندهم في الجملة من الإيمان وليست معرفة تفصيل ما جاء من عندهم إيماناً ولا من جملته ، وزعم هؤلاء أن كل خصلة من خصال الإيمان ليست بإيمان ولا بعض إيمان و مجموعها إيمان [3] .

و في مقالات الإسلاميين: " و لم يجعلوا الإيمان متبعضا، و لا محتملا للزيادة و النقصان [4] .

٢- الغسانية:

أتباع غسان بن أبان الكوفي المنكر نبوة عيسى عليه السلام، و تلميذ لمحمد بـــن الحســـن الشـــيباني، و مذهـــبه في الإيمـــان كمذهب يونس، إلا أنه

---

(١) سورة البقرة آية ٣٤.

(٢) الملل و النحل ١/ ١٤٥

(٣) الفرق بين الفرق ١٢٣.

(٤) مقالات الإسلاميين ١/٢١٥ .

قال كل خصلة من خصال الإيمان تسمى إيمان ، و يونس يقول: كل خصلة ليست بإيمان ولا بعض إيمان، و زعم غسان أن الإيمان لا يزيد و لا ينقص وعند أبي حنيفة رحمه الله الإيمان: معرفة بالقلب، و إقرار باللسان، فلا يزيد ولا ينقص كقرص الشمس [1] .

و غسان الكوفي زعم أن الإيمان هو المعرفة بالله تعالى و رسوله و الإقرار بما أنزل الله، و بما جاء به الرسول في الجملة دون التفصيل، و الإيمان لا يزيد ولا ينقص، وزعم أن قائلا لو قال: اعلم أن الله تعالى قد حرم أكل لحم الخنزير، و لا أدري هل الخنزير الذي حرمه هذه الشاة أم غيرها، كان مؤمنا.

ولو قال: اعلم أن الله تعالى فرض الحج إلى الكعبة، غير أنني لا أدري أين الكعبة، و لعلها بالهند، كان مؤمنا.

و مقصوده أن أمثال هذه الاعتقادات أمور وراء الإيمان، لا أنه كان شاكا في هذه الأمور، فإن عاقلا لا يستجيز من عقله أن يشك في الكعبة إلى أي جهة هي، و أن الفرق بين الشاة و الخنزير ظاهر [2].

و هذه القصة التي أوردها الشهرستاني وذكرها الأشعري عن أبي حنيفة فقال: و ذكر أبو عثمان الآدمي بأنه اجتمع أبو حنيفة و عمر بن أبي عثمان الشمزي بمكة، فسأله عمر فقال له : اخبرني عمن يزعم أن الله سبحانه حرم أكل الخترير، غير أنه لا يدري لعل الخترير الذي حرمه ليس هي هذه العين، فقال: مؤمن، فقال له عمر: فإنه قد زعم أن الله قد فرض

---

(١) المواعظ و الاعتبار٤/١٧٧ .

(٢) الملل و النحل: ١/ ١٤١.

الحج إلى الكعبة غير أنه لا يدري لعلها كعبة غير هذه بمكان كذا، فقال هذا مؤمن، قال: فإن قال: اعلم أن الله قد بعث محمدا، و أنه رسول الله غير أنه لا يدري لعله هو الزنجي، قال: هو مؤمن [١] .

قلـــت: عن ما أورده الأشعري عن أبي حنيفة رحمه الله يبعد كل البعد أن يصـــدر من عاقل، فضلا أن يصدر من عالم كأبي حنيفة ، و لعل ذلك مما نســـبه إليه غسان فيما نسبه إليه من أقوال كذب فيها على أبي حنيفة رحمه الله.

قال الشهرستاني: و من العجيب أن غسان كان يحكي عن أبي حنيفة رحمه الله مثل مذهبه و يعده من المرجئة، و لعله كذب كذلك عليه لعمري كان يقال لأبي حنيفة و أصحابه مرجئة أهل السنة ؟ ، و عده كثير من أصحاب المقـــالات من جملة المرجئة، و لعل السبب فيه أنه لما كان يقول: الإيمان هو التصـــديق بالقلـــب، و هو لا يزيد ولا ينقص، ظنوا أنه يؤخر العمل عن الإيمان، و الرجل مع تخريجه في العمل كيف يفتي بترك العمل ، وله سبب آخر ، و هو أنه يخالف القدرية، و المعتزلة الذين ظهروا
في الصـــدر الأول، و المعـــتزلة كـــانوا يلقبون من خالفهم في القدر مرجئا و كذلـــك الوعـــيدية مـــن الخوارج، فلا يبعد إنما لزمه من فريقي المعتزلة و الخوارج و الله أعلم [٢] .

و أبو حنيفة يعد من مرجئة الفقهاء، و يقول عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمـــه الله " و هـــذه الشـــبهة أوقعـــتهم- يعني شبهة التعدد و التبعيض

---

(١) مقالات الإسلاميين: ١/ ٢٢١.

(٢) الملل و النحل١/ ١٤١، و انظر مقالات الإسلاميين١/٢٢٠،٢١٩ تعليق محمد محي الدين عبدالحميد.

في الإيمـــان- مـــع علم كثير منهم و عباد ته و حسن إسلامه و إيمانه ولهذا دخـــل في إرجـــاء الفقهـــاء جماعة هم عند الأمة أهل علم و دين ولهذا لم يكفر أحد من السلف أحدا من مرجئة الفقهاء، بل جعلوا هذا من بدع الأقوال و الأفعال، لا من بدع الاعتقاد، فإن كثيرا من التراع فيها لفظي، و لكـــن اللفظ للكتاب و السنة هو الصواب- فليس لأحد أن يقول بخلاف قول الله و رسوله [1] .

٣- الثوبانية:

الثوبانية اتباع ثوبان [2] المرجئ، ثم الخارجي المعتزلي، و كان يقال له جامع النقائض هاجر الخصائص، و من قوله: الإيمان هو المعرفة و الإقرار و الإيمان فعـــل ما يجب في العقل فعله، فأوجب الإيمان بالعقل قبل ورود الشرع، و فارق الغسانية و اليونسية في ذلك [3] .

و قال عنه الشهرستاني:

" أصـــحاب ثوبان المرجئ الذين زعموا أن الإيمان هو المعرفة و الإقرار بالله تعـــالى، و برسله عليهم الصلاة و السلام ، و بكل ما لا يجوز في العقل أن يفعلـــه، و ما جاز في العقل تركه ، فليس ذلك من الإيمان ، و أخر العمل كله عن الإيمان [4] .

(١) الإيمان لابن تيمية: ٣٣٧.

(٢) و في الملل : أتباع أبي ثوبان المرجئ ١٤٢/١ .

(٣) المواعظ و الاعتبار ١٧٨/٤، و انظر الفرق بين الفرق ٢٥٤ .

(٤) الملل والنحل ١٤٢/١ .

٤- التؤمنية :

اتباع أبي معاذ التؤمني الفيلسوف، زعم أن من ترك فريضة لا يقال له فاسق على الإطلاق، و لكن ترك الفريضة فسق، و زعم أن هذه الخصال التي تكون جملتها إيماناً ، فواحدة ليست بإيمان، و لا بعض إيمان وأن من قتل نبيا كفر لا لأجل القتل بل لاستخفافه به و بغضه له [1].

و قال الشهرستاني: أصحاب أبي معاذ الثؤمني، زعم أن الإيمان هو ما عصم من الكفر و هو اسم لخصال إذا تركها التارك كفر، و كذلك لو ترك خصلة واحدة منها كفر، و لا يقال للخصلة الواحدة منها إيمان ولا بعض إيمان وكل معصية كبيرة أو صغيرة لم يجمع المسلمون عليها بأنها كفر لا يقال لصاحبها فاسق ولكن يقال فسق وعصى .

قال: و تلك الخصال هي: المعرفة، و التصديق، و المحبة، والإخلاص و الإقرار بما جاء به الرسول صلى الله عليه و سلم .

قال و من ترك الصلاة و الصيام مستحلا كفر، و من تركها على نية القضاء لم يكفر ومن قتل نبيا أو لطمه كفر، لا من أجل القتل و اللطم، و لكن من أجل الاستخفاف و العداوة و البغض [2] .

منطلق شبهة هؤلاء المرجئة:

إن منطلق الشبهات في الإيمان، و أساس ضلال الفرق جميعها فيه هو أصل واحد، اتفقت عليه الأطراف المتناقضة، ثم تضاربت عقائدها المؤسسة عليها، ذلك أن الخوارج و المعتزلة و المرجئة- بأنواعهم- اتفقوا

---

(١) المواعظ و الاعتبار: ٤/٧٨ ١، و انظر أيضا الفرق بين الفرق: ٢٠٣

(٢) الملل والنحل ١/١٤٤ .

على أصل واحد انطلقوا منه هو: أن الإيمان شيء واحد لا يزيد ولا ينقص، و أن لا يجتمع في القلب الواحد إيمان و نفاق، ولا يكون في أعمال العبد شعبة من الشرك و شعبة من الإيمان.

فالمرجئة وجدوا أن النصوص الكثيرة و النظر العقلي يدلان على فساد قول الخوارج، من أن مرتكب الكبيرة غير مؤمن، و كذلك المعتزلة سلبوا مسمى الإيمان عنه، و لم يدخلوه الكفر ، و ابتدعوا ما أسموه " بالمنزلة بين المنزلتين ".

ثم وجد المرجئة أن ارتكاب المحظورات و ترك الفرائض هو من جنس الأعمال لا الاعتقادات، فاتفقت سائر فرقهم على إخراج الأعمال من مسمى الإيمان حتى يسلم لهم الأصل المذكور فيظل تارك الصلاة مثلا أو مرتكب المحرم مؤمنا، بل لم يتورع بعضهم عن التصريح بمساواة إيمانه بإيمان الملائكة و النبيين بناء على هذا الأصل.

ثم اختلفت فرق المرجئة، فمنهم من يقول: الإيمان محله القلب، و منهم من يضيف إليه إقرار اللسان، و الذين قالوا محله القلب، اختلفوا في التسمية، فقال بعضهم هو المعرفة، و قال آخرون: هو التصديق [1] .

و المقريزي له دور فعال في بيان ضلالات هذه الطوائف في باب الإرجاء كغيره من كتاب الفرق الذين عنوا بالبحث في هذا الجانب أما موقفه من الإمامة، فلم أجد للمقريزي فيه رأيا أو مقالا.

---

(١) بدع الاعتقاد. محمد حامد الناصر ٣٤، نقلا عن ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي للدكتور سفر الحوالي: ٢٨٠، ٢٨١.

الفصل الثاني : موقفه من الفرق الكلامية
وفيه ثلاث مباحث :

المبحث الأول : المعتزلة .

المبحث الثاني : الأشاعرة .

المبحث الثالث : الكرامية .

المبحث الأول : المعتزلة

الاعـــتزال لغـــة: مأخوذ من اعتزال الشيء وتعزله. بمعنى تنحى عنه، ومنه تعازل القوم بمعنى تنحى بعضهم عن بعض، وكنت بمعزل عن كذا وكذا أي كنت في موضع عزلة منه واعتزلت القوم أي فارقتهم، وتنحيت عنهم، ومنه قوـــله تعالى (وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون) [1]، أراد إن لم تؤمنوا بي ، فلا تكونوا علي ولا معي .

ومنه قول الأحوص:

يا بيت عاتكة الذي أتعزل   حذر العدى وبه الفؤاد موكل

وعـــلى ذلك فالاعتزال معناه: الانفصال والتنحى، والمعتزلة هم المنفصلون هذا في اللغة [2] .

أما المعتزلة في الاصطلاح: فهو اسم يطلق على فرقة ظهرت في الإسلام في أوائـــل القرن الثاني وسلكت منهجا عقليا متطرفا في بحث العقائد الإسلامية وهم أصحاب وأصل بن عطاء الغزال الذي اعتزل مجلس الحسن البصري [3] .

أصل تسمية المعتزلة :

لقد اختلف الباحثون في أصل التسمية على آراء عده أهمها: التفسير الشائع الـــذي أورده كـــتاب الفرق كالبغدادي والشهرستاني ومن حذا حذوهما والذي يفيد بأن كلمة (المعتزلة) لفظ أطلقه أعداؤهم من أهل السنة عليهم للتدلـــيل عـــلى أهـــم انفصـــلوا عـــنهم، وتـــركوا مشـــايخهم القدامى

---

(١) سورة الدخان آية ٢١ .

(٢) أنظر محيط المحيط ص ١٣٩١ والقاموس المحيط ١٥/٤ ولسان العرب ١١/ ٤٤٠ .

(٣) المعتزلة وأصولهم الخمسة عواد بن عبدالله المعتق ص ١٣ ، ١٤ .

واعـتزلوا قـول الأمة بأسرها في مرتكب الكبيرة، فهو بهذا الاعتبار اسم يتضمن نوعا من الذم واتهاما واضحا بالخروج على السنة والجماعة فالمعتزلي هو المخالف والمنفصل [1] .

أسماء المعتزلة وعلة تلقيبهم بها:

للمعـتزلة أسماء كثيرة منها: ما أطلقه غيرهم نكاية بهم، ومنها: ما أطلقوه على أنفسهم.

القسم الأول: ما أطلقه الغير عليهم:

١- **الجهمـية** : وسـبب تلقيبهم هذا اللقب، هو أنهم لما كانت الجهمية سـبقت المعتزلة في الظهور واشتهرت ببعض آرائها، وكان سبقها للمعتزلة قريـب، فلما خرجت المعتزلة وافقت الجهمية في مسائل كثيرة، منها نفي الرؤية والصفات، وخلق الكلام [2] ، فكأن توافق الفرقتين جعلهما كالفرقة الواحـدة، ولـذا أصبح يطلق على كل معتزلي جهمي ولا يطلق على كل جهمـي معتزلي، ولذلك أطلق أئمة الأثر لفظ الجهمية على المعتزلة فالإمام أحمـد في كـتابه الرد على الجهمية، والبخاري في الرد على الجهمية ومن بعدهمـا، إنما يعنون بالجهمية المعتزلة لأنهم كانوا في المتأخرين أشهر في هذه المسائل من الجهمية [3] .

---

(١) دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية د/ عرفان عبدالحميد ص ٨٤ .

(٢) أي أن كلام الله مخلوق وهذا إشارة إلى القول بخلق القرآن .

(٣) تاريخ الجهمية والمعتزلة لجمال الدين القاسمي ص ٤٤ .

٢- القدرية: كذلك يلقب المعتزلة بالقدرية يقول البغدادي، وهو يسوق ما أجمعت عليه المعتزلة (وقد زعموا أن الناس هم الذين يقدرون أكساهم وأنه لـــيس لله عز وجل في أكساهم وفي أعمال سائر الحيوانات صنع ولا تقدير ولأجل هذا التقدير سماهم المسلمون القدرية [١].

٣- الثـــنوية المجوسية: يقول المقريزي: إن المعتزلة يدعون الثنوية ، لقولهم الخير من الله والشر من العبد [٢].

٤- الوعيدية: من أسماء المعتزلة الوعيدية، سماهم به أحد المرجئة في شعر في هجاء أبي هاشم الجبائى :

يعيب القول بالإرجاء حتى   يرى بعض الرجاء من الجرائــــر
وأعظم من ذوي الأرجاء   جرما وعيدي أصر على الكبائر [٣]

٥- المعطلـــة: كان أهل السنة يطلقون على الجهمية الأولى نفاة الصفات اسم المعطلة لتعطيلها الله عن صفاته [٤].

القسم الثاني : ما أطلقوه على أنفسهم:

١- المعتزلة : سبق أني ذكرت أن هذا الاسم من ضمن أسمائهم التي سماهم بها غيرهم وهنا يرد من ضمن الأسماء التي تسموا بها، وذلك أهم لما رأوا أنه لا خـــلاص لهـــم مـــن هـــذا الاســـم، أخـــذوا يـــبرهنون على فضله

---

(١) الفرق بين الفرق ص ٩٤ .

(٢) المواعظ والاعتبار ١٦٩/٤ .

(٣) الفرق بين الفرق ص ١٧٧ .

(٤) الصواعق المرسلة لابن القيم ١٩٢/١ .

وأن المراد به الاعتزال عن الأقوال المحدثة والمبتدعة، وبرهنوا على ما يقولون ببعض النصوص مثل قوله تعالى (واهجرهم هجرا جميلا) [1] وذلك لا يكون إلا بالاعتزال عنه [2] .

٢-أهل العدل والتوحيد : يروي المقبلي [3]: أن المعتزلة كانوا يطلقون على أنفسهم أهل العدل والتوحيد والعدلية، ولذا يقول وتسمى المعتزلة نفسها بالعدلية وأهل العدل والتوحيد.

٣- أهل الحق، والفرقة الناجية، والمنزهون الله عن النقص : كذلك من أسماء المعتزلة التي تسموا بها، أهل الحق والفرقة الناجية ، والمنزهون الله عن النقص.

يقول المقبلى: (وتسمى المعتزلة نفسها، أهل الحق والفرقة الناجية والمنزهون الله عن النقص، ذلك أنهم يعتبرون أنفسهم على الحق ومن سواهم على الباطل، ولذا دعوا خصومهم بالمجبرة، القدرية المجوزة المشبهة الحشوية المرجئة وغير ذلك [4].

---

(١) المزمل آية ١٠ .

(٢) المعتزلة وأصولهم الخمسة عواد المعتق ص ٢٥ .

(٣) هو صالح بن المهدي بن علي بن عبدالله اليمني الزيدي عالم مشتهر في التفسير وعلوم القرآن والحديث واللغة والفقه ولد بقرية مقبل من أعمال اليمن سنة ١٠٤٠ هـ وانتقل إلى صنعاء ثم سكن مكة توفي سنة ١١٥٨ هـ انظر معجم المؤلفين ١٤/٥ .

(٤) المعتزلة وأصولهم الخمسة ص ٢٥ ، ٢٦ .

موقف المقريزي من المعتزلة:

المعــتزلة هم الغلاة في نفي الصفات الإلهية، القائلون بالعدل والتوحيد وأن المعارف كلها عقلية، حصولا ووجوبا قبل الشرع وبعده، وأكثرهم على أن الإمامة بالاختيار [١].

وقــد بين المقريزي أن المعتزلة تبلغ عشرين فرقة وسأبين هنا أربعا من فرق المعتزلة لأني رأيت أنها أهمها وأظهرها [٢].

الأولى: الواصلية :وهم أصحاب واصل بن عطاء بن أبي حذيفة الغزال مولى بــني منبه وقيل مولى بني مخزوم ولد بالمدينة سنة ثمانين، ونشأ بالبصرة ولقى أبــا هاشــم عــبدالله بن محمد بن الحنفية ولازم مجلس الحسن بن الحسين البصري، وأكثر من الجلوس بسوق الغزال ليعرف النساء المتعففات فيصرف إليهن صدقته فقيل له الغزال من أجل ذلك ، وكان طويل العنق جدا، حتى عابــه عمرو بن عبيد بذلك فقال: من هذه عنقه لا خير عنده ، فلربما برع واصل، قال عمرو: وربما أخطأت الفراسة وكان يلثغ بالراء، ومع ذلك كان فصيحا لسنا مقتدرا على الكلام، قد أخذ بجوامعه، فلذلك أمكنه أن أسقط حــرف الراء من كلامه، واجتناب الحروف صعب جدا، لا سيما مثل الراء لكثرة استعمالها ، وله رسالة طويلة لم يذكر فيها حرف الراء، أحد بدائع الكلام. وكان لكثرة صمته يظن به الخرس، توفي سنة إحدى وثلاثين ومائة، وله كتاب المنــزلة بين المنــزلتين ، وكتاب الفتيا، وكتاب التوحيد، وعنه أخــذ جماعة، وأخباره كثيرة، ويقال لهم الحسنية نسبة إلى الحسن البصري،

---

(١) المواعظ والاعتبار ٤/ ١٧٠

(٢) وذلك لشهرة أصحابها وكثرة انتشارها وسريان بلاءها في الأمة إلى يومنا هذا .

وأخذ واصل العلم عن أبي هاشم عبدالله محمد بن الحنفية وخالفه في الإمامة، واعتزاله يدور على أربع قواعد هي:

١- نفى الصفات .

٢- والقول بالقدر .

٣- والقول بمنـــزلة بين المنـــزلتين ، وأوجب الخلود في النار على مرتكب الكبيرة.

فـــلما بلغ الحسن البصري عنه هذا قال: هؤلاء اعتزلوا، فسموا من حينئذ المعتزلة.

٤- القـــول بـــأن إحدى الطائفتين من أصحاب الجمل وصفين مخطئها لا بعيـــنها [1] ويذهب الشهرستاني أيضا إلى أن اعتزال هذه الفرقة يدور على أربع قواعد هي :

القاعدة الأولى :

القـــول بـــنفي الصـــفات الثابتة لله في الكتاب والسنة والحجة في ذلك أنه يستحيل وجود الهين قديمين أوليين، ومن أثبت معنى وصفة قديمة فقد أثبت الهين .

القاعدة الثانية:

القـــول بالقدر وهو أن العبد هو الفاعل للخير والشر والإيمان والكفر وهو المجـــازي عـــلى فعله، والرب تعالى أقدره على ذلك، لأنه حكيم عادل ولا يجوز أن يضاف إليه شر ولا ظلم، ولا يجوز أن يريد من عباد ه خلاف ما يأمر، ويحتم عليهم شيئا ثم يجازيهم عليه، ويستحيل أن يخاطب العبد بإفعل وهو لا يمكنه أن يفعل.

---

(١) المواعظ والاعتبار ٤/١٧٠ .

القاعدة الثالثة:

القــول بالمنــزلة بين المنــزلتين ، وهو أن صاحب الكبيرة في منــزلة بين منــزلتي الكفر والإيمان، لا مؤمن ولا كافر، وحجته أن الإيمان عبارة عن خصال إذا اجتمعت سمي صاحبها مؤمنا، والفاسق مرتكب الكبيرة لم تجتمع فيه.

لذا لا يسمى مؤمنا، وهذا القول هو أول أقواله التي جهر بها، وبسببه فارق الحسن البصري.

القاعدة الرابعة:

قوله في الفريقين من أصحاب الجمل، وأصحاب صفين أن أحدهما فاسق لا بعينه [(١)].

ا لثانية: الهذلية :

أتباع أبي الهذيل [(٢)] محمد بن الهذيل العلاف شيخ المعتزلة، أخذ عن عثمان الطويل، عن واصل بن عطاء، ونظر الفلسفة،

ووافقهم في كثير وقال: جميع الطاعات من الفرائض والنوافل إيمان **وانفرد بعشر مسائل هي:**

الأولى: أن علم الله وقدرته وحياته هي ذاته.

---

(١) الملل والنحل ١/٤٨، ٤٩ وانظر المعتزلة وأصولهم لعواد المعتق ص ٥٢، ٥٣

(٢) محمد بن الهذيل بن عبدالله البصري العلاف ولد سنة ١٣٥ هـ وتوفي سنة ٢٢٦ وقيل سنة ٢٣٥ وقيل سنة ٢٣٧ في خلافة المتوكل عن مائة سنة، مولى عبدالقيس وشيخ المعتزلة البصريين أخذ الاعتزال عن عثمان بن خالد الطويل أحد أصحاب واصل بن عطاء وقد اطلع على الفلسفة اليونانية فجاءت أقواله متأثرة بها انظر الفرق بين الفرق الهامش ص ١٢١، ١٢٢ .

الثانية: أثبت إرادات لا محل لها يكون الباري تعالى مريدا لها، وقال الشهرستاني وهو أول من أحدث هذه المقالة وتابعه عليها المتأخرون.

الثالثة: قال بعض كلام الله لا في محل، وهو قوله (كن) وبعضه في محل كالأمر والنهي، وقال الشهرستاني والخبر والاستخبار وكان أمر التكوين عنده غير التكليف .

الرابعة: قال في أمور الآخرة كمذهب الجبرية.

قال الشهرستاني: أي أنه قدري الأولى جبري الآخرة فإن مذهبه في حركات الخالدين في الآخرة كلها ضرورية، لا قدرة للعباد فيها وكلها مخلوقة للباري تعالى، إذ لو كانت مكتسبة للعباد لكانوا مكلفين بها.

الخامسة: أن مقدورات الله تنتهي حتى لا يقدر على إحداث شيء ولا على إفناء شيء ولا على إحياء شيء ولا إماتة شيء [١].

قال الشهرستاني قوله إن حركات أهل الخالدين تنقطع وأنهم يصيرون إلى سكون دائم خمودا، وتجتمع اللذات في ذلك السكون لأهل الجنة، وتجتمع الآلام في ذلك السكون لأهل النار، ومذهبه قريب من مذهب جهم إذ حكم بفناء الجنة والنار، وقد التزم أبو الهذيل هذا المذهب [٢].

السادسة: قوله في الاستطاعة أنها عرض من الأعراض كالسلامة والصحة وفرق بين أعمال القلوب وأعمال الجوارح.

---

(١) المواعظ والاعتبار ٤/ ١٧١ .

(٢) الملل والنحل ١/١٥١ .

قـــال الشهرستاني: فقال لا يصح وجود أفعال القلوب منه مع عدم القدرة عليها، ولا مع موته، وجوز وجود أفعال الجوارح من الفاعل مع عدم قدرته علـــيها إن كـــان حيا وبعد موته، وزعم أن الميت والعاجز يجوز أن يكون فـــاعلين لأفعـــال الجـــوارح بالقدرة التي كانت موجودة فيهما قبل الموت والعجز.

السابعة : قوله تجب معرفة الله قبل ورود السمع، وفي الملل (قوله في المكلف قـــبل ورود الســـمع أي أنه يجب عليه أن يعرف الله تعالى بالدليل من غير خاطر وإن قصر في المعرفة استوجب العقوبة أبدا، ويعلم أيضا حسن الحسن وقبح القبيح، فيجب عليه الإقدام على الحسن كالصدق والعدل، والإعراض عن القبيح كالكذب و الفجور).

الثامـــنة: قوله إن المرء المقتول إن لم يقتل مات في ذلك الوقت ولا يزاد في العلم ولا ينقص بخلاف الرزق.

التاسعة: قوله إن إرادة الله عين المراد وفي الملل للشهرستاني إن إرادة الله غير المـــراد، فإرادتـــه لما خلقه هي خلقه له، وخلق الشيء عنده غير الشيء بل الخلـــق عـــنده قول لا في محل، وقال : إنه تعالى لم يزل سميعا بصيرا. بمعنى سيســـمع وسيبصر وكذلك لم يزل غفورا رحيما محسنا خالقا مثيبا معاقبا مواليا آمراً ناهياً بمعنى أن ذلك سيكون منه)، ولعل عبارة الشهرستاني أصح من عبارة المقريزي هنا .

العاشرة: قوله الحجة لا تقوم فيما غاب إلا بخبر عشرين، وعند الشهرستاني قال إن الحجة في الأخبار الماضية الغائبة عن الحواس لا تثبت

بـــأقل مـــن عشـــرين رجلا فيهم واحد أو أكثر من أهل الجنة [1] ويرى الـــبغدادي أن أبا الهذيل أراد بهذا القول تعطيل الأخبار الواردة في الأحكام الشرعية عن فوائدها، لأن نقله الأخبار ينبغي أن يكون فيهم واحد من أهل الجـــنة أي واحد على رأيه في الاعتزال ، لأن من لم يكن كذلك لا يكون عنده مؤمنا ولا من أهل الجنة [2].

الثالثة : النظامية :

أتـــباع إبراهـــيم [3] بن يسار النظام ، بتشديد الظاء المعجمة زعيم المعتزلة وأحد السفهاء ، انفرد بعدة مسائل وهي :

الأولى : قوـــله في القـــدر : إن الله تعالى لا يوصف بالقدرة على الشرور والمعاصي وأنها غير مقدورة لله [4] ، خلافاً لأصحابه ، فإنهم قضوا بأنه قادر عليها ، لكنه لا يفعلها ، لأنها قبيحة ، وقال أيضاً : إن الله لا يقدر أن يفعل بعباده إلا ما فيه صلاحهم ؛ هذا فيما يتعلق بقدرته في الدنيا .

---

(١) الملل والنحل ١/١٥٢ .

(٢) الفرق بين الفرق للبغدادي ١٢٣ – ١٢٨ .

(٣) هـــو أبو إسحاق إبراهيم بن يسار بن هانيء المعروف بالنظام سمي بهذا الاسم لأنه كان ينظم الخرز في سوق البصرة ، ولد سنة ١٨٥هـــ وتوفي سنة ٢٣١هـــ عاشر في شبابه قوماً من الثانوية والسمنية القائلين بتكافؤ الأدلة ، وخـــالط بعـــد كبره قوماً من ملاحدة الفلاسفة ، ثم اتصل بهشام بن الحكم الرافضي فأخذ عنه وعن ملاحدة الفلاسفة قوله بإبطال الجزء الذي لا يتجزأ ، ثم بني عليه قوله بالطفرة ، انظر المعتزلة وأصولهم ص ٥٦ .

(٤) المواعظ والاعتبار ٤ / ١٧١ .

وأمـــا أمـــور الآخرة ، فقال لا يوصف الباري تعالى بالقدرة على أن يزيد في عذاب أهل النار شيئاً ، ولا على أن ينقص منه شيئاً ، وكذلك لا ينقص مـــن نعـــيم أهـــل الجـــنة أو يخـــرج أحـــداً مـــن أهلها ، وليس ذلك مقدوراً له [1] .

الثانـــية : قوله في الإرادة : أن الباري ليس له إرادة ، وأفعال العباد كلها حركات والنفس والروح هو الإنسان ، البدن إنما هو آله فقط ، وأن كل ما جاوز القدرة من الفعل فهو من الله وهو فعله .

الثالثة : قوله : إن الجواهر مؤلفة من أعراض وأنكر الجوهر الفرد .

الرابعة : وأحدث القول بالطفرة [2] .

الخامسة : زعم أن الله خلق الموجودات دفعة على ما هي عليه[3] .

قال الشهرستاني : قوله في الكون ، وهو أن الله تعالى خلق الموجودات دفعة واحدة على ما هي عليه الآن معادناً ونباتاً وحيواناً وإنساناً ، و لم يتقدم خلق آدم عليه السلام على خلق أولاده ، غير أن الله تعالى أكمن بعضها في بعض ، فالتقدم و التأخر إنما يقع في ظهرها من مكامنها دون حدوثها ووجودها [4]

(١) الفرق بين الفرق ص ١٣٣ ، والملل والنحل ١/٥٤ .

(٢) وهي دعواه أن الجسم قد يكون في مكان ثم يصير منه إلى المكان الثالث أو العاشر منه من غير مرور بالأمكنة المتوســطة بينه وبين العاشر ، ومن غير أن يصير معدوماً في الأول ، ومعاداً في العاشر ، انظر الفرق بين الفرق ص ١٤٠ .

(٣) المواعظ والاعتبار ٤/١٧١ .

(٤) الملل و النحل ١/٥٨ ، والفرق بين الفرق ص ١٤٢ .

السادسة : إنكاره أن يكون الإجماع حجة [1] ، وكذلك القياس في الأحكام الشرعية لا يجوز أن يكون حجة ، وإنما الحجة في قول الإمام المعصوم [2] .

السابعة : طعن الصحابة رضي الله عنهم ، وقال قبحه الله : أبو هريرة أكذب الناس ، وزعم أنه ضرب فاطمة ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنع ميراث العترة [3] .

وقد كان يميل إلى الرفض والوقيعة بين كبار الصحابة ، وقال : لا إمامة إلا بالنص والتعيين ظاهراً ومكشوفاً ، وقد نص النبي صلى الله عليه وسلم على علي رضي الله عنه ، إلا أن عمر كتم ذلك ، وتولى بيعة أبي بكر يوم السقيفة ، ونسبه إلى الشك يوم الحديبية حين سأل الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال : ألسنا على الحق وهم أليسوا على الباطل ؟ .

وقال : إن عمر ضرب بطن فاطمة يوم البيعة ؛ حتى ألقت الجنين من بطنها ، وأنه كان يصيح : أحرقوا دارها ، وأنه لم يكن في الدار إلا علي والحسن و الحسين ، وعاب عليه أيضاً تغريبه نصر بن الحجاج من المدينة إلى البصرة ، وأمره بالتراويح ونهيه عن متعة الحج .

---

(١) المواعظ والاعتبار ١٧١/٤ .

(٢) الملل و النحل ٥٧/١ .

(٣) المواعظ والاعتبار ١٧١/٤ .

ثم أوقــع في عثمان رضي الله عنه وذكر أحداثه من رده الحكم بن أمية إلى المدينة ، وهو طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونفيه أبا ذر إلى الربذة ، وهــو صــديق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتقليده الوليد بن عقبة الكوفة ، وضربه عبدالله بن مسعود على إحضار المصحف .

ثم عــاب علــياً وابــن مسعود لقولهما في بعض المسائل : أقو لفيها برأيي وكــذب ابن مسعود في روايته انشقاق القمر ، وفي روايته الجن ليلة الجن إلى غير ذلك من الوقيعة الفاحشة في كبار الصحابة رضي الله عنهم أجمعين الذيــن قــال تعــالى فيهم (لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشــجرة فعــلم مــا في قلوبهــم فأنــزل الســكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً) [1] .

ومــن غضب على علي رضي الله عنه فهو من المغضوب عليهم دونهم [2] وقــال لا تجوز صلاة التراويح ، ونهى عن ميقات الحج ، وكذب بانشقاق القمــر ، وأحال رؤية الجن ، وزعم أن من سرق مائتي دينار فما دونها لم يفسق ، وأن الطلاق بالكتابة لا يقع وإن كان بنية ، وأن من نام مضطجعاً لا ينقض وضوؤه ما لم يخرج منه الحدث ، وقال لا يلزم قضاء الصلوات إذا فاتت [3] .

---

(١) سورة الفتح آية ١٨ .

(٢) الفرق بين الفرق ص ١٤٣ ، ١٤٨ ، والملل و النحل ١/٥٧ ، ٥٨ .

(٣) المواعظ والاعتبار ٤/١٧١ .

قلت : إن السفه الذي نسبه إليه المقريزي قليل في حقه ، إذ الجنون أولى به ، ويكفي أن أكثر المعتزلة متفقون على تكفير النظام ، ومن قال بتكفيره من شيوخ المعتزلة أبو الهذيل ، والجبائي ، والإسكافي ، وجعفر بن حرب ، وكتب أهل السنة في تكفيره تكاد لا تحصى [1] .

الرابعة الهشامية :

أتباع هشام بن عمرو الفوطي [2] ، الذي يبالغ في القدر ولا ينسب إلى الله فعلاً من الأفعال ، حتى أنه أنكر أن يكون الله هو الذي ألف بين قلوب المؤمنين ، وأنه يحب الإيمان للمؤمنين ، وأنه أضل الكافرين ، وعاند ما في القرآن من ذلك وقال: لا تنعقد الإمامة في زمن الفتنة واختلاف الناس ، وأن الجنة والنار غير مخلوقتين .

ومنع من أن يقال حسبنا الله ونعم الوكيل ، وقال لأن الوكيل دون الموكل وقال : لو أسبغ أحدكم الوضوء ودخل الصلاة بنية القربة إلى الله تعالى والعزم على إتمامها وركع وسجد مخلصاً لله في ذلك كله إلا أن الله علم أنه يقطعها في آخرها ، فإن أول صلاته معصية .

---

(١) المعتزلة وأصولهم عواد المعتق ص ٥٦ .

(٢) هو هشام بن عمرو الشيباني الفوطي ، توفي سنة ٢٢٦هـ ذكره المرتضي في آخر من ذكره من الطبقة السادسة ، كان مبالغاً في القدر أشد من مبالغة أصحابه ، وكان يمتنع من إضافة أفعال الباري سبحانه ، مثل نفي إضافة الختم على قلوب الكفار إلى الله تعالى ، انظر المعتزلة وأصولهم لعواد المعتق ص ٦٤ .

ومنع أن يكون البحر انفلق لموسى ، وأن عصاه انقلبت حية ، وأن عيسى أحيا الموتى بإذن الله ، وأن القمر انشق للنبي صلى الله عليه وسلم وأنكر كثيراً من الأمور التي تواترت .

قال : وأن الأمة إذا اجتمعت كلها وتركت الظلم والفساد احتاجت إلى إمام يسوسها ، فإما إذا عصت وفجرت وقتلت واليها فلا تنعقد الإمامة لأحد ، وبنى على ذلك أن إمامة علي رضي الله عنه لم تنعقد لأنها كانت حال فتنة بعد مقتل عثمان ، وأنكر أن الشيطان يدخل في الإنسان وإنما يوسوس له من خارج ، والله يوصل وسوسته إلى قلب ابن آدم وقال : لا يقال خلق الله الكافر لأنه اسم العبد و الكفر جميعاً ، وأنكر أن يكون في أسماء الله الضار النافع [1] .

وكذلك نرى مدى إسهام المقريزي في بيان عوار المعتزلة وآرائهم الضالة التي تلقوها آنذاك ، فعن الجهمية أخذوا قولهم بنفي الصفات وخلق القرآن ، وعن القدرية أخذوا القول بأن العباد يخلقون أفعالهم ، وعن الخوارج أخذوا رأيهم في الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ، وعن الشيعة أخذوا أكثر آرائهم الخاصة بالإمامة .

وعلى هذا فآراء المعتزلة إنما هي خليط من آراء الفرق المخالفة في عصرهم فظهرت شوهاء لا يقبلها عقل ولا يستسيغها فكر ، بل ينكرها الجاهل ، ناهيك عن العلماء وأرباب الحجج ، فلله الحمد أن وفق أهل السنة إلى الهدى ، وجنبهم مزالق الضلال والردى .

---

(١) المواعظ والاعتبار ١٧٢/٤ .

المبحث الثاني : الأشاعرة

تعريف الأشاعرة : هم جماعة منتسبون إلى أبي الحسن الأشعري [1] رحمه الله في ا لاعتقاد [2].

متأخروهم في الجملة يؤمنون ويثبتون صفات المعاني السبع ويمنعون قيام الصفات الاختيارية بالله تعالى وهم في القدر مجبرة متوسطة وفي مباحث الإيمان لهم شبه بالمرجئة في تعريفه، وفي مواقفهم من الصحابة وفي الأمور السمعية الأخروية لا يخالفون أهل السنة و ا لجماعة [3] .

موقف المقريزي من الأشاعرة:

ترجم المقريزي لأبي الحسن الأشعري فقال هو أبو الحسن على بن إسماعيل بن أبي إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبدالله بن موسى بن بلال بن أبي بردة عامر بن أبي موسى، واسمه عبدالله بن قيس الأشعري

---

(١) هو الشيخ أبو الحسن على بن إسماعيل أبي بشر إسحاق بن سالم ابن إسماعيل بن عبدالله بن موسى بن بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبو الحسن الأشعري ينتهي نسبه إلى هذا الصحابي الجليل، واسمه عبدالله بن قيس بن محضار الأشعري اليماني.

اختلف في تاريخ ولادته فقيل سنة ٢٦٥ هـ، وقيل سنة ٢٦٦ هـ وقيل سنة ٢٧٥ هـ والأول هو الأرجح الذي عليه أكثر مترجميه كما أنه يتناسب مع ما ذكر في حياته من تحوله عن الاعتزال وهو في الأربعين وهو الذي رجحه الخطيب البغدادي وابن عساكر.

توفي رحمه الله قيل سنة ٣٢٥ هـ وقيل ٣٣٥ هـ وهو أرجحها انظر موقف ابن تيمية من الأشاعرة للدكتور عبدالرحمن بن صالح الحمود ١/٣٨٨ وانظر منهج أهل السنة والجماعة، منهج الأشاعرة في توحيد الله لخالد بن عبداللطيف ١/٢٩ .

(٢) الملل والنحل ١/٩٤ .

(٣) منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله لخالد عبداللطيف ١/٢٨ .

البصـــري، ولد سنة ست وستين ومائتين، وقيل سنة سبعين، وتوفي ببغداد سنة بضع وثلاثين وثلاثمائة وقيل سنة أربع وعشرين وثلاثمائة، سمع زكريا الساجي، وأبا خليفة الجمحي وسهل بن نوح، ومحمد بن يعقوب القمري، وعــبد الــرحمن بن خلف الضبي المصري، وروى عنهم في تفسيره كثيرا، وتتلمذ على يد زوج أمه أبي علي محمد بن عبدالوهاب الجبائي .

واقتدى برأيه في الاعتزال عدة سنين حتى صار من أئمة المعتزلة، ثم رجع عن القول بخلق القرآن وغيره من أراء المعتزلة، وصعد يوم الجمعة بجامع البصرة كرسيا ونادى بأعلى صوته، من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفســي أنــا فــلان ابن فلان، كنت أقول بخلق القرآن، وأن الله لا يرى بالأبصار وأن أفعال الشر أنا أفعلها، وأنا تائب مقلع معتقد الرد على المعتزلة مــبين لفضـــائحهم ومعايـــبهم وأخـــذ مـــن حينـــئذ في الـــرد عليهم [1].

وذكر المقريزي جملة من عقيدته منها :

فقـــال: وجملة عقيدته أن الله تعالى عالم بعلم، قادر بقدرة حي بحياة مريد بإرادة متكلم بكلام، سميع بسمع بصير ببصر... إلى أن قال:

وخـــالف المعـــتزلة في الوعد والوعيد والسمع والعقل من كل وجه، وقال الإيمـــان هـــو التصـــديق بالقلب والقول باللسان، والعمل بالأركان فروع الإيمـــان، فمـــن صدق بالقلب أي أقر بوحدانية الله تعالى واعترف بالرسل

---

(١) المواعظ والاعتبار ٤/ ١٩٤

تصديقا لهم فيما جاء به فهو مؤمن [1] وصاحب الكبيرة إذا خرج من الدنيا من غير توبة حكمه إلى الله إما أن يغفر له برحمته أو يشفع له رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإما أن يعذبه بعدله ثم يدخله الجنة برحمته، ولا يخلد في النار مؤمن.

ثم قال عن أمور الغيب:

والإيمان بما جاء في القرآن والسنة من الأخبار عن الأمور الغائبة عنا مثل اللوح والقلم والعرش والكرسي والجنة والنار حق وصدق يجب الإيمان والاعتراف به، والإمامة تثبت بالاتفاق والاختيار دون النص والتعيين على واحد معين، والأئمة مترتبون في الفضل ترتبهم في الإمامة [2].

هذا موقف المقريزي من أبي الحسن الأشعري الذي تنسب إليه فرقة الأشاعرة أما الأشاعرة فقد قال عنهم:

والأشاعرة يسمون الصفاتية لاثباهم صفات الله تعالى القديمة [3] ثم افترقوا في الألفاظ الواردة في الكتاب والسنة، كالاستواء والنزول والإصبع، واليد والقدم، والصورة والجنب، والمجيء على فرقتين ، فرقة تؤول جميع ذلك على وجوه محتملة اللفظ، وفرقة لم يتعرضوا للتأويل ولا صاروا إلى

---

(١) فهنا يظهر تأخير العمل عن الإيمان وهو قول المرجئة الذي مر بنا في الفصل الأول من هذا الباب ولكن لعل ذلك منقول من كلام الأشعري قبل تدوينه لكتبه المتأخرة ككتابه الإبانة ومقالات الإسلاميين ورسالة إلى أهل الثغر التي التزم فيها مذهب أهل السنة و الجماعة ، وإن كان الخلاف في الأشعري هل رجع إلى مذهب أهل و السنة و الجماعة أم لم يرجع يطول بحثه وينظر فيه إلى موقف ابن تيمية من الأشاعرة للدكتور عبدالرحمن بن صالح المحمود ١/٣٦١ - ٤٢٢ .

(٢) المواعظ والاعتبار باختصار ٤/ ١٩٤، ١٩٥

(٣) هذه الكلمة ليست من كلام السلف بل هي من كلام المتكلمين.

التشـــبيه ويقـــال لهؤلاء الأشعرية الأسرية، فصار للمسلمين في ذلك خمسة أقوال:

أحدها: اعتقاد ما يفهم مثله من اللغة.

وثانيها: السكوت عنه مطلقا.

وثالثها: السكوت عنها بعد نفى إرادة الظاهر.

ورابعها: حملها على المجاز.

وخامسها: حملها على الاشتراك ولكل فريق أدلة وحجاج ، تضمنتها كتب أ صول الدين، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، ولذلك خلقهم والله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه مختلفين [١].

ثم يقـــول المقريـــزي مبينا اتساع مذهب الأشاعرة في الأمصار فلما ملك السـلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ديار مصر، كان هو وقاضـــيه صـــدر الديـــن عبدالملك بن عيسى بن درباس الماراني على هذا المذهـــب، قد نشأ عليه منذ كانا في خدمة السلطان الملك العادل نور الدين محمـــود بـــن زنكي بدمشق، وحفظ صلاح الدين في صباه عقيدة ألفها له قطـــب الديـــن أبو المعالي مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري، وصار يحفظهـــا صغار أولاده، فلذلك عقدوا الخناصر وشدوا البنان على مذهب الأشعري وحملوا في أيام دولتهم كافة الناس على التزامه، فتمادى الحال على ذلـــك جمـــيع أيـــام الملـــوك مـــن بـــني أيوب، ثم في أيام مواليهم الملوك

---

(١) المواعظ والاعتبار ٤/ ١٩٥، ١٩٦

مـــن الأتـــراك، واتفق مع ذلك توجه أبي عبدالله محمد بن تومرت [1] أحد رجـــالات المغرب إلى العراق وأخذ من أبي حامد الغزالي مذهب الأشعري، فـــلما عـــاد إلى بـــلاد المغـــرب وقـــام في المصـــادمة يفقههم ويعلمهم وضع لهم عقيدة لقفها عنه عامتهم، ثم مات فخلفه بعد موته عبدالمؤمن بن عـــلي القيسي وتلقب بأمير المؤمنين، وغلب على ممالك المغرب هو وأولاده مـــن بعد عدة سنين ، وتسموا بالموحدين، فلذلك صارت دولة الموحدين ببلاد المغرب تستبيح دماء من خالف عقيدة ابن تومرت.

إذ هـــو عندهم الإمام المعلوم، المهدي المعصوم، فكم أراقوا بسبب ذلك من دمـــاء خلائق لا يحصيها إلا الله خالقها سبحانه وتعالى كما هو معروف في كتب التاريخ.

فكـــان هـــذا هو السبب في اشتهار مذهب الأشعري وانتشاره في أمصار الإســـلام، بحيث نسى غيره من المذاهب، وجهل حتى لم يبق اليوم مذهب يخالفه [2].

ويرى المقريزي بأن التأويل ليس من فعل السلف رحمهم الله بل هو من فعل أهـــل الأهـــواء والبدع ، قال: و لم يبلغنا عن أحد من الصحابة والتابعين وتابعيهم أنهم أولوا هذه الأحاديث، والذي يمنع تأويلها إجلال الله تعالى عن أن تضـــرب له الأمـــثال، وأنـــه إذا نـــزل القـــرآن بصـــفة مـــن

---

(١) ابـــن تومـــرت: محمد بن عبدالله بن تومرت المصمودي البربري، الملقب بالمهدي ويقال له مهدي الموحدين واضـــع أسس الدولة المؤمنية الكومية ولد من قبيلة مرغه من المصامدة بالمغرب الأقصى سنة ٤٨٥ هـــ خرج على ابـــن تاشفين وتلقب بالمهدي القائم بأمر الله ، توفي في جبل تينمل سنة ٥٢٤ هـــ وله كتب منها الجماعة العشرة وهى أول عشر آمنوا بدعوته على غرار كتب السيرة انظر الإعلام للزركلي ٢/٢٢٩،٢٢٨ .

(٢) المواعظ والاعتبار ٤/ ١٩٢

صفات الله تعالى كقوله سبحانه (يد الله فوق أيديهم) [1] ، فإن نفس تلاوة هـذا يفهـم المـراد مـنها، وكـذا قوله تعـالى (بـل يـداه مبسـوطتان)[2] عند حكايته تعالى عن اليهود نسبتهم إياه البخل فقد قال تعالى (بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء) [3] .

وبهذا يبين المقريزي طريقة السلف في صفات الله عز وجل ليتضح من خلاله مذهـب الأشـاعرة الذين ذهبوا إلى إثبات سبع صفات أسموها الصفات القديمة.

وهـي العلم والقدرة والحياة، والإرادة، والكلام، والسمع، والبصر وما عدا ذلـك فقـد ذهبوا إلى تأويله وصرفه عن معناه الحق إلى معان أخرى غير محتملة ولا مرادة لله ورسوله، إذ لو كانت مرادة لله ورسوله لبينها لنا لأنها من الأمور التي لا يمكن أن يسكت عليها لما عليها من مدار صلاح الاعتقاد ويذهب المقريزي إلى أن المذهب الحق هو مذهب الحنابلة أتباع أبي عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل فيقول:

و لم يبق اليوم مذهب يخالفه- يعني مذهب الأشاعرة- إلا أن يكون مذهب الحنابلة أتباع الإمام أبي عبدالرحمن أحمد بن محمد بن حنبل رضي الله عنه ، فإنهم كانوا على ما كان عليه السلف، لا يرون تأويل ما ورد من الصفات إلى أن كـان بعد السبعمائة من سني الهجرة، أشتهر بدمشق وأعمالها تقي الديـن أبـو العـباس أحمـد بـن عبدالحليم بـن عبدالسـلام بـن

---

(١) سورة الفتح آية ١٠ .

(٢) المائدة آية ٦٤ .

(٣) المائدة آية ٦٤ .

تيمية [1] الحراني فتصدى للانتصار لمذهب السلف وبالغ في الرد على مذهب الأشاعرة، وصدع بالنكير عليهم وعلى الرافضة وعلى الصوفية [2].

---

(١) ترجم له المقريزي في كتابه التاريخ الكبير المقفى في تراجم أهل مصر الواردين إليها وهى ترجمة جميلة رائقة تدل على اهتمام المقريزي بجهود شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وقد أفردها محمد بن إبراهيم الشيباني ضمن منشورات مركز المخطوطات والتراث والوثائق بالكويت في كتيب صغير يحتوي على قرابة ٣٥ صفحة من القطع المتوسط في طبعتها الأولى سنة ١٤١٥ هـ

(٢) المواعظ والاعتبار ٤/ ١٩٢ .

المبحث الثالث : الكرامية

هم أتباع محمد بن كرام [1] بن عراق بن حزابه أبو عبدالله السجستاني زعيم الطائفة الكرامية بعد المائتين من سني الهجرة، واثبت الصفات حتى انتهى فيها إلى التجسيم والتشبيه، وحج وقدم الشام ومات بغزه في صفر سنه ست وخمسين ومائتين ، ودفن بالقدس وكان هناك من أصحابه زيادة على عشرين ألفا على التعبد والتقشف سوى من كان منهم ببلاد المشرق، وهم لا يحصون لكثرهم [2].

قال عنه البغدادي وضلالات أتباعه اليوم متنوعة أنواعا لا نعدها أرباعا، ولا أسباعا لكنها تزيد على الآلاف آلافا [3] .

بدع الكرامية:

أولا: أن الإيمان قول مفرد وهو قول لا إله إلا الله وسواء اعتقد أو لا.

ثانيا: زعموا أن الله جسم وله حد ونهاية من جهة السفل وتجوز عليه ملاقاة الأجسام التي تحته.

ثالثا: انه على العرش والعرش مماس له.

رابعا: أنه محل الحوادث من القول، والإرادة، والإدراكات، والمرئيات والمسموعات.

---

(١) قال في الفرق بين الفرق كان مطرودا من سجستان إلى غرجستان وكان أتباعه في وقته أوغاد، وأفشين وورد نيسابور في زمن ولاية محمد بن طاهر بن عبدالله بن طاهر وتبعه على بدعته من أهل سواد نيسابور شرذمة من أكرة القرى والدهم. الفرق بين الفرق ص ٢١٥ توفي محمد بن كرام سنة ٢٥٥ هـ وبلغ أتباعه في خراسان وحدها أكثر من عشرين ألفاً وكان له مثل ذلك في أرض فلسطين انظر حاشية الملل والنحل ١/١٥٨

(٢) المواعظ والاعتبار ٤/ ١٩٥ .

(٣) الفرق بين الفرق البغدادي ص ٢٢٤ .

خامسا: لو علم الله أن أحدا من عباده لا يؤمن به لكان خلقه إياه عبثا.
سادسا: وأنه يجوز أن يعزل نبي من الأنبياء والرسل.
سابعا: ويجوز عندهم على الأنبياء كل ذنب لا يوجب حدا ولا يسقط عدالة.
ثامنا: وأنه يجوز أن يكون إمامان في وقت واحد، وأن عليا ومعاوية كانا إمامين في وقت واحد إلا أن عليا كان على السنة ومعاوية خلافها.
وانفرد ابن كرام في الفقه بأشياء منها:
أولا: أن المسافر يكفيه من صلاة الخوف تكبيرتان.
ثانيا: إجازة الصلاة في ثوب مستغرق في النجاسة.
ثالثا: زعم أن الصلاة والصوم والزكاة والحج وسائر العبادات تصح بغير نية وتكفى نية الإسلام وأن النية تجب في النوافل.
رابعا: يجوز الخروج من الصلاة بالأكل والشرب والجماع عمدا، ثم البناء عليها [1].
فانظر إلى هذا الكلام الفاحش في ذات الله وصفاته، وإلى هذه الجهالات في أبواب الفقه التي تنم عن المخالفة والمفارقة لما عليه العلماء الأفذاذ الذين صح اعتقادهم ووضح فكرهم.
ولكن إذا اتبع المرء الهوى وسلك مسالك شتى خرج عن طريق الهدى
وما أجمل كلام المقريزي وهو يبين سبب ضلال الناس ومخالفتهم للهدى فيقول:

---

(١) المواعظ والاعتبار ١٧٦/٤ ، وانظر مقالات ابن كرام في الفرق بين الفرق ص ٢١٥-٢٢٤ .

إن كـــلام الشارع لا سر تحته وهو كله لازم كل أحد لا مسامحة فيه، و لم يكـــتم رســـول الله صلى الله عليه وسلم من الشريعة ولا كلمة، ولا أطلع أخص الناس به من زوجه أو ولد عم على شيء من الشريعة
، وكـــتمه عن الأسود والأحمر ورعاة الغنم، ولا كان عنده صلى الله عليه وسلم سر ولا رمز ولا باطن غير ما دعا الناس كلهم عليه، ولو كتم شيئا لما بلـــغ كما أمر، ومن قال هذا فهو كافر بإجماع الأمة، وأصل كل بدعة في الدين البعد عن كلام السلف، والانحراف عن اعتقاد الصدر الأول.

حـــتى بـــالغ القدري في القدر فجعل العبد خالقا لأفعاله، وبالغ الجبري في مقابلته فسلب عنه الفعل والاختيار، وبالغ المعطل في
التنـــزيه فسلب عن الله تعالى صفات الجلال ونعوت الكمال، وبالغ المشبه في مقابلته فجعله كواحد من البشر.

وبـــالغ المرجئ في سلب العقاب، وبالغ الغلاة حتى جعلوه إلها، وبالغ السني في تقديمهـــم أبي بكـــر رضـــى الله عنه [1]، وبالغ الرافضي في تأخيره حتى أكفره.

---

(١) لقـــد جانـــب المقريزي الحق في هذه القضية إذ أن إمامة أبي بكر ليست مبالغة أو فيها مغالاة من أهل السنة والجماعة بل كان ذلك كله بالاختيار إذ القرائن والدلائل تشير إلى أنه الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقـــول ابـــن تيمـــية رحمـــه الله (والتحقيق أن النبي صلى الله عليه وسلم دل المسلمين على استخلاف أبي بكر وأرشدهم إليه بأمور متعددة من أقواله وأفعاله، وأخبر بخلافته إخبار راض بذلك حامد له، وعزم أن يكتب بذلك عهـــدا ثم علم أن المسلمين يجتمعون عليه فترك الكتاب اكتفاء بذلك...فلو كان التعيين مما يشتبه على الأمة لبينه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيانا قاطعا للعذر، لكن لما دلهم دلالات متعددة على أن أبا بكر هو المتعين وفهموا ذلـــك حصل المقصود ولهذا قال عمر بن الخطاب في خطبته التي خطبها بمحضر من المهاجرين والأنصار (وليس فيكم من تقطع إليه الأعناق مثل أبي بكر) رواه البخاري ومسلم إلى أن قال =

ومـيدان الظـن واسـع وحكم الوهم غالب، فتعارضت الظنون وكثرت الأوهـام وبلـغ كل فريق في الشر والعناد والبغي والفساد إلى أقصى غاية وأبعـد نهايـة وتباغضـوا وتلاعنوا، واستحلوا الأموال واستباحوا الدماء، وانتصروا بالدول واستعانوا بالملوك،

فلـو كان أحدهم إذا بالغ في أمر نازع الآخر في القرب منه، فإن الظن لا يـبعد عـن الظن كثيرا ولا ينتهي في المنازعة إلى الطرف الآخر من طرفي الـتقابل، لكـنهم أبـو إلا ما قدمنا ذكره من التدابر والتقاطع ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك [1] .

= (فخلافـة أبي بكـر الصديق دلت النصوص الصحيحة على صحتها وثبوتها ورضا الله ورسوله صلى الله عليه وسـلم بها، واعتقدت بمبايعة المسلمين واختيارهم إياه اختيارا استندوا فيه إلى ما علموه من تفضيل الله ورسوله بها، وأنها حق وأن الله أمر بها وقدرها، وأن المؤمنين يختارونها.

وكـان هذا أبلغ من مجرد العهد بها، لأنه حينئذ يكون طريق ثبوتها العهد وأما إذا كان المسلمون قد اختاروه من غير عهد ودلت النصوص على سواهم فيما فعلوه ورضا الله ورسوله بذلك كان ذلك دليلا على أن الصديق كان فـيه من الفضائل التي بان بها عن غيره ما علم المسلمون به أنه أحقهم بالخلافة فإن ذلك لا يحتاج إلى عهد خاص.

منهاج السنة ١/١٣٩- ١٤٥- ١٤١ باختصار.

(١) المواعظ والاعتبار ١٩٨/٤ ، ١٩٩ .

خاتمة البحث

وبعد فقد بينت في هذا البحث آراء المقريزي الاعتقادية ونقدها في ضوء مذهب أهل السنة والجماعة وموقفه من الفرق ، وكان المقريزي اسهم إسهاماً مباركاً في مجال العقيدة حيث عرض إلى أهم القضايا والمسائل المتعلقة بتوحيد الربوبية ، من حيث بيانه لأهمية هذا النوع من أنواع التوحيد والمسالك الموصلة إليه ومدى حاجة الناس إلى معرفة ربهم وخالقهم وهداية الله لهم كما هدى إليه شتى مخلوقاته .

وكذلك توحيد الألوهية الذي هو حق الله على العبيد ومدى أهمية هذا النوع من أنواع التوحيد ، وبيان أنواعه وأقسامه ، وموقف الناس منه ، وأنواع الشرك في الأمم ، ومدى تعلق الناس ببعض أنواع الشرك التي تصرفهم عن عبادة ربهم سبحانه وتعالى .

ثم بيانه لتوحيد الأسماء والصفات ، وموقف سلف هذه الأمة ، وما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصفاء والنقاء واجتماع الكلمة و البعد عن التأويل المذموم ، والتعطيل البغيض الذي أدى إلى ظهور أهل البدع في مسائل الاعتقاد .

وبيان القدر وأهميته في حس المؤمن وخطورة الخوض فيه وبيان أول من تكلم في القدر .

ثم موقفه من البدع والمخالفات الشرعية ونقده لما يحدث من الناس وربط ذلك بسنة الله الجارية في الكون .

إذ أن ما يحدث من نقص في الأرزاق وغلاء في الأسعار وجدب في الديار سببه ظلم العباد ، والمجاهرة بالمعاصي والذنوب .

أما موقفه من الفرق : فقد بين المقريزي فرقاً شتى كالخوارج والشيعة والمرجئة والأشاعرة والكرامية والمعتزلة ، وأوضح أقسام كل فرقة من هذه الفرق ، ومدى بعدها عن مذهب أهل السنة والجماعة ، وبيان أنواع شتى

من مخالفات كل فرقة ، والسبب في ظهور هذه الفرق كلها هو اتباع الظن وما تهوى الأنفس ، وعدم الأخذ بما دل عليه الكتاب والسنة **ومن ثم توصلت إلى النتائج التالية :**

أولاً : أن المقريزي كان على مذهب أهل السنة والجماعة كما سطر ذلك في كتبه ، وبينه أقرانه وتلامذته .

ثانياً : أن ما لمزه به بعض الكتاب من تشيع كان محض افتراء لا يصدقه الحال ولا يثبت في المقال .

ثالثاً : إسهامه المبارك في علوم شتى كالعقيدة و الفقه والحديث والعربية والتأريخ والاقتصاد وغيرها من العلوم التي حاز شرفها وألف فيها .

وأما أهم التوصيات :

فأرى أن مكتبة المقريزي ما تزال عامرة بعلوم شتى ، وأهم ما يتصل بمجال التخصص هو الحديث عن اليهودية و النصرانية إذ بين المقريزي بعض فرقها وأنواعها الموجودة في مصر .

وأرى أنها تستحق البحث والكتابة إن لم يكن رسالة علمية فلا أقل من أن يكون بحثاً يبين فيه الباحث تواجدها ومدى خطورتها لا سيما في هذا العصر الذي كثر فيه التنصير وتعددت أساليبه وطرقه .

وختاماً أسأل الله أن يلهمنا رشدنا ويمن علينا بالحق والثبات عليه حتى الممات والله أعلم وصلى الله على نبينا المعلم الأكرم والمربي الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

الفهـــــــــــــــارس

فهرس الآيات

سورة البقرة

آل عمران

الأنعام

الأعراف

طه

(الرحمن على العرش استوى ... ١٨٣ ، ١٩١

(قل ربنا الذي أعطى ... ١٤٨ .

المؤمنون

(قل من رب السماوات ...١٨٥ .

(فتبارك الله أحسن الخالقين ...١٤٢ .

الشعراء

(هو الذي يطعمني ويسقين ... ١٥٧ .

(تالله إنا كنا ... ١٦١ .

(وما تنزلت به الشياطين ... ١٧٠ .

(قالوا أرجه وأخاه ٢٤٩ .

القصص

(فوجدا فيها رجلان ... ٢٤١ .

النمل

(قل الحمد لله وسلام ... ١٣٥ .

ص

(وقالوا أجعل الآله ... ١٥٩ .

الزمر

الشورى

الجاثية

الذاريات

الطور

ق

الحشر

الإخلاص

(قل هو الله أحد ... ١٨١ .

فهرس الأعلام

(أ)

(ب)

(ت)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(م)

(ن)

(هـ)

(ي)

المصادر والمراجع

(أ)

أباطيل الأباطيل حسني شيخ عثمان .

أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ للدكتور إبراهيم شعوط .

أبو المحاسن تغري بردي مؤرخا في مصر والنيل للأستاذ محمد عبدالله عثمان .

اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا أحمد بن علي المقريزي تحقيق د. جمال الدين الشيال لجنة إحياء التراث القاهرة ١٣٨٧هـ

الاتقان في علوم القرآن للسيوطي دار المعرفة بيروت .

الأدب المفرد للإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري .

الآراء الاقتصادية للمقريزي دراسة مقارنة أحمد صالح الغامدي .

أضواء البيان على تفسير القرآن بالقرآن للشيخ محمد الأمين الشنقيطي ، المطابع الأهلية بالرياض .

الاعتصام للشاطبي تحقيق محمد رشيد رضا .

الأعلام لخير الدين الزركلي طبعة دار العلم بيروت .

إعلام الموقعين لابن قيم الجوزية دار الجيل .

إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن قيم الجوزية تصحيح محمد عفيفي بيروت المكتب الإسلامي ١٩٨٧ م .

الإلمام في أخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام أحمد بن علي المقريزي .

الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة د. عبدالله بن عمر الدميجي .

إنباء الغمر بأنباء العمر ابن حجر العسقلاني الهند دائرة المعارف العثمانية ١٩٦٧م .

الأوقاف والحياة الاجتماعية في عصر المماليك محمد محمد أمين دار النهضة العربية القاهرة ١٨٩٠ م .

(ب)

بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس ابو بكر بن أحمد ط بولاق ١٨٨٦م .

البدر الطالع في محاسن من بعد القرن السابع محمد بن علي الشوكاني ص ١٣٤٨ دار السعادة القاهرة .

بدع الاعتقاد د. محمد حامد الناصر مكتبة السوادي جدة .

البداية النهاية لابن كثير لأبي الفداء إسماعيل بن كثير ط٣ مكتبة المعارف –بيروت .

(ت)

تاريخ الجهمية والمعتزلة جمال الدين القاسمي .

تاريخ الفيوم للنابلسي دار الجيل بيروت ١٩٧٤م.

تجريد التوحيد المفيد أحمد بن علي المقريزي تحقيق علي العمراني .

تحفة الأحوذي جامع الترمذي أبو ا لعلاء محمد عبدالرحمن المبارك فوري دار الكتب العلمية بيروت .

التعريفات للجرجاني تحقيق إبراهيم الأبياري بيروت .

تفسير البغوي تحقيق عثمان جمعة ضميرية ، محمد النمر ، دار سليمان الحرش دار طيبة الرياض .

تفسير القرآن العظيم لابن كثير مطبعة الشعب .

تلبيس إبليس لجمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي مكتبة المدني .

التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار فيما يجب من محاسن التدبر والتصرف لمحمد بن خليل الأسدي ط١ دار الفكر ا لعربي .

(ج)

الجواب الكافي لابن قيم الجوزية .

(ش)

شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي دار التراث بيروت .

شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة لأبي قاسم اللالكائي تحقيق د. أحمد سعد حمدان .

شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز تحقيق زهير الشاويش المكتب الإسلامي بيروت .

شفاء العليل في مسائل القدر والتعليل لابن قيم الجوزية طبعة المدني بمصر .

(ص)

صبح الأعشى في صناعة الإنشاء أحمد بن عبدالله القلقشندي دار الكتب المصرية .

صحيح البخاري ابو عبدالله البخاري مكتبة الجمهورية مصر .

صحيح مسلم بشرح النووي مصورة عن طبعة محمد عبد اللطيف بمصر .

صحيح الترغيب والترهيب للمنذري تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني المكتب الإسلامي بيروت .

الصحاح للجوهري تحقيق أحمد عبدالغفور عطار دار العلم للملايين .

صلاة الوتر للمروزي اختصار أحمد بن علي المقريزي تحقيق محمد أحمد عاشور وجمال عبدالمنعم الكومي .

(ض)

ضوء الساري في معرفة خبر تميم الداري أحمد بن علي المقريزي تحقيق محمد أحمد عاشور.

الضوء اللامع لأهل القرن التاسع لشمس الدين السخاوي بيروت دار الحياة .

(ط)

الطبقات الكبرى لابن سعد دار صادر بيروت .

طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق و الغرب في العصور الوسطى لنعيم زكي فهمي المكتبة العربية — القاهرة .

(ظ)

ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي د. سفر الحوالي .

(ع)

عصر المماليك محمود رزق سليم المطبعة النموذجية مصر ١٩٨١م .

العقيد الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية شرح محمد خليل هراس .

(غ)

غاية النهاية في طبقات القراء شمس الدين ابن الجزري القاهرة ١٩٣٣م .

(ف)

فتح الباري شرح صحيح البخاري أحمد بن حجر العسقلاني تحقيق محب الدين الخطيب ط المكتبة السلفية القاهرة .

فتح المجيد بشرح كتاب التوحيد للشيخ عبدالرحمن بن حسن تحقيق الأرناؤوط .

الفرق بين الفرق عبدالقادر بن طاهر البغدادي تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد دار المعرفة بيروت .

الفصل في الملل والأهواء والنحل للشهرستاني تحقيق محمد سيد كيلاني .

فضل آل البيت على من عداهم أحمد بن علي المقريزي تحقيق محمد أحمد عاشور .

الفوائد لابن قيم الجوزية مكتبة دار البيان .

(ق)

القاموس المحيط للعلامة الفيروز آبادي طبعة الرسالة ١٤٠٧هـ .

القضاء والقدر د. سليمان عمر الأشقر .

قيام رمضان للمروزي اختصار أحمد بن علي المقريزي تحقيق إبراهيم محمد العلي .

(ك)

الكامل في الأدب للمبرد .

كشف الغمة وإغاثة الأمة أحمد بن علي المقريزي .

كشف المماليك لابن شاهين زاده .

(ل)

لا إله إلا الله عقيدة وشريعة لمحمد قطب .

لسان العرب لابن منظور دار صادر بيروت .

(م)

المجتمع المصري في عهد المماليك د سعيد عاشور ط القاهرة ١٩٦٢م .

المجمع المؤسس بالمعجم المفهرس لشهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني

مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية أحمد عبدالحليم بن تيمية مكتبة السوادي .

محيط المحيط بطرس البستاني مكتبة لبنان بيروت مصور عن طبعة ١٨٧٠م .

مختصر الصواعق المرسلة لابن قيم الجوزية

مختصر الكامل للضعفاء لابن عدي تحقيق أيمن عارف الدمشقي مكتبة السنة القاهرة .

مدخل دراسة العقدية الإسلامية د. عثمان جمعة ضميرية نشر مكتبة السوادي جدة .

المعتزلة وأصولهم الخمسة فؤاد عبدالله المعتق .

معجم البلدان لياقوت الحموي طبعة دار إحياء التراث – بيروت .

معجم المؤلفين عمر رضا كحالة دار إحياء التراث لبنان .

معجم مقاييس اللغة أحمد بن فارس بن زكريا تحقيق عبدالسلام محمد هارون مطبعة مصطفى الحلبي .

المذهب في معرفة أعيان المذهب لابن فرحون المالكي .

مفردات القرآن للراغب الأصفهاني تحقيق سيد كيلاني مطبعة الحلبي .

مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد مكتبة النهضة المصرية .
مسند الإمام أحمد بن حنبل دار الكتب العربية بيروت .،
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار احمد بن علي المقريزي .
المؤرخ المصري جمال الدين أبو المحاسن د أحمد عزت عبد الكريم ط القاهرة .
موطأ الإمام مالك تعليق محمد فؤاد عبدالباقي دار إحياء الكتب العربية .
موقف ابن تيمية من الأشاعرة د. عبدالرحمن بن صالح الحمود مكتبة الرشد الرياض .
الموسوعة العربية الميسرة طبيعة دار الشعب مصر .
منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله خالد عبداللطيف .
المير في سؤال خاتمة الخير احمد بن علي المقريزي (مخطوط) .
ميزان الاعتدال للإمام الذهبي .

(ن)

النجوم الزاهرة لابن تغري بردي المطبعة الأميرية القاهرة .
نحل عبر النحل أحمد بن علي المقريزي تحقيق د. جمال الدين الشيال .
النـزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم أحمد بن علي المقريزي .
نشأة أبي المحاسن وأثرها في كتابة التأريخ أحمد دراج القاهرة .

(و)

وفيات الأعيان وإنباء أبناء الزمان أبو العباس شمس الدين ابن خلكان تحقيق إحسان عباس بيروت ١٩٧٧ .
الولاء والبراء في الإسلام د. محمد سعيد القحطاني دار طيبة الرياض .

فهـــــــــــرس المحتويـــــــــات